

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ١٣٤



تَفْسِيرُ

الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

سُورَةُ الشُّجَرَاءِ

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

شغل الله له ولوالديه والمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٤)

تفسير
القرآن الكريم
سورة الشعراء

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

١٤٣٥
٧٥٤
٧٦٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

تفسير سورة الشعراء. / محمد بن صالح العثيمين - ط ١ - القصيم، ١٤٣٦ هـ

٣٤٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٤)

ردمك: ٢ - ٥٤ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - سورة الشعراء - تفسير.

أ - العنوان

١٤٣٦/٧٨٣٦

ديوي: ٢٢٧.٦

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٦

ردمك: ٢ - ٥٤ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

لِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيرياً بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ

يطلب الكتاب من :

مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

المملكة العربية السعودية

القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩

هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - فاكس: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧

www.ibnothaimen.com

info@binothaimen.com



الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدرة للنشر والتوزيع - شارع محمد مقلد - متفرع من مصطفى النحاس

بجوار سوپر ماركت أولاد رجب

هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

• • • • •

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ
بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ
جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ
تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَمِنَ الدَّرُوسِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُسَجَّلَةِ صَوْتِيًّا، وَالَّتِي كَانَ يَعْقِدُهَا صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ
شَيْخُنَا الْعَلَّامَةُ الْوَالِدُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْعَثِيمِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي جَامِعِهِ بِمَدِينَةِ
عَنِيزَةَ صَبَاحَ كُلِّ يَوْمٍ أَثْنَاءَ الْإِجَازَاتِ الصَّيْفِيَّةِ؛ حَلَقَاتٌ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
كَانَتْ بَدَايِئُهَا مِنْ سُورَةِ النُّورِ وَمَا بَعْدَهَا؛ حَتَّى بَلَغَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّخْرَفِ:
﴿ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ (٤٥).

وَقَدْ اعْتَمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِهِ لِتِلْكَ السُّورِ كِتَابًا بَيْنَ يَدَيْ الطُّلَّابِ هُوَ
(تَفْسِيرُ الْجَلَالَيْنِ) لِلْعَلَّامَةِ جَلَالِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَحَلِّيِّ،
الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)^(١)، وَالْعَلَّامَةَ جَلَالِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَ بْنِ مُحَمَّدِ

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٣٩/٧)، حُسن المحاضرة (٤٤٣/١).

ابن سابق الدين الخُصِرِيُّ السُّيُوطِيُّ، المتوفى سنة (٩١١هـ)^(١). تغمدهما الله بواسع رحمته ورضوانه، وأسكنهما فسيح جناته، وجزأهما عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وسعيًا - بإذن الله تعالى - لتعميم النفع بتلك الجهود المباركة في هذا الميدان العظيم باشر القسم العلمي بمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية واجباته في شرف الإعداد والتجهيز للطباعة والنشر لإخراج ذلك التراث العلمي؛ إنفاذاً للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى في هذا الشأن.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم؛ نافعا لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويضاعف له الثوبة والأجر، ويعلي درجته في المهديين، إنه سميع قريب مجيب.

وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله، خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيّد الأولين والآخرين، نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين هم بإحسان إلى يوم الدين.

القسم العلمي

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

٢٠ جمادى الآخرة ١٤٣٦ هـ



(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/٣٠١).

سورة الشعراء

• • • • •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

قال المفسر^(١) رحمه الله: [سورة الشعراء] مكية إلا آية ١٩٧ و ٢٢٤ إلى آخر
السورة فمدنية وآياتها ٢٢٧ آية نزلت بعد الواقعة].

الشعراء: جمع شاعر، وسُميت به لأنه ذُكر في آخرها، والتسمية للسور منها
شيءٌ توفيني من النبي ﷺ ومنها شيءٌ اجتهادي، فالنبي عليه الصلاة والسلام أحياناً
يذكر السورة بعينها، مثلما قال: «اقرأوا الزهراوين؛ البقرة، وسورة آل عمران»^(٢)،
وأحياناً لا يذكرها ولا يبين اسمها، ولكن يجتهد الصحابة في تسميتها.

وتسمية السور أيضاً قد تكون واحدة، بمعنى: أن تُسمى السورة باسم
واحد، وقد يكون للسورة عدة أسماء.

ومن السور ذوات الأسماء العدة سورة الإسراء، فهي تُسمى أيضاً سورة
بني إسرائيل، لكن بعض القوميين أنكروا ذلك، وحثهم في هذا الإنكار: أنه

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة

(٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٣٩/٧)، حسن المحاضرة (١/٤٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم

(٨٠٤).

لا يمكن أن تكون سورة باسم بني إسرائيل، يعني سورة اليهود، فأنكروا هذا الشيء.

وقلنا: إن القوميين أثبتوا أن اليهود قتلوا عيسى بن مريم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النساء: ١٥٧].

يقول المفسر رحمه الله: [مكيّة]، والمكيّ هو الذي نزل قبل الهجرة على القول الصحيح، يعني: فالمعتبر الزمن لا المكان.

قوله رحمه الله: [إلا] ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [إلى آخرها]، وهي أربع آيات: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [٢٢٤] أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧]، وهذا الاستثناء ليس بمقبول إلا إذا دلّ الدليل عليه، والدليل عليه تارة يكون بالنقل، وتارة يكون بالمعنى، والمعنى قد يكون واضحًا وقد يُنازع فيه.

فهنا المفسر استثنى هذه الآيات الأربع بقريته السياق؛ لأن قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، قيل: لَمَّا نزلت ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]، تأثر لها حسان رضي الله عنه فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]^(١)، والانتصار بعد الظلم كان في المدينة وليس بمكة، ومن ثم قالوا: إن هذه الآيات مدنية.

(١) تفسير الطبري (١٩/٤١٨).

قال المُفسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ: [وهي مائتان وسبعٌ وعشرون آيةً]، وتقسيم الآيات أيضًا توقيفيٌّ، حتَّى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيْسَ له شأنٌ في تقسيم الآياتِ، فتنزل الآيات من عند الله مُقَسَّمةً، وأيضًا الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يأمر بوضعها في مكانها من السورة، فهي توقيفيةٌ أيضًا في الترتيبِ.

قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ والبَسْمَلَةُ متعلِّقةٌ بفعل محذوف متأخِّر مناسب لما يُسَمَّى عليه، فمثلًا: عندما تريد أن تقرأ تقول: بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فالتَّقدير: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أقرأ».

وقُدِّرَ فعلاً لِإِنَّهُ الْأَصْلُ فِي الْعَمَلِ.

وقُدِّرَ متأخِّراً لإفادة الحصر والتبرُّك بتقديم اسم الله.

وقُدِّرَ مناسباً لِإِنَّهُ أَخْفَى، وإلا فيجوزُ أن تقدِّر: بِاسْمِ اللَّهِ أبتدئُ، ولكنَّه إذا قُدِّرَ خاصًّا فهو أخصُّ وأدلُّ عَلَى المقصودِ.



الآية (١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طَسَرَ﴾ [الشعراء: ١].

• • • • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿طَسَرَ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ]، وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: [بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ] أَنَّهُ يَقْصِدُ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ أَوْ هَذِهِ الْحُرُوفَ مَعَانِيَّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ مَرَادَهُ (اللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ) أَي: بِالْغَرَضِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَتَى بِهِذِهِ الْحُرُوفَ الْهَجَائِيَّةَ، وَبَيْنَ الْمَعْنِيَيْنِ فَرْقٌ، يَعْنِي: عَلَى التَّقْدِيرِ الْأَوَّلِ تَكُونُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ لَهَا مَعْنَى لَكِنْ لَيْسَ مَعْرُوفًا، وَعَلَى التَّقْدِيرِ الثَّانِي يَكُونُ لَا مَعْنَى لَهَا، وَلَكِنْ الْحِكْمَةُ فِي الْإِتْيَانِ غَيْرَ مَعْرُوفَةٍ.

أَمَّا احْتِمَالُ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَعْنَى فَهَذَا بَعِيدٌ، وَوَجْهُ الْبُعْدِ أَنَّ الْقُرْآنَ أَتَى بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ، وَأَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ الْهَجَائِيَّةَ لِمَجْرَدِ كَوْنِهَا حُرُوفًا لَيْسَ لَهَا مَعْنَى، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُنْزِلُ لَنَا حُرُوفًا هَجَائِيَّةً وَيَقْصِدُ بِهَا الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ هَذَا خِلَافُ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ بَيَانًا وَخُرُوجًا عَنِ مُقْتَضَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَأَمَّا الْإِحْتِمَالُ الثَّانِي فَهُوَ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ؛ بِالْغَرَضِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَتَى بِهِذِهِ الْحُرُوفَ الْهَجَائِيَّةَ؛ فَهَذَا حَقٌّ؛ فَإِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ: أَنَا لَا أَعْلَمُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ فَهَذَا حَقٌّ، وَلَكِنْ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَبْدَى مَنَاسِبَةً، وَقَالَ: إِنْ مِنَ الْمَنَاسِبَاتِ أَنْ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ الْمَعْجِزَ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ أَنَّهُ لَنْ يَأْتِيَ بِأَمْرٍ غَرِيبٍ، وَإِنَّمَا أَتَى بِكَلِمَاتٍ مِنْ

هَذِهِ الْحُرُوفِ، الَّتِي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا كَلَامُ النَّاسِ، وَمَعَ ذَلِكَ أَعْجَزَهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَتَى بِحُرُوفٍ جَدِيدَةٍ غَيْرِ مَعْلُومَةٍ لِلنَّاسِ لَقِيلَ: إِنَّ إِعْجَازَهُ ظَاهِرٌ، وَلَا أَحَدٌ يَقْدِرُ، لَكِنْ وَجْهُ الإِعْجَازِ وَتَمَامُ الإِعْجَازِ أَنْ يَأْتِيَ بِحُرُوفٍ هِيَ مِنْ حُرُوفِ الْكَلَامِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا النَّاسُ، وَمَعَ ذَلِكَ يُعْجِزُهُمْ، وَاسْتَأْنَسُوا لِإِثْبَاتِ هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ بِأَنَّكَ لَوْ تَدَبَّرْتَ هَذِهِ السُّورَ الَّتِي ابْتَدَأْتَ بِالْحُرُوفِ الْهَجَائِيَّةِ لَوَجَدْتَ أَنَّهُ يَذْكَرُ بَعْدَ الْحُرُوفِ مَا يَتَّصِلُ بِالْقُرْآنِ:

﴿الْمَرْ ١﴾ ذَلِكَ أَنْ كَتَبَ ﴿[البقرة: ١-٢].﴾

﴿الْمَرْ ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمِ الْيَوْمُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴿[آل عمران: ١-٣].﴾

﴿الْمَص ١﴾ كُنْتُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴿[الأعراف: ١-٢].﴾

﴿الْمَرْ ٢﴾ يَا أَيُّهَا الْكَلْبُ الْكَبِيرُ ﴿[يونس: ١].﴾

﴿الْمَرْ ٣﴾ أُنزِلَتْ عَلَيْكَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿[هود: ١].﴾

﴿الْمَرْ ٤﴾ يَا أَيُّهَا الْكَلْبُ الْمُبِينُ ﴿[يوسف: ١].﴾

﴿الْمَرْ ٥﴾ يَا أَيُّهَا الْكَلْبُ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴿[الرعد: ١].﴾

﴿الْمَرْ ٦﴾ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿[إبراهيم: ١].﴾

﴿الْمَرْ ٧﴾ يَا أَيُّهَا الْكَلْبُ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿[الحجر: ١].﴾

﴿كَهَيْعَص ١﴾ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿[مريم: ١-٢].﴾

﴿طه ١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى ﴿[طه: ١-٢].﴾

﴿طسّر ١﴾ يَا أَيُّهَا الْكَلْبُ الْمُبِينُ ﴿[الشعراء: ١-٢].﴾

﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١].

﴿طَسَمَ ۝١ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [القصاص: ١-٢].

﴿الْمَ ۝١ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۝﴾ [العنكبوت: ١-٣].

﴿الْمَ ۝١ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ فِي آذَنِي الْأَرْضِ ۝﴾ [الروم: ١-٣].

﴿الْمَ ۝١ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١-٢].

﴿الْمَ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١-٢].

وسيروا على هذا.

بِقِيَّ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُرَدَّ بِأَنَّ الْآيَاتِ: ﴿الْمَ ۝١ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا

ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢]، و﴿الْمَ ۝١ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ فِي آذَنِي

الْأَرْضِ﴾ [الروم: ١-٣]، و﴿كَهَيْعَصَ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا﴾ [مريم: ١-

٢]، لَيْسَ فِيهَا ذِكْرٌ لِلْقُرْآنِ؟

فَيُقَالُ: فِيهَا ذِكْرٌ لِلْقُرْآنِ: ف ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا﴾ هَذَا وَحِيٍّ،

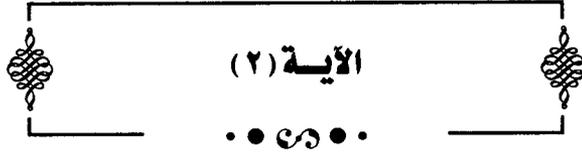
و﴿الْمَ ۝١ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فَإِنَّ قِصَصَ وَأَخْبَارَ الْأَوَّلِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِالْوَحِيِّ، و﴿غَلَبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ فِي

آذَنِي الْأَرْضِ﴾ إِخْبَارٌ أَيْضًا عَنْ أَمْرٍ مُسْتَقْبَلٍ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالْوَحِيِّ.

ثم لو فرض أن هذا ليس بواضح؛ فإن النادر لا حكم له، وهذا المعنى -الذي

أشرفنا إليه- ذكره الزمخشري، وأيده شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(١).



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [الشعراء: ٢].



قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ تِلْكَ ﴾ أَي: هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾، وَتَعْبِيرُ الْقُرْآنِ: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ وَهَنَّاكَ فَرْقٌ بَيْنَ التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ وَتَعْبِيرِ الْمُفَسِّرِ؛ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ التَّعْبِيرَ الْقُرْآنِيَّ أَتَى بِالْإِشَارَةِ لِلْبَعِيدِ، وَالْمُفَسِّرُ أَتَى بِالْإِشَارَةِ لِلْقَرِيبِ.

ثُمَّ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَي: هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾]، أَيْضًا لِيُبَيِّنَ أَنَّ آيَاتِ الْكِتَابِ هِيَ الْخَبْرُ.

وَالصَّوَابُ أَنْ نَقُولَ: لَوْ قَالَ الْمُفَسِّرُ: (تِلْكَ الْآيَاتُ آيَاتٍ) لَكَانَ أَحْسَنَ؛ لِأَنَّ كَوْنَهُ يَعْدِلُ عَنِ الْإِشَارَةِ بِالْبَعِيدِ إِلَى الْإِشَارَةِ بِالْقَرِيبِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ الْإِشَارَةَ لِلْبَعِيدِ، فَهَذَا لَيْسَ تَفْسِيرًا، وَالصَّوَابُ بِلَا شَكٍّ: الْقُرْآنُ هُوَ الصَّوَابُ، وَالْإِشَارَةُ بِالْبَعِيدِ هُنَا مَعَ قُرْبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَكَوْنِهِ بَيْنَ أَيْدِينَا إِشَارَةٌ إِلَى عُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ، فَهُوَ لِلتَّعْظِيمِ، وَإِذَا صَرْنَا عَلَى مَا قَالَ الْمُفَسِّرُ فَاتَنَا هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي أُرِيدَ بِالْإِشَارَةِ لِلْبَعِيدِ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ الْقُرْآنُ، وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى (مِنْ)، يَعْنِي: آيَاتٍ مِنَ الْكِتَابِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ الْكِتَابِ ﴾ بِمَعْنَى: الْمَكْتُوبِ، كَاللِّبَاسِ بِمَعْنَى: الْمَلْبُوسِ، وَالغِرَاسِ:

بمعنى المغروس، والبناء بمعنى: المبنى، والفراش: بمعنى المفروش. وسُمِّيَ كِتَابًا لِأَنَّهُ كُتِبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَكُتِبَ بِالصُّحُفِ الَّتِي بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ، وَكُتِبَ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ النَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّمَا نَذَكِرُكَ﴾ (١١) ﴿فَتَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿عيس: ١١-١٦﴾

وقوله: ﴿ءَايَاتٍ الْكِتَابِ﴾ الآيات جمع آية، وهي في اللغة: العلامة، والمراد بها هنا العلامة الدالة على منزل هذا القرآن، وهو الله سبحانه وتعالى.

إذن كل آية من هذه الآيات فيها إعجاز؛ لأنه لو لم يكن فيها إعجاز لم تكن آية؛ لأن الآية العلامة الفارقة، ولا يكون القرآن علامة فارقة بينه وبين كلام الأدميين إلا إذا كان مُعْجِزًا.

قَالَ الْمُسَرِّحَ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿الْمُبِينِ﴾ الْمُظْهِرِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَأحيانًا يفسرون المبين بالبين، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، يعني: البين الواضح؛ وذلك لأنَّ أَبَانَ تُسْتَعْمَلُ قَاصِرَةً وَمُتَعَدِّيَةً، يعني: فتستعمل قاصرة: بَانَ الشَّيْءُ وَأَبَانَ الشَّيْءُ، وَتُسْتَعْمَلُ مُتَعَدِّيَةً، فيقال: أَبَنْتُ الْحَقَّ، يعني: أظهرته، فالمبين إذا فُسِّرَتْ بِالْبَيْنِ فمعناه أن السِّيَاقَ لَا يَقْتَضِي سِوَى ذَلِكَ، فتكون من اللازم، فإذا كَانَ الْمَعْنَى يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُتَعَدِّيِّ - يعني: بمعنى مُظْهِرٍ - وَجِبَ أَنْ تُفَسَّرَ بِهِ؛ لِأَنَّ تَفْسِيرَهَا بِالْمُظْهِرِ يَشْمَلُ أَوْ يَتَضَمَّنُ تَفْسِيرَهَا بِالْبَيْنِ؛ إِذِ الْمُبِينُ مَعْنَاهُ: بَيْنٌ بِنَفْسِهِ، مُبِينٌ لِغَيْرِهِ، خِلافَ الْبَيْنِ بِنَفْسِهِ فَقَدْ لَا يُبِينُ غَيْرَهُ.

إذن كلما جاءت (مبين) في القرآن إن أمكن أن تُفسَّرَ بالإبَانَةِ، الَّتِي هِيَ الْإِظْهَارُ وَجِبَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْمَلُ، وَإِذَا لَمْ يُمْكِنُ فُسِّرَتْ بِالْبَيْنِ الَّذِي هُوَ اللَّازِمُ دُونَ الْمُتَعَدِّيِّ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، فَهِيَ بِمَعْنَى (بَيْن)

من اللازم، ويمكن على بُعد أن تكون بمعنى (المبين)، يعني: المظهر لصلابهم، ولكن المعنى الأول أبين.

على كل حال نقول: ﴿الْمُبِين﴾ هنا بمعنى: المظهر للحق، ولا يكون مُظهرًا للحق إلا وهو بين بنفسه.

وترك المفعول في قوله: ﴿الْمُبِين﴾ لإفادة العموم والشمول، فهو مبين لكل شيء، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وهذا يدل على أن القرآن شامل لكل شيء، وأما: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فليس المراد به القرآن، وإن كان كثير من الناس تسمعونهم يستدلون بهذه الآية على أن القرآن شامل لكل شيء، ولكن المراد ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾: اللوح المحفوظ.

و﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أبلغ، فهو مذكور فيه بيان كل شيء، فالقرآن تبيان لكل شيء، ولا يخفى على أحد تبيان القرآن إلا لعلة فيه ليست في القرآن، لعلة في نفس الذي خفي عليه؛ لأننا نجزم بصدق هذه القضية ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، وما خفي على أحد من الناس ما خفي من الأحكام، إلا لقصور في فهمهم، أو في علمهم، أو في إرادتهم، فهو إما قاصر في الفهم لا يفهم، وهذا لا يتبين له الشيء، وإما قاصر في العلم ليس لديه معلومات، وإما قاصر في قصده، أي نيته.

ولهذا قال شيخ الإسلام: «من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له طريق الحق». ذكره في (العقيدة الواسطية)^(١)، حينما تكلم عن الآيات القرآنية الدالة على

(١) العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ٧٤) ط. أضواء السلف.

الصفات، وهي كلمة لها معناها.

إذن فقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: المبين لكل شيء، وخفاء بعض الأمور على الناس من القرآن ليس من قصور القرآن، ولكن من قصورهم؛ إما لقصور في الفهم، أو العلم، أو القصد.

قد يقول قائل: إننا لا نجد كل شيء في القرآن؟ وأول ما يعترض علينا أننا لا نجد كم عدد الركعات في الصلاة، فأين البيان؟

فیردُّ عليه بأنَّ القرآن أتى بتبيان كل شيء على العموم، والسنة أنزلها الله عليه ﷺ لتبين للناس موضوعه، والرسول ﷺ قد فسّر القرآن، ولكن على الصيغ العامة والإشارات العامة بالقرآن، وأما التفرعات فبينها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنقول: بيان القرآن نوعان:

أحدهما: أن يبين الشيء بعينه.

والثاني: أن يبينه بوسيلته وطريقته. يعني: يقول: الطريق إلى معرفة هذا كذا.

فتارة يبين الشيء بعينه، والغالب أن ذلك فيما لا يمكن إدراكه، وتارة يبين الشيء بطريقته ووسيلته، يعني: يقول الطريقة إلى كذا هي كذا، فمثلاً: بين لنا الطريق إلى معرفة عدد الصلاة بقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وبقوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، وبقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وبقوله: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وغير ذلك.

وقد نقلت قصة عن الشيخ محمد عبده مع رجل نصراني اعترض عليه،

حيث قَالَ النصراني: إِنَّا لَا نَجِدُ فِي الْقُرْآنِ كَيْفَ نَصْنَعُ هَذَا الطَّعَامَ؟ فدعا الشيخُ مُحَمَّدَ عبده بصاحبِ المطعمِ وقال له: كَيْفَ صَنَعْتَ هَذَا الطَّعَامَ؟ فقال صاحبُ المطعم: فعلت كَذَا وكذا. فقال الشيخ محمد عبده: هكذا عَلَّمَنَا الْقُرْآنُ. فقال النصراني: كَيْفَ عَلَّمَكُمُ الْقُرْآنُ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَتَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فالتَّيْبَانِ فِي الْقُرْآنِ تَارَةً يُبَيِّنُ الشَّيْءَ بَعِيْنِهِ، وَتَارَةً يُبَيِّنُ وَسِيْلَتَهُ الَّتِي تُظْهِرُهُ وَتُبَيِّنُهُ.

ومن فوائد الآية الكريمة:

بيانُ علُوِّ شأنِ الْقُرْآنِ؛ للإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾، وأنه آياتٌ، والآيةُ هِيَ العَلَامَةُ الخاصَّةُ أو المُعْجِزَةُ مثلاً؛ لِأَنَّ عِلَامَةَ الشَّيْءِ معناها: ما يَحْتَصُّ به، ولو كَانَ هَذَا الشَّيْءُ لَا يَحْتَصُّ بِاللَّهِ ما صارَ آيَةً له، فالآيةُ هِيَ العَلَامَةُ الخاصَّةُ الَّتِي لَا تكونُ لغيرِ مَنْ كانتُ له، فالشَّمْسُ والقمرُ لَا يَمْكِنُ لِأحَدٍ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهَا، وَالْقُرْآنُ لَا يَمْكِنُ لِأحَدٍ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ.

فالعَلَامَةُ الخاصَّةُ لمن كانتُ له، بحيثُ لَا يستطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ، سواءَ كانتُ كونيَّةً أو شرعيَّةً، وفي هَذِهِ الآيَةِ أَنْ جَمِيعَ آيَاتِ الْقُرْآنِ معْجِزَاتٌ، ولو كانتُ آيَةً واحِدةً فإنها مُعْجِزَةٌ، وقد تكونُ معْجِزَةٌ بذاتها وقد تكونُ معْجِزَةٌ بسياقِها؛ لِأَنَّ مثلاً قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر: ٢١]، قد لَا يستطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: إنها معْجِزَةٌ، وإن كلَّ إنسانٍ مَمْكِنٌ أَنْ يَأْتِيَ بِكَلِمَةِ (ثُمَّ نَظَرَ)، لكنها مُعْجِزَةٌ فِي سِياقِها وفي مَوْضِعِها، فالآياتُ حَقِيقَةٌ قلنا: إنها حروفٌ، ومن كَلِمَاتِ النَّاسِ، وهذه الحروفُ لَيْسَتْ معْجِزَةٌ؛ لِأَنَّها من كَلِمَاتِهِمْ وَيَسْتطيعونَها، لكن مَكَانَها وسِياقِها وما تَدُلُّ عليه هَذَا هُوَ المعْجِزُ.

ومن المذاهب الباطلة: (مذهب أهل الصرفة) وهو مذهب لئس بصحيح؛ ومعناه أن باستطاعة الإنسان أن يفعل لولا المانع، يقولون: إن الناس مَصْرُوفُونَ عن معارضة القرآن، لا عاجزون، وفرق بين من يكون باستطاعته أن يفعل لولا المانع، ومن يقول: لئس باستطاعته أن يفعله، فالأخير أبلغ. ولهذا (مذهب أهل الصرفة) يقول العلماء: مذهب باطل، وإنه لئس باستطاعة أحد أن يفعل أبدًا.

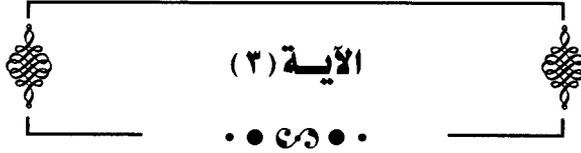
فإن قيل: يأتي بكلام ركيك.

قلنا: بل أتى بكلام يضحك منه الناس.

فإن قال قائل: كلام بعض البشر، هل يُنقل في القرآن على حقيقته أم حكاية؟

فالجواب: لئس هو لفظه الحقيقي، ولهذا مثلاً: كلام موسى باللغة العبرية، وكلام فزعون باللغة القبطية، وما أشبه ذلك، ثم إن الكلمات أيضًا تختلف، يعني: نفس الآيات تُنقل مرة كذا ومرة كذا، فالله يعبر، ويكون السياق هو الذي يقتضي هذا التعبير دون ذلك.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

•••••

قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿لَعَلَّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بَنِيعٌ نَفْسَكَ﴾ قَاتِلُهَا غَمًّا مِنْ أَجْلِ ﴿أَلَّا يَكُونُوا﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ وَ(لَعَلَّ) هُنَا لِلإِشْفَاقِ، أَي: أَشْفَقُ عَلَيْهَا بِتَخْفِيفِ هَذَا الْغَمِّ].

(لعل) للإشفاق، وتكون للتعليل وتكون للترجي. فإذا تعلقت بمكروه فهي للإشفاق، وإذا تعلقت بمحبيب تكون للترجي، وإذا تعلقت بعلّة من العلال فهي للتعليل، وهي هنا للإشفاق، مثل أن تقول: (لعل الحبيب هالك) فلا يمكن أن يكون قصدك ترجي أن يهلك حبيبك، لكنك تُشفق.

والله تعالى أشفق على نبيه ﷺ من أن يهلك نفسه - يقتلها من الغم - بسبب عدم إيمانهم، والرسول عليه الصلاة والسلام يعاني من عدم إيمانهم، ومن المشقة الشديدة، ويحزن، ويضيق صدره ولكن الله تعالى يسليه بمثل هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]، وهنا يقول: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ﴾ مهلكها ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ففي هذا دليل على أن الإنسان الداعية لا ينبغي أن يهلك نفسه في الهَمِّ والغَمِّ لعدم قبول الناس للحق؛ لأنه إذا أتى بما يجب عليه انشرح صدره، وكفى. فأنت أتيت بما يجب عليك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم إن

امثّل النَّاسَ فهو نِعْمَةٌ عَلَى الْجَمِيعِ، وَإِنْ لَمْ يَمَثِلُوا فَلَا تَعْتَمَّ؛ لَأَنَّكَ إِذَا اغْتَمَمْتَ اشْتَغَلْتَ بغيرِكَ عن نَفْسِكَ، وصار هَمُّكَ ولاء النَّاسِ، وهذا يُفْسِدُ عَلَيْكَ أَنْتَ عِبَادَتِكَ الْخَاصَّةَ، فاشْتَغَلَّ بِنَفْسِكَ، وغيرِكَ أذَّ ما أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْكَ لَهُمْ، ثمَّ إِنْ اهْتَدَوْا، وَإِلَّا لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسيطِرٍ. وبهذا يَسْتريحُ الْإِنْسَانُ راحةً عَظِيمَةً ويكون مُقْبِلًا عَلَى عِبَادَتِهِ، مُحْسِنًا لها.

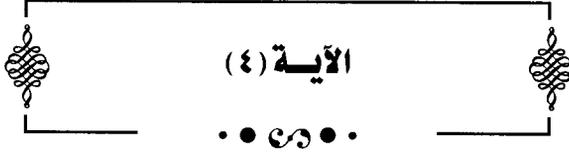
فإن قال قائل: بعض النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ النَّاسَ لَهُمْ حُجَّةً فِي ذَلِكَ، ويقولون حديثاً عن الرسول ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ»^(١).

فالجواب: قال «عَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ» فَمِنْ خَاصَّةِ نَفْسِكَ أَنْ تَأْمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. فلا تَدْعُ نَفْسَكَ فِي مَلاحِقَةِ النَّاسِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِمْ عَنِ دِينِكَ.

ويُستفاد من الآية الكريمة: تَسْلِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ لِعَدَمِ إِيمَانِ قَوْمِهِ.



(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٠٥]، رقم (٤٠١٤).



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ﴾

[الشعراء: ٤].



قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ﴾ بِمَعْنَى الْمَضَارِعِ، أَي: تَظَلَّ، أَي: تَدُومُ ﴿أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ فَيُؤْمِنُونَ].

قوله: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ﴾ جملة شرطية، فعل الشرط: (نَشَأْ) وجوابه: (نُزِّلْ)، وفي الإتيان بهذه الصيغة: ﴿نَشَأْ نُزِّلْ﴾ من تعظيم الله سبحانه وتعالى لنفسه ما لا يخفى؛ لأنه جعل الأمر هنا يسيراً عليه إذا شاءه، وأنه سبحانه وتعالى بإرادته لم يفعل، ثم الإتيان بنون العظمة هو تعظيم آخر أيضاً، فالله تعالى ما قال: إِذَا سِئْنَا نَزَّلْنَا، قَالَ: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ﴾.

وقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ﴾ أي: علامة، وهذه العلامة لا شك أنه لا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها - كما أشرنا إليه قريباً - ثم إنها علامة أيضاً ليست على قدرة من هي له، أو على انفراده بالخلق، ولكنها آية أيضاً على أنهم لم يؤمنوا، وعلى تهديدهم بالوعيد، ولهذا قال: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ فلا تستطيع أن تمثل هذه الآية لأن الله سبحانه وتعالى نكرها، فهي آية ليست معلومة لنا؛ لأن الله لم ينزلها، لكنها آية تُخَضِعُهُمْ، ولهذا قال: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾.

وقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ هل المراد بها السَّقْف أم المراد بها العُلُو؟ مُحْتَمَلٌ هَذَا وهذا، يَحْتَمِلُ أَتَمَّا بِمَعْنَى العُلُو، وَيَحْتَمِلُ أَنْ المراد بها السَّقْف الَّذِي هُوَ عَلَى الأَرْضِ. وَأَيًّا كَانَ فَإِنَّ إِيَابَانَ الشَّيْءِ مِنْ فَوْقٍ أَبْلَغُ فِي التَّهْدِيدِ؛ لِأَنَّ مَنْ فَوْقَكَ فَقَدْ عَلَكَ، وَمَنْ عَلَكَ فَلَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ، بِخِلَافِ مَنْ كَانَ بِحِذَائِكَ فَقَدْ تَفَرَّ وَقَدْ تَنَاضَلَ، وَلَكِنَّ المَشْكِيلَ إِذَا جَاءَ الأَمْرُ مِنْ فَوْقٍ.

وقوله: ﴿فَظَلَّتْ﴾ يَقُولُ المَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: (بِمَعْنَى المِضَارِعِ، أَي: تَظَلَّتْ)، وَإِنَّمَا قَالَ المَفْسِّرُ: (بِمَعْنَى المِضَارِعِ) لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ﴾ مِضَارِعٌ، فَنَاسِبٌ أَنْ يَكُونَ ﴿فَظَلَّتْ﴾ مِضَارِعًا، لَكِنَّهُ عَدَلَ عَنْهُ لِيَبَانَ أَنَّهُ كالأَمْرِ الوَاقِعِ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللهُ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، مَعَ أَنَّهُ سِيَآتِي، فَالْمَعْنَى: إِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ ظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ.

وقوله: ﴿أَعْنَاقُهُمْ لَهَا﴾ أَي: لِهَذِهِ الأَيَةِ، فِيحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ اللَامُ هُنَا لِلتَّعْدِيَةِ، أَي: خَاضِعِينَ لَهَا، أَوْ لِلتَّعْرِيفِ، أَي: مِنْ أَجْلِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿خَاضِعِينَ﴾: أَي ذَلِيلِينَ. قَالَ المَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [وَلَمَّا وَصِفَتِ الأَعْنَاقُ بِالخُضُوعِ الَّذِي هُوَ لِأَرْبَابِهَا، جُمِعَتِ الصِّفَةُ مِنْهُ جَمْعَ العُقَلَاءِ]، المُرَادُ بِ(الصِّفَةُ مِنْهُ) هُنَا الخَبْرُ ﴿خَاضِعِينَ﴾، وَالخَبْرُ صِفَةٌ فِي المَعْنَى، وَإِنْ كَانَ فِي الإِعْرَابِ لَا يُسَمَّى صِفَةً، لَكِنَّهُ فِي المَعْنَى صِفَةٌ. وَهُنَا ﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾ المَعْرُوفُ الكَثِيرُ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ أَنْ تَكُونَ (خَاضِعَةً): (أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعَةً)، مِثْلُ: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ﴾ [القلم: ٤٣]، لَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ الخُضُوعُ مِنْ أوصَافِ العُقَلَاءِ لَا مِنْ أوصَافِ غَيْرِ العَاقِلِ جُمِعَ جَمْعَ عَاقِلٍ؛ لِأَنَّ جَمْعَ المَذْكَرِ السَّالِمِ يَحْتَصِرُ بِالعُقَلَاءِ، فَجُمِعَتِ جَمْعَ العَاقِلِ لِهَذَا السَّبَبِ.

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا﴾ (لَهَا) هِيَ الخَبْرُ، وَتَكُونُ (خَاضِعِينَ)

حالاً من الضمير المُستترِ في الخبر، نقول: هَذَا بعيد، لِأَنَّهُ لا مَعْنَى لـ ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقَهُمْ لَمَّا﴾، فَإِذَا قال إنسان: ربما يكون التَّقْدِيرُ: ناظرةٌ لها؛ أي: ظلت أعناقهم ناظرةً لها، فَرَدُّ هَذَا بأن يُقال: إن المتعلِّق إذا كَانَ خاصًّا فَإِنَّهُ لا يُحذف، وَإِنَّمَا يُحذف إذا كَانَ عامًّا، يعني: تقديره كائن أو مستقرّ، هَذَا الَّذِي يُحذف، أَمَا إذا كَانَ خاصًّا كراكي وجالس، وما أشبه ذلك؛ فَإِنَّهُ لا يُحذف.

فَوَائِدُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِبْطَاتُ الْمَشِيئَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ نَشَأْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: إِبْطَاتُ الْقُدْرَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نَزَّلْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّهْدِيدُ لِهَوْلَاءِ الْمَكْذِبِينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَمَّا

خَضَعِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَسْبَابَ مُؤَثَّرَةٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا نَزَلَتِ الْآيَةُ خَضَعُوا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ الْأَسْبَابِ، وَأَنَّهَا مُؤَثَّرَةٌ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى إِبْطَاتِ الْحِكْمَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْزِلْ هَذِهِ الْآيَةَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَنْزَلَهَا لَكَانَ الْإِيمَانُ اضْطِرَارِيًّا، وَالْإِيمَانُ الْاضْطِرَارِيُّ لا مَدْحَ فِيهِ وَلا ثَنَاءَ، بَلْ لا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ، فَلهَذَا إِذَا آمَنَ الْإِنْسَانُ عِنْدَ مَلَاقَاةِ الْمَوْتِ ما نَفَعَهُ، وَبَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ما نَفَعَهُ، نَعَمْ، لا يَنْفَعُ إِلا إِذَا كَانَ الْإِيمَانُ اخْتِيَارِيًّا، وَلَمَّا تَنَقَّ اللَّهُ الْجَبَلَ فَوْقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ آمَنُوا، وَلَكِنْ هَذَا الْإِيمَانُ لا شَكَّ أَنَّهُ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّهُ إِيمَانُ اضْطِرَارِيٌّ، فَمِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُنَزَّلْ هَذِهِ الْآيَةَ لِيَكُونَ الْإِيمَانُ عَنِ اخْتِيَارٍ، لا عَنِ اضْطِرَارٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل تُدُلُّ الآيَةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ؟

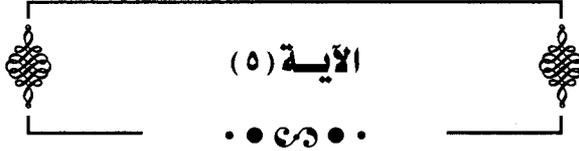
فالجواب: لا، فنزول الآية من السماء لا يُستدلُّ به على أن الله فوق.

وإن قيل: هل يدل تنكيرُ الآية على عَظَمَتِهَا؟

قلنا: نعم، يدلُّ على عَظْمَةٍ مَن هِيَ لَهُ، وعلى تعظيم الآية نفسها، ولهذا تَظَلُّ

أعناقهم لها خاضعين.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾﴾

[الشعراء: ٥].



يقول المفسر رحمه الله: [﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ ﴾ قرآن ﴿ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثًا ﴾ صفة كاشفة ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾]، (ما): نافية؛ بدليل قوله: ﴿ إِلَّا كَانُوا ﴾، وهذا الاستثناء مفرق من عموم الأحوال، يعني: لا يكون لهم من أي حالة من الأحوال سوى الإعراض.

وقوله: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ ﴾، (من) زائدة إعراباً للتوكيد، والتقدير: ذكر، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ مِنْ ذِكْرِ ﴾ قال المفسر: (قرآن)، وسمي القرآن ذكراً لأن به التذكُّر والتذكير أيضاً، فهو تذكير من الله وتذكر من سامعه، ولهذا سمي ذكراً، ووصف القرآن مرة ثانية بأنه ذو الذكر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩]، والقرآن للذكر؛ فمرة جعله ذكراً، ومرة جعله ذا ذكر، ولا فرق بينهما في الواقع؛ لأنه ذكرٌ بنفسه وتذكيرٌ، ولأنه ذو ذكرٍ، أي: ذو تذكرٍ، فمن قرأه وحفظه وتدبره تذكر به، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يكون كذلك القرآن مُسْتَمِلاً عَلَى الذِّكْرِ؟ أي فيه آياتٌ

فيها أذكارٌ.

فالإجابة: لا، فحتى الأذكار المقصودُ بِهَا تذكيرُ النَّاسِ. فالمقصود بكونه ذِكْرًا أَنَّهُ مُذَكَّرٌ، ويتذكر به مَنْ تَذَكَّرَ.

قال تعالى: ﴿مَنْ الرَّحْمَنُ﴾، وفي آية أخرى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [الأنبياء: ٢]، فذكر الرَّحْمَنِ هنا إشارة إلى أن نزولَ هَذَا الْقُرْآنِ وإتيانه من مقتضى رحمةِ الله، وأن الله تعالى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَحِمَ الْعِبَادَ بهذا الْقُرْآنِ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، أي ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ مِنَّْا ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾، وليس المعنى - كما يفهم كثيرٌ من العوام - ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ يعني: أنك أنت الرحمة، لا، يعني: وما أرسلناك إلا لِنَرْحَمَ الْعِبَادَ، هَذَا هُوَ الْمَعْنَى، وليس هُوَ نَفْسَهُ رَحْمَةً كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْغُلُوِّ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَالْجَاهِلُونَ أَيْضًا.

يقول المُفَسِّرُ رَحْمَةً لِلَّهِ: [صفة كاشفة]، وَالصِّفَةُ الْكَاشِفَةُ هِيَ الَّتِي تُبَيِّنُ الْوَاقِعَ، وَلَا تُقَيِّدُ الْمَوْصُولَ؛ لِأَنَّ الصِّفَاتِ مِنْهَا صِفَةٌ مُقَيِّدَةٌ تُخْرِجُ مَا سِوَاهُ، وَمِنْهَا صِفَةٌ كَاشِفَةٌ تُبَيِّنُ حَقِيقَةَ أَمْرِهِ.

فهنا يقول المُفَسِّرُ: إن كلمة (مُحَدَّث) صفة كاشفة؛ فكلمة: (مَا يَأْتِيهِمْ) تدل عَلَى (مُحَدَّثٍ)، فلا مفهوم لها؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ يَأْتِيهِمْ وَجِبَ أَنْ يَكُونَ مُحَدَّثًا؛ لِأَنَّ بَاتِيَانِهِ إِيَّاهُ صَارَ مُحَدَّثًا، وَوَجْهَ ذَلِكَ ظَاهِرٌ أَنَّهَا صِفَةٌ كَاشِفَةٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرَ مُحَدَّثٍ مَا صَحَّ أَنْ يَقُولَ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾، إِذْ هُوَ آتٍ مِنَ الْأَصْلِ.

وقوله: ﴿مُحَدَّثٍ﴾ ظاهراً الآية الكريمة أن المحدث هو الذكر نفسه، فيكون في الآية دلالة على أن الله تعالى يتكلم بالقرآن حين إنزاله، وأنه ليس - كما روي عن ابن عباس - أَنَّهُ نَزَلَ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ^(١)، وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ

(١) أخرج النسائي في السنن الكبرى (٧/٢٤٧، رقم ٧٩٣٧) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «فُصِّلَ

الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ حِينَ أَنْزَلَهُ.

وقيل: ﴿مُحَدَّثٌ﴾ إنزاله، ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ﴾ إنزاله، فلا تكون الصِّفَةُ هنا حقيقيةً، وإنما هِيَ صِفَةٌ سَبَبِيَّةٌ؛ لِأَنَّ الْمَوْصُوفَ فِيهَا حَقِيقَةٌ لَيْسَ الذِّكْرُ، بَلْ هُوَ الْإِنْزَالُ، هَذَا إِذَا قُلْنَا: ﴿مُحَدَّثٌ﴾ إنزاله، كما إِذَا قُلْتَ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ قَائِمٌ أَبُوهُ، فَ(قَائِمٌ) هَذِهِ الصِّفَةُ مِنْ حَيْثُ الْإِعْرَابُ لـ(رَجُلٍ)، لَكِنْ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى صِفَةٌ لـ(أَبُوهُ)، وَهَذَا الْوَصْفُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ يُسَمَّى بِالنَّعْتِ السَّبَبِيِّ.

فَعَلَى هَذَا عَلَى الْقَوْلِ أَنَّ الْمُرَادَ: ﴿مُحَدَّثٌ﴾ أَنْزَالُهُ يَكُونُ النَّعْتُ هُنَا سَبَبِيًّا لَا حَقِيقِيًّا، وَلَكِنْ إِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ النَّعْتُ صِفَةً حَقِيقِيَّةً أَوْ صِفَةً سَبَبِيَّةً؛ فَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً حَقِيقِيَّةً؛ لِأَنَّ الصِّفَةَ السَّبَبِيَّةَ تَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، وَكُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، فَهَذَا نَقُولُ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ﴾ ظَاهِرُ اللَّفْظِ أَنَّ الْقُرْآنَ نَفْسَهُ مُحَدَّثٌ، ثُمَّ إِنَّ ﴿مُحَدَّثٌ﴾ أَنْزَالُهُ لَا مَعْنَى لَهَا فِي الْوَاقِعِ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ إِلَّا وَإِنْزَالُهُ مُحَدَّثٌ؛ لِأَنَّ (أَتَى) مَعْنَاهُ (حَدَّثَ). فَعَلَى هَذَا نَقُولُ: الصَّوَابُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُحَدَّثِ نَفْسُ الذِّكْرِ، وَلَيْسَ أَنْزَالُهُ.

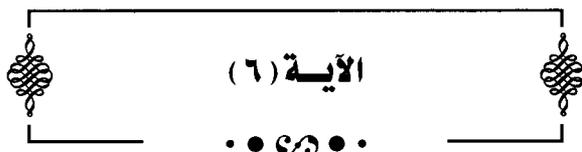
قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾، (عَنْهُ) جَارٌّ وَمَجْرُورٌ مُتَعَلِّقٌ بِ(مُعْرِضِينَ)، وَ(مُعْرِضِينَ) خَبَرٌ (كَانَ)، وَفَائِدَةُ تَقْدِيمِهِ عَلَيْهِ هُنَا لَفْظِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ؛ أَمَّا اللَّفْظِيَّةُ فَمِرَاعَاةُ الْفَوَاصِلِ - فَوَاصِلِ الْآيَاتِ - وَأَمَّا الْمَعْنَوِيَّةُ فَلِإِفَادَةِ الْحَصْرِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَا تَكُونُ حَالَهُمْ إِلَّا الْإِعْرَاضُ عَنْهُ دُونَ غَيْرِهِ، يَعْنِي: عَنْهُ فَقَطْ وَحْدَهُ مُعْرِضِينَ، وَهَذَا

= الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ فَوْضِعَ فِي بَيْتِ الْعِرَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَجَعَلَ جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِرُتُلِهِ تَرْتِيلًا.

أَبْلَغُ فِي الدَّمِّ مِمَّا لَوْ قَالَ: إِلَّا كَانُوا مُعْرِضِينَ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يُعْرِضُوا عَنْهُ
وغيره، ولكنّه لما قَالَ: ﴿عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ كَأَنَّهُمْ لَا يَتَّصِفُونَ بِالْإِعْرَاضِ إِلَّا عَنْ هَذَا
الذِّكْرِ.

وهذا الإِعْرَاضُ معنويٌّ وحسبيٌّ، يَشْمَلُ الأمرين؛ فهم مُعْرِضُونَ وَإِنْ حَضَرُوا
بأبدانهم، ومُعْرِضُونَ أَيْضًا بأبدانهم يقومون عنه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، فهم مُعْرِضُونَ - وَالْعِيَادُ
بِاللَّهِ - فِي قُلُوبِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الشعراء:٦].

•••••

يقول المفسر رحمه الله: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ به، أي: بهذا الذكر، والجُملة مُحَقَّقة (بـ)قد، والمعنى أَنَّهُ مع وُضوح كون هَذَا الذِّكْر من الرَّحْمَنِ ما انتَفَعُوا به، بل كَذَّبُوا به، والتَّكْذِيبُ به يَعْمُ التَّكْذِيبُ بِهِ رَأْسًا، بأن يقولوا: إن هَذَا الْقُرْآنَ لَيْسَ من اللَّهِ، كما قالوا: ﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل:١٠٣]، أو التَّكْذِيبُ ببعض الآياتِ منه، كما لو كَذَّبُوا بقِصَّةِ أَحَدِ الرُّسُلِ، أو بقِصَّةِ قِصَّهَا اللهُ تَعَالَى عَن أَحَدٍ؛ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ، أو ما أشبه ذلك.

فهو إما أن يكون التَّكْذِيبُ بِهِ رَأْسًا فيقال: أنت لا يُوحى إليك، وهذا الْقُرْآنُ لَيْسَ بوحي، أو التَّكْذِيبُ ببعض الآياتِ التي جاءت بهذا، فكله تَكْذِيبٌ، والتَّكْذِيبُ أبلغ من الإِعْرَاضِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قد يُعْرِضُ تهاوُنًا وتكاسلاً ولسبٍ من الأسبابِ ولا يكذِّب، لكن المكذِّب أشدُّ؛ لِأَنَّ الْمَكْذِبَ لا يُمَكِّنُ أن يُقْبَلَ، وكيف يُقْبَلَ عَلَى أمرٍ يَعْتَقِدُهُ كَذِبًا؟! ولهذا قَالَ: ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ ما قَالَ: فقد أَعْرَضُوا، قَالَ: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ وهذا شاملٌ للإِعْرَاضِ والتَّكْذِيبِ.

يقول المفسر رحمه الله: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ بِهِ ﴿ فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَتُوا ﴾ عواقب ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، الفاء عاطفةٌ، وتفيد الترتيب، والسين تفيد التقريب أيضًا، والمعنى:

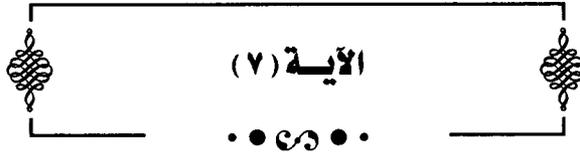
فبسبب تكذيبهم فسَيَأْتِيهِمْ عَنْ قُرْبٍ، و﴿أَنْبَأُوا﴾ بِمَعْنَى: أَخْبَارُ، وَالْأَنْبَاءُ: جَمْعُ نَبَأٍ، وَهُوَ الْخَبْرُ مِنَ الْأُمُورِ الْهَامَّةِ، وَالْمُرَادُ بِالْخَيْرِ هُنَا الْعَوَاقِبُ، كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ؛ لِأَنَّ الْعَوَاقِبَ أَخْبَارٌ فِي الْحَقِيقَةِ، فَمَثَلًا: فِي الْقُرْآنِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْصِرُ رَسُولَهُ وَيُهْلِكُ الْمَكْذِبِينَ، هَذِهِ أُنْبَاءٌ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ سَتَكُونُ عَوَاقِبَ: سَيَنْتَصِرُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَسَيُهْزَمُ أَعْدَاؤُهُ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ، وَهِيَ الْعَاقِبَةُ.

وقوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَي يَسْخَرُونَ، وَتَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ لِلْفَائِدَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ: اللَّفْظِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانُوا بِهِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مَجْرَدَةً عَنِ الزَّمَانِ، أَي: مَا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلزَّمَانِ، أَي: مَا كَانُوا فِي الْمَاضِي يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ عِنْدَ وَقُوعِ الْعَاقِبَةِ، فَإِنَّ اسْتَهْزَاءَهُمْ بِهِ سَابِقٌ لِهَذِهِ الْعَاقِبَةِ، وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهَا مَجْرَدَةٌ عَنِ الزَّمَانِ، وَهُوَ غَالِبٌ مَا تَأْتِي (كَانَ)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الحجر: ١١]، أَي: يَسْخَرُونَ وَيُضْحَكُونَ مِنْهُ.

والتكذيب بالشيء الحق نوع من الاستهزاء به؛ لِأَنَّهُ مِثْلًا إِذَا كَانَ مَعَ الرَّسُولِ وَعَدُّ وَوَعِيدٌ، وَأَمْرٌ وَنَهْيٌ، وَخَبْرٌ وَاسْتِخْبَارٌ، وَإِرْشَادٌ وَتَوْبِيخٌ، ثُمَّ كُذِّبَ بِهِ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يُسْتَهْزَأُ بِهِ، وَبِأَحْكَامِهِ، وَبِأَخْبَارِهِ، وَبِهَا تَضَمَّنَتْ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ.

فائدة: يقولون: إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فإذا وجدت بالكلمة حروفًا زائدة فمعنى ذلك أن هناك معاني زائدة، والزيادة هنا للمبالغة، مثل: (استكبرَ وتكبرَ)، (استكبر) أبلغ من (تكبر)، وهنا: (استهزأ به) أبلغ من (هزئ به)، فلذلك نقول: السين والتاء هنا للمبالغة.





الآية (٧)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧].

•••••

قال الله تعالى مُبَيَّنًا دليلاً واضحاً على آياته: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، يقول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿أَوْلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا ﴿إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: كثيراً ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نَوْعٍ حَسَنٍ]. ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: هؤلاء المكذَّبون. و﴿يَرَوْا﴾ يقول المفسر: (ينظروا)، فجعلها من الرُّؤْيَةِ الحِسِّيَّةِ، لا من الرُّؤْيَةِ العِلْمِيَّةِ، ولكن نقول: إنها تَحْتَمِلُ المعنيين؛ الرُّؤْيَةِ الحِسِّيَّةِ: إذا نظر بعينه هو، والعِلْمِيَّةِ: إذا علم بذلك من غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ أَشْيَاءَ لَا نَعْلَمُهَا مِمَّا يَنْبَغُ فِي الْأَرْضِ، يعني: لا نراها ولكننا نُخْبِرُ بها، فالأوَّلَى أَنْ يُقَالَ: إنه شاملٌ لِلنَّظَرِ بِالْعَيْنِ، وَالنَّظَرَ بِالْقَلْبِ الَّذِي هُوَ الْعِلْمُ.

قال تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَلْنَا﴾ يقول المفسر: (أي كثيراً)، و(كثيراً) هَذِهِ تَفْسِيرٌ لـ(كم)، يعني أن (كم) هنا تَكْثِيرِيَّةٌ، الْمَعْنَى: كثيراً أَنْبَلْنَا فِيهَا، مثل قوله تعالى: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]، أي: كثيراً تَغَلَّبَ الفِئْتَةُ القَلِيلَةُ الفِئْتَةُ الكَثِيرَةَ.

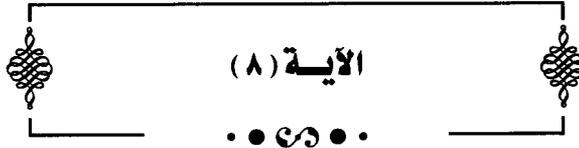
وقوله: ﴿كَمْ أَنْبَلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أضافَ الإِنْبَاتَ إِلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَنَّهُ هُوَ الْفَاعِلُ حَقِيقَةً، وَإِذَا أُضِيفَ الإِنْبَاتُ إِلَى الْمَطَرِ فَإِنَّهَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ سَبَبٌ.

وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: صنف، والكريم في الأصل: كثير البذل، ولكنه يُطلق أحياناً على الحسن، ومنه قوله ﷺ لِعَاذِ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»^(١) أي: حسنها، وليس معنى كرائمها التي تُعطي كثيراً؛ لأنها لا تعطي البهائم، ولكن المراد بها الحسنة. فهنا الكريم نقول: الحسن، والزوج بمعنى: الصنف والنوع.

وهذه الأصناف والأنواع الحسنة البهيجة تدل على قدرة خالقها تبارك وتعالى وعلى فضله وإحسانه، وعلى حكمته، فانظر إلى الأرض وفيها هذا النبات تجده مختلفاً في حجمه، ومختلفاً في لونه، ومختلفاً في نفعه، ومختلفاً من جميع الوجوه، والأرض واحدة والماء واحد، بل أحياناً تجد النوع الواحد من هذا النبات يختلف، كما إذا نظرنا إلى البر، فالبرُّ نوعٌ واحدٌ بالنسبة للحبوب، ومع ذلك يختلف، وإذا نظرنا أيضاً إلى النخل وجدناه يختلف، وإذا نظرنا إلى البطيخ وغيره نجدُه مختلفاً، ممَّا يدل على كمال قدرة الله تبارك وتعالى، كما قال الله تعالى: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، فالماء واحد، والأرض واحدة، فتأخذ من هذا شيئاً تدوقه وإذا هو مرٌّ، وتأخذ من هذا تدوقه وإذا هو حلو، مع أن الأرض واحدة والماء واحد، ولكن هذه هي قدرة الله سبحانه وتعالى التي يستدل بها الموفقون على كمال قدرته.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨].



قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ دلالة على كمالِ قدرته تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: في ذلك المذکور من الإنبات، ومن الأنواع، ومن الحُسن، فتكون (آية) هنا بمعنى (آيات)، و(آية) يقول المُفسِّر: (دلالة على كمالِ قدرته تعالى)، هَذَا صحيحٌ، فأبرز ما فيها القدرة، لكن في الآيات أيضًا الدلالة على الحِكمة البالغة في تنويع هذه الأشياء واختلافها؛ فإنها لحكمة أرادها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فالقدرة -مثلها قال المُفسِّر- هي أبين ما يكون في هذا النبات من آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكنّها أيضًا آية على أمور أُخرى.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال المُفسِّر: [في علمِ الله]، يقصد (كان)، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم إلى الآن ما آمنوا، وليس معناه أنهم لم يكونوا مؤمنين فيما سبق والآن هم مؤمنون. فيقول المُفسِّر: [في علمِ الله]، ما كانوا في علمِ الله [و(كان) قال سيبويه: زائدة].

وهذا إدخال من المُفسِّر لقول في قول؛ لأنّ الذي يقول في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: إن (كان) زائدة لا يقول: (في علمِ الله)، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

يعني: حَسَبَ الواقعِ والحالِ، أمَّا الَّذِي يَقُولُ: (فِي عِلْمِ اللَّهِ) فلا يَحْتَاجُ إِلَى كَوْنِهَا زائِدَةً، ومن يَقولُ: إن (كان) فعل ماضٍ عَلَى حَقِيقَتِهَا، يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَقُولَ: «فِي عِلْمِ اللَّهِ».

ولكِنَّا نَتَخَلَّصُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ بِأَنْ نَقُولَ: إن المراد بـ(كان) هنا مجرد الحدّثِ، أي الدلالة عَلَى الحدّثِ فقط، فهي مجردة عَنِ الزَّمانِ، وإذا كانت مجردةً عَنِ الزَّمانِ فلا نَحْتَاجُ إِلَى أَنْ نَقُولَ: إنها زائِدَةٌ، ولا نَحْتَاجُ إِلَى أَنْ نَقُولَ: فِي عِلْمِ اللَّهِ، نقول: إن الواقعَ أَكْثَرُهُمْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ لا يَتَوَجَّهُ عَلَى كَلَامِ الشَّارِحِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَوْلًا آخَرَ؛ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فِي عِلْمِ اللَّهِ، لا يَصْلِحُ أَنْ تَقُولَ: (كان) زائِدَةٌ.

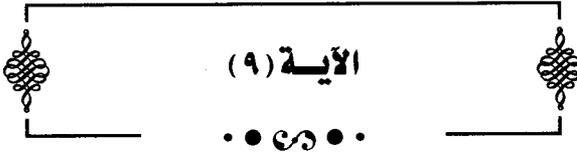
ومَعْنَى قَوْلِهِ: [و(كان) قال سِبْوَئِيهِ: زائِدَةٌ]، أَنَّ سِبْوَئِيهِ يَرى أَنَّهَا زائِدَةٌ، وَالْمُفَسِّرُ يَرى أَنَّهَا أَصْلِيَّةٌ لَكِنْ بِاعْتِبَارِ عِلْمِ اللَّهِ، وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنَّهَا أَصْلِيَّةٌ مُجَرَّدَةٌ عَنِ الزَّمانِ، بَلْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الحدّثِ فقط.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ مُؤْمِنٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ فَإِنْ بَعْضُهُمْ مُؤْمِنٌ وَأَمَّنَ بِالْفِعْلِ.

قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فلا يَتَنَفَعُ بِالآيَةِ إِلَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِذَا لَمْ يَتَنَفَعْ بِهَا أَحَدٌ مَا صَارَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ آيَةً، وَهَذَا قِيْدُهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي: لا يَتَنَفَعُونَ بِهَا.



الآية (٩)



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٩].

• • • • •

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ ﴾ الربوبية هنا خاصة؛ لأنَّ الله تعالى ربُّ النبي ﷺ وغيره، لكنَّه للعناية به ﷺ وبيان أنَّه لن يُخْذَلَهُ مع هذا التَّكْذِيبِ، بل لا بدَّ أن يتولاه بربوبيته وعنايته الخاصَّة.

وقوله: ﴿ لَهُوَ ﴾ اللام للتوكيد، قال المفسر رحمه الله [العزيز]: ذو العِزَّةِ يَنْتَقِمُ مِنَ الْكَافِرِينَ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ يَرْحَمُ الْمُؤْمِنِينَ، والعِزَّةُ: بِمَعْنَى الْعَلِيَّةِ، ويُقال: عَزَّ بِمَعْنَى: عَلَبَ وَقَهَرَ، وقد قالوا: إِنَّ الْعِزَّةَ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: عِزَّةُ الْقَدْرِ، وَعِزَّةُ الْقَهْرِ، وَعِزَّةُ الْاِمْتِنَاعِ.

فمَعْنَى عِزَّةِ الْقَدْرِ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَزِيزٌ لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ قَدْرَهُ.

وعِزَّةُ الْقَهْرِ: عَزِيزٌ لَا يُقَهَّرُ، بل هُوَ الْغَالِبُ.

وعِزَّةُ الْاِمْتِنَاعِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُتَمَنِّعٌ عَلَيْهِ النِّقْصُ فِي أَيِّ وَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ،

يعني: عبارة عن القوَّة، ومنه: الأرض العِزَّاز، يعني الصُّلْبَةُ الْقَوِيَّةُ.

على كُلِّ حَالٍ، الْعِزَّةُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا هَذِهِ الثَّلَاثَةُ كَامِلَةٌ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمِنْ عِزَّتِهِ

أَخَذُ الْمَكْذِبِينَ، وَلِهَذَا قَالَ الْمَفْسِّرُ: [يَتَّقَمُ مِنَ الْكَافِرِينَ]، وهذا يعود - من الأنواع

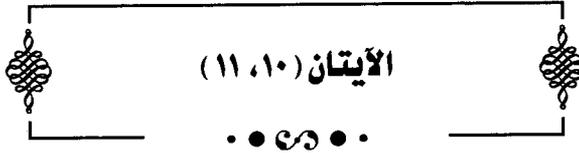
الثلاثة - إِلَى عِزَّةِ الْقَهْرِ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿الرَّحِيمُ﴾ يَرْحَمُ الْمُؤْمِنِينَ]، ولو أَنَّ الْمُفَسِّرَ أَبْقَاهَا عَلَى عُمُومِهَا لَكَانَ أَوْلَى، لَكِنَّهُ لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، أَخَذَ الْمُفَسِّرُ يُقَيِّدُ كَلِمَةَ الرَّحِيمِ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَامًّا؛ لِأَنَّ عِزَّتَهُ لَا تَقْتَضِي انْتِقَامَهُ، بَلْ قَدْ يَمْنَعُ الْإِنْتِقَامُ هَذِهِ الرَّحْمَةَ الَّتِي تَخْصُّصُ بِهَا.

فَالْجَمْعُ هُنَا بَيْنَ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ الْعِزَّةِ وَالرَّحْمَةِ لِلتَّنَاسُبِ الْبَالِغِ؛ لِأَنَّ مِنْ اجْتِمَاعِهَا يَحْضُلُ الْكَمَالُ، فَهُوَ بِعِزَّتِهِ ذُو رَحْمَةٍ؛ فَلَوْ قَارَنَّا بَيْنَ الْعِزَّةِ وَالرَّحْمَةِ فِي صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، لَوَجَدْنَا أَنَّهَا لَا يَجْتَمِعَانِ فِي الْغَالِبِ، وَأَنَّ الْعَزِيزَ الَّذِي يَرَى نَفْسَهُ قَاهِرًا فِي الْغَالِبِ لَا تَكُونُ فِيهِ رَحْمَةٌ، فَاجْتِمَاعُ الصِّفَتَيْنِ يَحْضُلُ بِهِمَا كَمَالٌ عَلَى الْكَمَالِ: عِزَّةٌ وَرَحْمَةٌ، ثُمَّ اجْتِمَاعُهَا كَمَالٌ، فَيَكُونُ مَعَ الْعِزَّةِ رَحِيمًا لَا يُؤَاخِذُ وَلَا يَنْتَقِمُ، وَلِهَذَا لَمْ يُعَجِّلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعُقُوبَةَ لِلظَّالِمِ، وَلَكِنَّهُ بِحِكْمَتِهِ يُمِلِّي لَهُ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ خَتَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِزَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ؛ لِيَجْمَعَ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ؛ التَّرْهِيبِ بِالْعِزَّةِ، وَالتَّرْغِيبِ بِالرَّحْمَةِ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴿
 أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٠-١١].

• • • • •

يُكثِرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ ذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَى، وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَمَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ وَذَلِكَ لِيَسْتَعِدَّ النَّبِيُّ ﷺ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ فِي الْمَدِينَةِ؛ حَتَّى يَعْرِفَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا عِنْدَهُ، وَهَذَا كَانَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا أَخْبَرَهُ بِكَلَامِ الْيَهُودِ لَهُ، ثُمَّ قَالَ لِمَعَاذٍ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ»^(١)؛ لِيَسْتَعِدَّ لَهُمْ، وَقَدْ كَرَّرَ اللهُ تَعَالَى قِصَّةَ مُوسَى مَخْتَصِرَةً وَمَبْسُوطَةً لِهَذَا الْغَرَضِ؛ لِيُبَيِّنَ حَالَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ سَكَّانِ دَارِ الْهِجْرَةِ.

وقد بدأ الله تعالى بذكر قصص الأنبياء مقدّمًا ذكر قصة موسى؛ لطولها ولأهميتها بالنسبة لنيبته ﷺ فقال: ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾؛ (إذ) هذه ظرف، عاملها محذوف تقديره ما قدره المفسر: [﴿ وَ ﴾] اذكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ ﴿ إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ لَيْلَةَ رَأَى النَّارَ وَالشَّجَرَةَ...]، إِلَى آخِرِهِ.

قال: ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ ناداه: أي: دعاه بصوت مرتفع؛ لِأَنَّ النِّدَاءَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

لا يكونُ إلا بصوتِ عالٍ، قال تعالى: ﴿وَتَنادِيَنَّهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، فالنداءُ يكونُ للبعيد، ويلزمُ أن يكونَ بصوتِ عالٍ، وأمّا المناجاةُ فهي للقريب.

قال: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ هو ابنُ عمرانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقوله: ﴿رَبُّكَ﴾ الإضافةُ هنا للتخصيصِ، فهي ربوبيةٌ خاصّة؛ لِأَنَّ ربوبيةَ اللهِ نوعانِ، كما أنَّ عبوديته نوعانِ.

قال: ﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، (أن) تفسيريّة؛ لأنها سُبقتَ بِمَعْنَى القولِ دونَ حُرُوفِهِ، و(أن) إذا سُبقتَ بِمَعْنَى القولِ دونَ حُرُوفِهِ تُسَمَّى تفسيريّة، ومثلها ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْبَحِ الْفَلَكِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]؛ لِأَنَّ الوحيَ فِيهِ مَعْنَى القولِ دونَ حُرُوفِهِ، فيُعْرَبُونَ مثلَ هَذِهِ بِأَنَّهَا تفسيريّة. ولهذا قال المفسّر: [أي بأن ﴿أَنْتِ﴾].

وقول المفسّر: [ليلة رأى النارَ والشَّجرةَ]، فكونه (ليلة رأى النارَ) صحيحٌ، قال تعالى: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠]، وكذلك الشَّجرةُ، ولكن التّزامُ أَنَّهُ رآها فِيهِ نظرٌ؛ لِأَنَّ سُورَةَ القَصَصِ لا تُدَلُّ عَلَى أَنَّهُ رآها، قال تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ مِنَ شَلْطِيِّ الْأَوْدِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُحْ إِبْرَاهِيمَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القَصَص: ٢٩-٣٠]، فلا يَتَبَيَّنُ مِنَ الْقُرْآنِ أَنَّهُ رَأَى الشَّجَرَةَ، إِنَّمَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الصَّوْتِ سَمِعَهُ مِنْ قِبَلِ الشَّجَرَةِ.

قال المفسّر رَحِمَهُ اللهُ: ﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ رسولاً؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَأْتِيهِمْ فَقَطْ، بَلْ يَأْتِيهِمْ بِالرَّسَالَةِ، و(القوم): الجماعة، و(الظَّالِمِينَ) سيأتي ذكر المفسّر لِمَعْنَى الظُّلْمِ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ معه، ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ بِاللَّهِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ بِاسْتِعْبَادِهِمْ، فهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ الْمُعْتَدِينَ النَّاqصِينَ حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ الْعِبَادِ، أَمَا حَقُّ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ كَفَرُوا بِهِ وَأَشْرَكُوا بِهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [القمان: ١٣]، وَأَمَا حَقُّ الْإِنْسَانِ فَقَدْ اسْتَعْبَدُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَصَارُوا يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ.

وفي قوله: ﴿إِنَّ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴿تخصيص بعد تعميم، أو بيان بعد إجمال؛ لِأَنَّ ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ مُبْهَمٌ، لَكِنْ: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ مُبَيَّنٌّ.

وفائدة الإبهام ثم البيان بعده التأكيد من وجه، وبيان الاهتمام به من وجه آخر، وتلقي السمع له بالقبول من وجه ثالث.

أما التأكيد فلأنه كُرِّرَ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً مُجْمَلًا، وَمَرَّةً مُبَيَّنًا، وَهَذَا التَّأْكِيدُ، وَأَمَا الاهتمام به فلأنَّ ذِكْرَهُ مُؤَكِّدًا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مُهْتَمٌّ بِهِ، وَأَمَا تَلْقَى السَّمْعَ لَهُ بِالْقَبُولِ فلأنه إذا جاء اللفظ له مُجْمَلًا بَقِيَ الذَّهْنُ يَدُورُ: مَا هَذَا؟ وَمَنْ هَؤُلَاءِ مِثْلًا؟ فَإِذَا أَتَى الْبَيَانَ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَى إِلَى ذَهْنٍ مُتَشَوِّقٍ حَرِيصٍ عَلَى مَعْرِفَةِ هَذَا الْمُبْهَمِ، فَيَتَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ أَكْثَرُ؛ لِأَنَّهُ مُتَشَوِّقٌ إِلَيْهِ، وَمُتَطَلِّعٌ إِلَيْهِ، فَهَذِهِ فَوَائِدُ الْبَيَانِ بَعْدَ الْإِجْمَالِ.

وفي وَصْفِهِمْ بِالظُّلْمِ قَبْلَ بَيَانِهِمْ - أَي فِي هَذِهِ الْآيَةِ - إِشَارَةٌ إِلَى عِظَمِ أَمْرِهِمْ، حَيْثُ قَدَّمَ الْوَصْفَ عَلَى الْمَوْصُوفِ فِي الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَمَا يُقَالُ: ﴿إِنَّ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يَتَصَوَّرُ الْإِنْسَانُ وَيَعْرِفُ أَنَّهُمْ ظَلَمَةٌ، فَإِذَا جَاءَ بَيَانُهُمْ جَاءَ بَعْدَ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الْوَصْفِ، تَمَّا يَدُلُّ عَلَى قُبْحِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ.

قَالَ الْمَفْسَّر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿أَلَا﴾] الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿يَنْقُونَ﴾ الله بِطَاعَتِهِ فَيُوحِدُونَهُ. قوله: ﴿أَلَا يَنْقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ مِنَ الْمَرْسَلِ بِهِ، يَعْنِي: يَقُولُ لَهُمْ ﴿أَلَا يَنْقُونَ﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمُوسَى، لِيُبَيِّنَ لَهُ حَالَهُمْ، وَأَنَّهُمْ يَتَجَنَّبُونَ التَّقْوَى، وَأَنْ الْأَلِيقَ بِهِمْ أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: [﴿أَلَا﴾] الهمزة للاستفهام الإنكاري]، مُقْتَضَى كَلَامِهِ أَنْ يَقُولَ: الهمزة للاستفهام، و(لا) نافية، يعني: أَمْ لَا يَتَّقُونَ، وَأَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَجْعَلَهَا لِلْعَرْضِ، نَحْوِ (أَلَا تَنْزِلُ عِنْدَنَا فَتُصِيبُ خَيْرًا)، وَيَكُونُ الْمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا يَنْقُونَ﴾ عَرْضُ التَّقْوَى عَلَيْهِمْ.

فعلى كلام المفسر تُعْرَبُ الهمزة وَحْدَهَا، و(لا) وَحْدَهَا، فَتَكُونُ الهمزة للاستفهام، و(لا) نافية.

وعلى الاحتمال الَّذِي ذَكَرْنَا أَنْ تَكُونَ لِلْعَرْضِ، يَعْنِي: اِعْرَضْ عَلَيْهِمُ التَّقْوَى مُلْزِمًا لَهُمْ بِهَا، وَسَبَقَ أَنْ الْمُرَادَ بِالتَّقْوَى اتِّخَاذُ الْوَقَايَةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِثْبَاتُ النِّدَاءِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ﴾، فَيَكُونُ كَلَامَهُ بِصَوْتٍ عَلَى هَذَا، وَأَنَّهُ بِحَرْفٍ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَنْتِ أَلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمٌ فِرْعَوْنٌ أَلَا يَنْقُونَ﴾ كُلِّهَا حُرُوفٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الْخَلْقِ؛ لِإِرْسَالِهِ الرُّسُلَ، فَإِرْسَالُ الرُّسُلِ دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ عَلَى الْخَلْقِ، وَعِنَايَتِهِ بِهِمْ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ مَهْمَا أَوْتُوا مِنْ ذِكَاةٍ لَا يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يُذْرِكُوا مَا يَجِبُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى التَّفْصِيلِ.

والعاقل يُدرك ما يجبُ لله على وجه الإتمام، فإدراكه أن له الكمال المطلق، وأنه المستحقُّ العبادة، لكن على وجه التفصيل، لا يمكن إلا عن طريق الرُّسُل، ولهذا قال: ﴿لئلا يكون للناس على الله حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

الفائدةُ الثالثةُ: وفي هذا دليلٌ على سوء حالِ فرعونَ وقومه؛ لقوله: ﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ١٠ قَوْمَ فرعونَ ﴿.﴾

الفائدةُ الرَّابِعةُ: وفيه دليلٌ على أَنَّهُ لا بأسَ في الإجمالِ في الكلام، بشرطِ أن يأتي التفصيلُ؛ لقوله: ﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ١٠ قَوْمَ فرعونَ ﴿.﴾ وفائدةُ الإجمالِ ثم التفصيلِ بعده الاهتمامُ، فيكون مُتَشَوِّقًا ومُتَطَلِّعًا إذا كانَ هَذَا المُجْمَلِ سِيَّاتِهِمْ وَهُوَ عَلَى شَفَقَةٍ.



الآية (١٢)

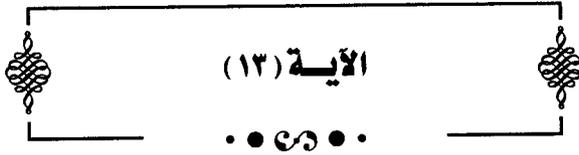
•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢].

•••••

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ قَالَ ﴾ مُوسَى ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾، هَذَا جَوَابُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِه مُبَيَّنًا لِه حَالِه حَتَّى يَكُونِ الْأَمْرُ لَدَى مُوسَى وَاضِحًا، فَيَنْشِطُ وَيَقْوَى، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا مَعَارِضَةَ أَمْرِ اللَّهِ؛ فَإِنْ مُوسَى لِن يِعَارِضُ أَمْرَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَلَكِنْ يَرِيدُ أَنْ يَسْتَبِينَ الْأَمْرَ؛ مَاذَا تَكُونُ حَالُهُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَقَدْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَهِيَ الْخَوْفُ، قَالَ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾، وَ(أَنْ) هَذِهِ مَصْدَرِيَّةٌ، يَعْنِي: أَخَافُ تَكْذِيبَهُمْ إِيَّايَ، وَالْمُرَادُ بِالْخَوْفِ هُنَا أَنَّهُ يَتَوَقَّعُ ذَلِكَ: ﴿ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْلَمُ مِنْهُمْ هَذَا الْأَمْرَ، وَعُتُوَّهُمْ، وَاسْتِكْبَارَهُمْ، وَالتَّزَامُهُمْ بِعِبَادَةِ فِرْعَوْنَ.

•••••



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾﴾

[الشعراء: ١٣].

• • • • •

قَالَ الْمَفْسَّر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لِي]، قَوْلُهُ: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ فِيهِ إِشْكَالٌ، حَيْثُ رُفِعَ مَعَ أَنَّهُ يَلِي الْمَنْصُوبَ: ﴿ أَنْ يُكْذِبُونَ ﴾؛ لِأَنَّ (أَنْ) هَذِهِ مَصْدَرِيَّةٌ، وَ(يُكْذِبُونَ) مَنْصُوبَةٌ بِهَا بِحَذْفِ النُّونِ، وَالنُّونُ الْمَوْجُودَةُ لِلْوَقَايَةِ، وَأَصْلُهَا: يَكْذِبُونِي، ثُمَّ حُذِفَتِ النُّونُ الْأُولَى لِلنَّاصِبِ، وَحُذِفَتِ الْيَاءُ لِلتَّخْفِيفِ، لَكِنْ قَالَ: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: «ويَضِيقُ صَدْرِي».

وَالْجَوَابُ أَنَّ (الْوَاوَ) عَاطِفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكْذِبُونَ ﴾، يَقُولُ: أَنَا أَخَافُ أَنْ يُكْذِبُونِي وَأَخَافُ أَنْ يَضِيقَ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقَ لِسَانِي بِتَكْذِيبِهِمْ.

و﴿ أَنْ يُكْذِبُونَ ﴾ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا بِهِ، مِثْلُ: ضَرَبْتُ زَيْدًا وَأَكْرَمْتُهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾، وَضِيقُ الصَّدْرِ: عَدْمُ انشِرَاحِهِ وَانْبَسَاطِهِ، وَهَذَا أَمْرٌ فِطْرِيٌّ أَنْ الْإِنْسَانَ إِذَا خُولِفَ فَسَوْفَ يَضِيقُ صَدْرُهُ، كَمَا كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَضِيقُ صَدْرُهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسَلِّي رُسُلَهُ؛ لِئَلَّا تَضِيقَ صُدُورُهُمْ، وَلَا يَخْزَنُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ؛ لِأَنَّ لَهُمْ يَوْمًا يَحَاسِبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ وَالرُّسُلَ يُبَلِّغُونَ فَقَطُّ.

ويقولون: إِنَّ ضَيْقَ الصَّدْرِ مِنْ أَسْبَابِ حَدُوثِ الضَّغْطِ، ولهذا يَنْصَحُونَ المصَابِينَ بِالضَّغْطِ بَأَن يَتَجَنَّبُوا الغَضَبَ، وما يَجْزُهُمْ وَيَضِيقُ صُدُورَهُمْ، فهذا فِي الحَقِيقَةِ هُوَ الوَاقِعُ؛ لِأَنَّ الضَّغْطَ يَسْتَلْزِمُ ضَيْقَ الصَّدْرِ، وَضَيْقَ التَّنْفُسِ، وَضَيْقَ الأَرْضِ عَلَى الإِنْسَانِ، فإذا عَرَّضَ نَفْسَهُ لِمَا يَفْعَلُ بِهِ ذَلِكَ اِزْدَادًا عَلَيْهِ الضَّغْطُ، فإذا عَوَّدَ نَفْسَهُ الانبساطَ والانشراحَ وَعَدَمَ الاكْتِراثِ فِي النَوَازِلِ؛ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَيَبْقَى دائِمًا فِي سُرُورٍ، لا سِيَّما إِذَا كَانَ مُحْتَسِبًا وَمُؤَمَّنًا بِالْقَدَرِ.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ بِأداء الرِّسَالَةِ لِلعُقْدَةِ الَّتِي فِيهِ، وهذه العقدة معنويَّة وليست حِسِّيَّة.

فَإِنْ قِيلَ: هَذِهِ العُقْدَةُ لِأَنَّهُ أَخَذَ الجَمْرَةَ وَهُوَ صَغِيرٌ.

قلنا: لا، قِصَّةُ أَخْذِ الجَمْرَةَ باطِلَةٌ، فَقِصَّةُ إِسْرَائِيلَ لَيْسَتْ مَقْبُولَةً، لَكِنْ يَحْتَمِلُ أَنَّ العُقْدَةَ مَعنويَّةً، بِمَعْنَى أَنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ التَّعْبِيرَ بِانطِلاقٍ وَفِصاحَةٍ. وَقوله: ﴿وَاحْتَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿طه: ٢٧-٢٨﴾، وَقَوْلُ فِرْعَوْنَ فِي وَصْفِهِ ﴿الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، يَحْتَمِلُ -وهو الأَقْرَبُ- أَن تَكُونَ فِيهِ لُثْغَةٌ؛ إمَّا سُرْعَةُ القَوْلِ بِنُطْقِ الحُرُوفِ، بِحَيْثُ تُتَابِعُ الحُرُوفَ حَتَّى لا تَفْهَمَ؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ كَذَلِكَ، لَيْسَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ حِسِّيَّةً، لَكِنْ تَرادُفُ الحُرُوفِ فِي كَلَامِهِ بِحَيْثُ لا تَدْرِي ما يَقُولُ.

أَوْ لِأَنَّهُ فِيهِ لُثْغَةٌ لا تُتَبَيَّنُ الحُرُوفُ مِنْ كَلَامِهِ، وَكُلُّ هَذَا مُحْتَمَلٌ، وَهَذِهِ العُقْدَةُ لَيْسَتْ كَمَا ذَكَرَ مِنَ الجَمْرَةِ، وَأَنَّ لَهَا أَثْرًا حِسِّيًّا يَمْنَعُهُ مِنَ الكَلَامِ، بَلْ هِيَ أَثْرٌ خَلْقِيٌّ، يَعْنِي بِأَصْلِ الخَلْقَةِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا جَهْلُ الْبَيَانِ، يَعْنِي: لَيْسَ فَصِيحًا فِي خِطَابِهِ وَبَيَانِهِ وَإِقْنَاعِهِ، لَكِنِ الْأَوَّلُ أَوْلَى، وَأَنَّهَا عُقْدَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، وَذَلِكَ بِصِفَةِ الْكَلَامِ، بَحِيثٌ لَا تَتَيَّنُ الْحُرُوفُ فِي كَلَامِهِ؛ إِمَّا لِعَجَلَتِهِ، وَإِمَّا لِلتُّغَيْتِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

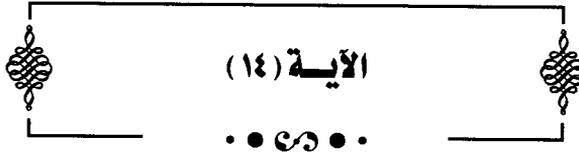
قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَرْسِلْ إِلَيَّ أَخِي﴾ هَارُونَ ﴿مَعِيَ﴾]، أَرْسَلَ إِلَيْهِ يَعْنِي: ابْعَثْ لَهُ بِالرَّسَالَةِ؛ حَتَّى يَكُونَ مُعِينًا وَوَزِيرًا لَهُ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ لَا يَوْجَدُ أَحَدًا أَشَدَّ مَنَّةً عَلَى أَخِيهِ مِنْ مُوسَى عَلَى أَخِيهِ هَارُونَ؛ لِأَنَّهُ طَلَبَ أَنْ يَكُونَ أَخُوهُ فِي الْمَقَامِ الْأَعْلَى مِنْ مَقَامَاتِ بَنِي آدَمَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَهِيَ الرَّسَالَةُ.

فَوَائِدُ الْآيَةِ الْكُرْبِيَّةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ بَيَانِ الْإِنْسَانِ حَالَهُ إِذَا لَمْ يَقْصِدْ بِهِ الشُّكُورَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾، فَإِنَّ هَذَا وَصْفٌ لَهُ فِي الضَّعْفِ، وَعَدَمِ التَّحْمُلِ نَفْسِيًّا بِضِيقِ الصَّدرِ، وَعَدَمِ الْكَلَامِ الْمُتَقَنِّ؛ لِكَوْنِهِ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ ذِكْرِ الْوَسَائِلِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الْقَبُولَ فِي الدُّعَاءِ؛ حَيْثُ ذَكَرَ مَعْلُومَاتٍ كَثِيرَةً بِكَوْنِهِ يَضِيقُ صَدْرَهُ وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانَهُ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّوَسُّلِ الزَّائِدِ، فَذَكَرَ حَالَهُ مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ قَبُولَ دُعَائِهِ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء: ١٤].



ذكر الرسالة حيث قال: ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴾ ثم بين مانعاً آخر غير التَكْذِيبِ، فقال: ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ ﴾، قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بقتل القبطي منهم] ﴿ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾، [هذا خوف آخر ناتج عن معاملته معهم، والأول خوف يتعلّق بالرسالة، فهذا خوف متعلّق بالمعاملة معهم، ولهذا في الأول قال: ﴿ أَخَافُ أَنْ يُكْذِبُونِ ﴾، ما قال: أن يقتلون، ولا كان يتصوّر أن يُقتل إذا جاء بالرسالة، ولهذا قال في الثاني: ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ بأيّ شيء؟ مثلما قال المفسر: [بقتل القبطي منهم]، وقصته مشهورة في سورة القصص.

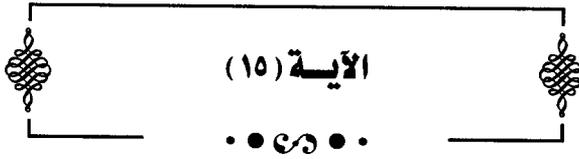
حيث إنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ رجلاً قوياً وشديداً، فخرج باكراً فوجد في المدينة رجلين يقتتلان؛ أحدهما من شيعة من بني إسرائيل، والثاني من عدوّه: الأقباط، فاستجد به الإسرائيليُّ، فوكّز موسى القبطيَّ حتّى مات، وفي اليوم الثاني خرج فوجد صاحبه الإسرائيليَّ مع رجلٍ آخر، وقال له موسى: ﴿ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّيِّنٌ ﴾ [القصص: ١٨]، وأراد أن يبطش بالعدوّ، فظنّ الإسرائيليُّ أنّه يريد أن يبطش به؛ لانه وبخه وقال: ﴿ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّيِّنٌ ﴾، فلما تهيأ للبطش ظنّ أنّه سيبطش به، فقال الإسرائيليُّ: ﴿ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ [القصص: ١٨-١٩]، -اللهُ يَكْفِيكَ شَرَّ مَنْ تُحْسِنُ

إليه! - فلما قال هكذا انتبه له القبطيُّ، فدَلَّ عَلَى مُوسَى بهذا السَّبَبِ، فخرج مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ وَجَأًا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الفَصَص: ٢١]، فنجَّاه اللهُ وَمَنْ عَلَيْهِ بالرِّسَالَةِ.

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون﴾ أي: يقتلونني به، وحُذفت الياء للتخفيفِ، والنون من الفعلِ حُذفت للنصبِ.

وفي الآية دليلٌ عَلَى جوازِ الخوفِ الطبيعيِّ، وأنه لَيْسَ بِشَرِكٍ، وقد ذكر الخوف مرتين؛ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون﴾، وقال: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون﴾، والمقصود الخوفُ الثَّانِي، والمراد بالأوَّلِ مُلَازِمُهُ وَهُوَ التَّوَقُّعُ، يعني يتوقع هذا، فقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون﴾ لَيْسَ معناه أَنَّهُ يَخَافُ خوفَ الدُّعْرِ الَّذِي يَقَعُ فِي النَّفْسِ، بل المَعْنَى التَّوَقُّعُ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا يَا ابْنَتَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء: ١٥].



قَالَ الْمَفْسَّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ قَالَ ﴾ تعالی: ﴿ كَلَّا ﴾ لَا يَقْتُلُونَكَ ﴿ فَاذْهَبَا ﴾ أي: أنت وأخوك، ففيه تغليبُ الحاضرِ عَلَى الغائبِ]، وفيه أيضًا أن الله تعالى أجابَ دعاءَ مُوسَى، كما قال في سورة طه: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه: ٣٦]، أجابه وأرسل إلى هارون بالرسالة.

قال: ﴿ فَاذْهَبَا يَا ابْنَتَا ﴾ الباء للمصاحبة، أي مصاحبتين بآياتِ الله، أي: العلامات الخاصة به، الَّتِي تدل عليه وحده دون غيره، والآيات الَّتِي ذهب بها هَي الوحي، والثانية قَلْبُ العصا، والثالثة اليَدُ.

هَذِهِ الآياتُ الَّتِي كانت عند الوحيِ إليه ثم تلاها بعد ذلك تسعُ آياتٍ كما هُوَ واضحٌ. وهذه الآيات ثلاثٌ: منها آيةٌ معنويَّة، وآيتانِ حِسِّيَّتانِ مناسبتانِ للسحرة؛ لِأَنَّ انقلابَ العصا حَيَّةً يُشْبِهُ السَّحَرَ وليسَ بِسِحْرٍ، لِأَنَّ هَذَا حقيقة، والسَّحْرُ خيالٌ، وأيضًا كون اليَد إذا أدخلها في جيبِهِ تَخْرُجُ بيضاءً من غير سُوءٍ، يعني: من غير ضررٍ ونقصٍ، هَذَا أيضًا يشبه السَّحَرَ، ولكنه ليسَ بِسِحْرٍ، ففيه آيةٌ من آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المعجزة هُوَ لِأَنَّ يَأْتُوا بِمِثْلِهَا.

قَالَ الْمَفْسَّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ ما تقولون وما يقال لكم، أُجْرِي

مَجْرَى الْجَمَاعَةِ]. قَالَ: إِنَّ الضَّمِيرَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَلْفِظِ الْغَلْبَةِ، مَعَ أَنَّهُ فِي سُورَةِ طه قَالَ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مَسْمُوعٌ وَرَأَى﴾ [طه: ٤٦]، لَكِنْ هُنَا ذَكَرَ ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾، وَكَانَتِ الْمُبَالَغَةُ حَصَلَتْ بِانضِمَامِ الْأَمْرَيْنِ: السَّمْعِ وَالرُّؤْيَا، وَهُنَا مَا ذَكَرَ إِلَّا الْاسْتِمَاعَ فَقَطْ، وَهَذَا جَاءَ فِي صُورَةِ الْعِظْمَةِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُبْتَدَأِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه، يَقُولُ الْمُفَسِّرُ: [أَجْرِي مَجْرَى الْجَمَاعَةِ].

فَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا مَا قَالَ الْمُفَسِّرُ: [أَجْرِي الْاِثْنَانِ مَجْرَى الْجَمَاعَةِ]، وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ أَقْلَ الْجَمْعِ اِثْنَانٍ نَقُولُ: هَذَا وَإِنْ كَانَ بَلْفِظِ الْجَمْعِ لَكِنَّهُ دَالٌّ عَلَى الْاِثْنَيْنِ بِاعْتِبَارِ الْوَضْعِ اللَّغْوِيِّ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّعْيِينِ.

وَقِيلَ: الْجَمْعُ بِاعْتِبَارِ مَا مَعَ مُوسَى وَهَارُونَ مِنَ الْآيَاتِ؛ كَأَنَّهِمْ ثَلَاثٌ، وَإِنْ كَانَتِ الْآيَاتُ لَيْسَتْ أَدْمِيَّةً، وَلَكِنَّهَا مُؤَيَّدَةٌ؛ لِأَنَّ التَّأْيِيدَ يَكُونُ بِالْأَدَلَّةِ وَبِقُوَّةِ الدَّاعِي وَالْمُسْتَدَلِّ.

وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنَّهُ جَمْعٌ بِاعْتِبَارِ أَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ سَيَكُونُ لَهَا قَوْمٌ وَسَيَكُونُ اجْتِمَاعُ مُوسَى وَهَارُونَ بِقَوْمِهِمَا.

فَوَائِدُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِثْبَاتُ الْمَعِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْمَعِيَّةُ فِي الْحَقِيقَةِ مَعْنَاهَا: الْمَصَاحِبَةُ الْمَطْلُوقَةُ، وَلَكِنَّهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ، فَنَقُولُ مِثْلًا: سَقَانِي لَبْنًا مَعَهُ مَاءً، فَهَذِهِ تَقْتَضِي الْاِمْتِزَاجَ وَالِاخْتِلَاطَ.

فَتَفْسِيرُ مَعِيَّةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِالِإِحَاطَةِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَسُلْطَانًا وَبَصْرًا وَسَمْعًا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الرُّبُوبِيَّةِ، لَيْسَ تَفْسِيرُهَا بِذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّأْوِيلِ، بَلْ مِنْ بَابِ ذِكْرِ الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّهَا حَسَبَ مَا تُضَافُ إِلَيْهِ.

إذن إذا كانت من بابِ ذكر الحَقِيقَةِ فيَمْتَنِعُ أن تكونَ مَعِيَّةَ اللهُ مشاركةً في المكانِ؛ لِأَنَّهُ لو أثبتنا أنَّها مشاركة في المكانِ، لَأَبْطَلْنَا أَنَّهُ عالٍ فِي السَّمَاءِ؛ لِأَنَّهُ لا يَمَكُنُ أن يشاركَ في المكانِ فِي الأَرْضِ وَهُوَ عالٍ فِي السَّمَاءِ، لهذا مَن زَعَمَ أن الإمامَ أحمدًا تأوَّل وأثبت عنه روايةَ بجوازِ التأويلِ فِي الصِّفَاتِ استنادًا إِلَى تفسيره المَعِيَّةَ بالعلمِ، فقد أخطأ خطأً بَيِّنًا؛ لِأَنَّ تفسِيرَ الإمامِ أحمدَ للمَعِيَّةِ فِي العلمِ أرادَ بِهِ الرَّدَّ عَلَى الجَهْمِيَّةِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنه معنا بذاك، فيقول: إن دخلت الحُشَّ فالله فِي الحُشِّ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وإن دخلت المسجدَ فالله فِي المسجدِ، وإن دخلت البيتَ فالله فِي البيتِ.

وهكذا يَصِفُونَ اللهُ تعالى بما لا يَلِيْقُ أن يُوصَفَ بِهِ بناءً عَلَى ظاهرِ الآيَةِ الَّتِي لم يَفْهَمُوا حَقِيقَةَ معناها، فهو رَحْمَةُ اللهِ فَسَّرَها بالعلمِ؛ رَدًّا عَلَى هَؤُلَاءِ، وتفسيره لها بالعلمِ لَيْسَ إخراجًا لها عن معناها، لكنَّه تفسِيرٌ لها ببعضِ لَوَازِمِها؛ لِأَنَّ من لَازِمِ المَعِيَّةِ أن يكونَ عالِمًا بالأمرِ.

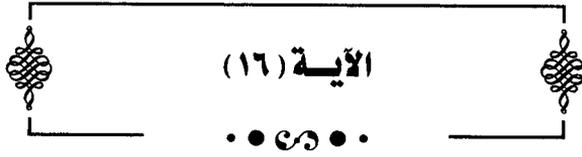
ولا تَقْتَرِنُ المَعِيَّةَ بالمشاركةِ بالمكانِ؛ لِأَنَّ اللهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ سَمْعًا وَبِصْرًا، ولهذا سَمِعَ قولَ المُجَادِلَةِ الَّتِي تُجَادِلُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي زوجها، وتقول عائشة: «لقد جاءت المجادلة إِلَى النبي ﷺ، وأنا فِي ناحيةِ البيتِ، تشكو زوجها، وما أسمعُ ما تقولُ»^(١).

وفرقٌ بَيْنَ قولنا: إنَّ المَعِيَّةَ (تَقْتَضِي) المشاركةَ فِي المكانِ أو (تَسْتَلْزِمُ)، فإذا قلنا: تَقْتَضِي، فمعناه أن هَذَا من معانيها، وإذا قلنا: تَسْتَلْزِمُ، فمعناه أَنَّهُ لَازِمٌ، فهذا هُوَ الفرقُ.

(١) أخرجه النسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٢٠٦٣).

الفائدة الثانية: وفي هذه الآية دليل على مبدأ تشجيع الإنسان في مهمته؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا فَادْهَبَا يَتَّيِنَانَا إِنَّآ مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ فهنا التشجيع من دون ثلاثة: إبطال الخوف بقوله: ﴿كَلَّا﴾، واستصحاب الدليل بقوله: ﴿يَتَّيِنَانَا﴾، والعلم بالمدافع وهو قوله: ﴿مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾، فكلُّ شيءٍ يحتاج إلى تشجيع، فينبغي للإنسان أن يظهر تشجيع صاحبه؛ حتى ينشط، ويؤدي الرسالة على الوجه الأكمل.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦].



قال: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾، وقال قبلها: ﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴿ [الشعراء: ١٠-١١]، فدلَّ ذلك على أَنَّ القومَ والآلَ إذا أُضيفت إلى الشخصِ فَإِنَّهُ يدخلُ مع مَنْ أُضيفَ لهم، فقوله: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، لا يدلُّ على نِجَاةِ فِرْعَوْنَ؛ لقوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، فهو أَوْلَهُمْ، وهنا أيضًا ﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ثم قال: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ ممَّا يدلُّ على أَنَّ القومَ إذا أُضيفت فأول ما يدخل فيها مَنْ أُضيفت له، ما لم يَمْنَعِ من ذلك مانعٌ حِسِّيٍّ كَمَوْتِهِ مثلاً، فإذا مات لم تُعدَّ توجد فائدة، لكن إذا كَانَ موجودًا فهو أول من يدخل في قومه.

قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يُبيِّن اللهُ تعالى صفةَ القولِ، بل بيَّنَ هنا المَقُولَ، لكنَّه بيَّنَ في آيةٍ في سُورَةِ طه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِنِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، فأمر موسى وهارون بأن يقولوا: إنها رسول من الله، وذلك بلهجةٍ لِيِنَّةٍ لا بلهجةٍ قاسيةٍ؛ لِأَنَّ القاسيَ إذا قُوبِلَ بلهجةٍ قاسيةٍ قَسَا أَكْثَرَ، فإذا قُوبِلَ بلهجةٍ لِيِنَّةٍ اجتمع لَيْنٌ وقاسٍ، فلا يحصل الصدامُ والاصطدامُ بينهما، وهذا من الحكمةِ في الدعوةِ، أمَّا الإنسان إذا كَانَ عاتياً جباراً فلا ينبغي أن يُقابَلَ

بالعُتُوِّ والجَبْرُوتِ؛ وذلك لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ الْأَمْرَ إِلَّا شِدَّةً، فَيُقَابِلُ بِاللَّيْنِ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا ﴿ كَلَّا مِنَّا ﴿ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾﴾، قَدَّرَ الْمُفَسِّرُ (كَلَّا مِنَّا) لِأَجْلِ التَّنَاسُبِ مَعَ الْمَبْتَدَأِ الَّذِي هُوَ اسْمُ (إِن)، وَالخَبْرُ الَّذِي هُوَ رَسُولٌ: ﴿إِنَّا رَسُولُ﴾، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، هَكَذَا بِالتَّثْنِيَةِ، وَهَنَا بِالْإِفْرَادِ، فَخَرَجَ الْمُفَسِّرُ الْآيَةَ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى: كُلٌّ وَاحِدٌ مِنَّا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، أَي: اجْعَلْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ هَذَا أَحَدَ الْوُجُوهِ.

وَجْهٌ آخَرُ أَنَّ ﴿رَسُولٌ﴾ بِمَعْنَى الرَّسَالَةِ، أَي بِمَعْنَى اسْمِ الْمَصْدَرِ، وَالْمَصْدَرُ إِذَا وُصِفَ بِهِ يَسْتَوِي فِيهِ الْمَفْرَدُ وَغَيْرُهُ.

وَوَجْهٌ ثَالِثٌ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْأَصْلَ فِي الرَّسَالَةِ مُوسَى، وَهُوَ وَاحِدٌ، وَهَارُونَ مُعِينٌ وَوَزِيرٌ، وَإِلَّا فَالْأَصْلُ أَنَّ مُوسَى هُوَ الرَّسُولُ، كَمَا يَوْجَدُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ذَكَرَ مُوسَى بَدُونَ ذِكْرِ هَارُونَ.

وقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يقل: «إنا رسول الله»؛ لِأَنَّهَا سَيُقَابَلَانِ شَخْصًا يَدْعِي الرَّبُوبِيَّةَ وَأَنَّهُ الرَّبُّ، فَيَتَبَيَّنُ لَهُ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنَّ الرَّبُوبِيَّةَ لَيْسَتْ لَهُ وَإِنَّمَا هِيَ لِلَّهِ.

وَالْعَالَمُونَ: كُلٌّ مَن سِوَى اللَّهِ فَهُوَ عَالِمٌ، وَكُلُّ الْمَخْلُوقَاتِ عَالِمٌ، وَمَعَ ذَلِكَ رُبَّمَا تُضَافُ إِلَى أَنْوَاعِهَا، وَيُقَالُ: عَالِمُ الْبَشَرِ، عَالِمُ الْجِنِّ، عَالِمُ الْإِبْلِ، عَالِمُ كَذَا وَعَالِمُ كَذَا، لَكِنْ إِذَا جُمِعَتْ هَكَذَا شَمِلَتْ جَمِيعَ أَنْوَاعِهَا، فَكُلٌّ مَن سِوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ عَالِمٌ، قَالُوا: وَسُمُّوا عَالِمًا لِأَنََّّهُمْ عَلِمَ عَلَى خَالِقِهِمْ.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [إليك]، قَدَّرَ الْمَفْسِّرُ (إليك) للإيضاح، وإلا فلا حاجة؛ لأنَّهما يخاطبانَه، فهما ﴿رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليه.

فَوَائِدُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقَوْمَ وَالْأَهْلَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، إِذَا أُضِيفَتْ دَخَلَ فِيهَا مَنْ أُضِيفَ لَهُ، وَنَأَخَذَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ ثُمَّ قَالَ هُنَا: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ مِنْهُمْ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: فِي الْآيَةِ أَيْضًا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُخَاطَبَ الْإِنْسَانُ بِمَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُ، فَمَنْكِرُ الرُّبُوبِيَّةِ نَخَاطِبُهُ بِإِثْبَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَمَنْكِرُ الْأُلُوْهِيَّةِ نَخَاطِبُهُ بِإِثْبَاتِ الْأُلُوْهِيَّةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: مَا الَّذِي دَلَّنَا أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ يَعْتَقِدُ بَرُّبُوبِيَّةَ اللَّهِ؟

فَالْإِجَابَةُ: مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

فَإِنْ قِيلَ: هَؤُلَاءِ قَوْمُ فِرْعَوْنَ؟

فَالْإِجَابَةُ: فِرْعَوْنَ مَعَهُمْ، وَقَالَ لَهُ أَيْضًا مُوسَى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ

إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَابِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

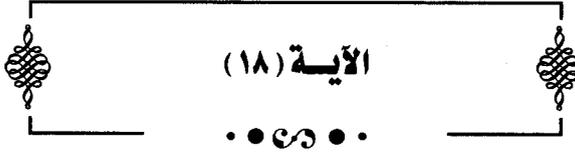


الآية (١٧)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ﴾ [الشعراء: ١٧].

قال المفسر رحمه الله: ﴿ أَنْ ﴾ أي: بأن ﴿ أَرْسِلَ مَعَنَا ﴾ إِلَى الشَّامِ ﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾].

قوله: ﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الإرسال بمعنى الإطلاق، يعني: أطلقهم؛ لَإِنَّهُ كَانَ قَدْ ضَيَّقَ عَلَيْهِمُ الْخِنَاقَ وَعَذَّبَهُمْ بِكَوْنِهِ يَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، فَاضْطَرَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يَرْسَلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيُطْلِقَهُمْ. وستأتي المناقشةُ بينه وبين موسى فيما بعد إن شاء الله.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾﴾

[الشعراء: ١٨].

•••••

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذِكْرِ جَوَابِ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ قَالَ ﴾ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ ﴾]، فِي الْآيَةِ إِجْزَاءً، وَالْإِجْزَاءُ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ مُنْقَسِمٌ إِلَى قَسْمَيْنِ: إِجْزَاءُ حَذْفٍ، وَإِجْزَاءُ اخْتِصَارٍ، وَالْمَوْجُودُ هُنَا إِجْزَاءُ الْحَذْفِ، وَلِهَذَا قَالَ: [فَأَتْيَاهُ فَقَالَ لَهُ مَا ذُكِرَ ﴾ قَالَ ﴾ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى...]، إِلَى آخِرِهِ.

وَمُوسَى لَمَّا آدَى الرِّسَالَةَ هُوَ وَأَخُوهُ، قَالَ فِرْعَوْنَ مُجِيبًا لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ: [﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا ﴾ فِي مَنَازِلِنَا ﴿ وَلِيدًا ﴾ صَغِيرًا قَرِيبًا مِنَ الْوِلَادَةِ بَعْدَ فِطَامِهِ]، هَذِهِ وَاحِدَةٌ، ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (١٨) ﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ يَعْنِي: أَفَبَعْدَ هَذَا الْأَمْرِ تَأْتِي وَتَدَّعِي أَنَّكَ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟! وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَنْكُرُ رُبُوبِيَّةَ فِرْعَوْنَ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ بَعْدَ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ: كَانَ الْأَلِيقُ بِكَ أَنْ تَأْتِيَ مَعْتَذِرًا، وَأَنْ تَأْتِيَ خَاضِعًا؛ لِأَنَّا مَنَّا عَلَيْكَ، وَلَأَنَّكَ أَخْطَأْتَ عَلَيْنَا.

وَالْمَنَّةُ قَالَ: [﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا ﴾ فِي مَنَازِلِنَا ﴿ وَلِيدًا ﴾ صَغِيرًا قَرِيبًا مِنَ الْوِلَادَةِ بَعْدَ فِطَامِهِ]، وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى أُمِّهِ إِذَا خَافَتْ عَلَيْهِ أَنْ تَجْعَلَهُ فِي تَابُوتٍ، وَتُلْقِيَهُ فِي الْيَمِّ، وَفَعَلَتْ؛ إِيْمَانًا مِنْهَا بِوَعْدِ اللَّهِ، ثُمَّ قَدَّرَ اللَّهُ

تعالى أن وقع هذا التابوت في قبضة آل فرعون فالتقطوه؛ لحكمة يريد بها الله عز وجل وهم لا يشعرون، فلما التقطوه أرسلت أم موسى أخته لتقص الخبر ﴿فبصرت به عن جنب﴾ [الفصص: ١١]، عن بعد، ثم رأتهم يطلبون له مرضعة، فعرضت عليهم ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾ [الفصص: ١٢]، فرد إلى أمه، ولم يرتضع ثدي أنثى غيرها، وهذا من تمام قدرة الله عز وجل ووفائه بوعدِهِ، أنه رده إلى أمه قبل أن يتغذى بشيء سوى لبنها، وبقي معها حتى فطمته.

وبحسب الحال سوف يرجع إلى آل فرعون الذين التقطوه، فرجع إليهم فنشأ فيهم، وهذا من تمام قدرة الله أن ينشأ هذا الصبي الذي كان هلاك فرعون بسببه في حجره.

وقد قيل: إن فرعون كان يقتل أبناء بني إسرائيل خوفاً من هذا الولد؛ لأن الكهنة قالوا له: إنه سيظهر رجلاً في بني إسرائيل يكون زوال ملكك على يده، فصار يقتل أبناءهم.

هذه على كل حال من الإسرائيليات التي لا ندري هل تصدق أم لا؟ إنما كونه يقتل الأبناء ويستحيي النساء هذا في القرآن، لكن هل هو إذلال للشعب واستعباد لهم، أم خوفاً من هذا الولد؟ الله أعلم.

على كل حال، تربي عندهم فكان يمين عليه فرعون بهذه المنة ﴿ألم نريك فينا وليداً﴾ يعني: فكيف تأتي ضد ما نريد، وتدعي أن لك رباً أرسلك، ثانياً: ﴿وليت فينا من عمرك سنين﴾ - وليس سنيناً؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم -.

وقوله: ﴿من عمرك﴾ في الأصل صفة للسنين، أصلها: لبث فينا سنين من عمرك، ولكن القاعدة في النحو أن الصفة إذا قدمت أعربت حالاً؛ لأن الحال

صفة في المعنى، والصفة للمعنى - الذي هو النعت - لا يمكن أن تتقدم على المنعوت، لهذا قالوا: إن الصفة - صفة النكرة - إذا قدمت عليها أُعربت حالاً منها، هذه قاعدة عند النحويين.

قال: ﴿مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ﴾ هذه السنون ثلاثون سنة، حسب ما قال المفسر وأكثر المفسرين، ولكن الأولى أن تُبهم كما أبهم الله، لكن هم قدروا هذه الثلاثين لأن موسى عليه الصلاة والسلام نبي على رأس الأربعين على ما هي عادة الله سبحانه وتعالى في إرسال الرسل، فقالوا: إن الثلاثين كانت عند فرعون، ثم إنه ذهب إلى مدين وبقي فيهم عشر سنوات، ثم أرسله الله.

فمن هنا صارت السنون ثلاثين، ولكن هذا ليس بلازم؛ لأنه قد يكون تربى عند فرعون أقل من هذا، ثم انضم إلى بني إسرائيل، فلهذا لا ينبغي أن نجزم بأنها ثلاثون سنة، فلنقل كما قال الله: ﴿سِنِينَ﴾ وهي جمع، وأقل الجمع ثلاث سنوات، ولكن يبدو أنها أكثر؛ لأن الثلاث سنوات قد لا تكون بها تلك المنة التي يمن بها فرعون.

يقول المفسر رحمه الله: [يلبس من ملابس فرعون، ويركب من مراكبه، وكان يسمى ابنه]، ولذلك قالت امرأة فرعون: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَوَلَدًا﴾ [القصاص: ٩].

فهذا دليل على أنهم اتخذوه ولداً، يعني: عسى أن ينفعنا مطلقاً وإن لم يتبناه أو نتخذه ولداً، ومن المعلوم أن الولد سوف ينفع، ولكن الله يقول: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصاص: ٩] لم يكن الأمر كما توقعوه، بل كان بالعكس.



الآية (١٩)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتَى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩].

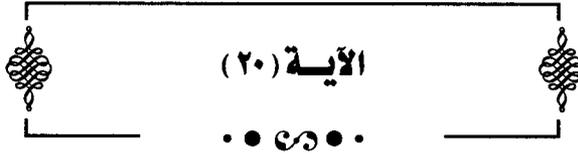
• • ❦ • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتَى فَعَلْتَ﴾ وَهِيَ قَتْلُهُ الْقِبْطِيِّ، ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ﴾ أْبْهَمَهَا تَعْظِيمًا لَهَا، وَالْإِبْهَامُ يَأْتِي لِلتَّعْظِيمِ أحيانًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْحَاقَةُ ١﴾ مَا الْحَاقَةُ﴾ [الحاقة: ١-٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنْ آلِيمٍ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، هَذَا إِبْهَامٌ يُرَادُ بِهِ التَّعْظِيمُ، وَهنا قَالَ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: قَتَلْتَ الْقِبْطِيَّ؛ إِشارةً إِلَى تَعْظِيمِهَا، وَأَضَافَهَا إِلَيْهِ مِنْ بَابِ التَّقْرِيرِ، يَعْنِي: إِنَّكَ فَعَلْتَ تِلْكَ الْفِعْلَةَ الَّتِي لَمْ يَفْعَلْهَا سِوَاكَ، وَهِيَ قَتْلُهُ الْقِبْطِيِّ، الَّذِي كَانَ فِي مَشَاجِرَةِ مَعَ الْإِسْرَائِيلِيِّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾، الْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿فَعَلْتَ﴾.

قَالَ: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ الْكٰفِرِينَ: لَيْسَ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمَنُ بِاللَّهِ، وَلَكِنْ مِنَ الْكٰفِرِينَ بِفِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّ مُوسَى لَمْ يَتَّخِذْهُ إِلَهًا كَمَا اتَّخَذَهُ الْأَقْبَاطُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ الْجٰحِدِينَ لِنِعْمَتِي عَلَيْكَ بِالتَّرِيبَةِ وَعَدَمِ الْاِسْتِعْبَادِ، فَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُفَسِّرُ؛ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكَفْرِ هُنَا كَفْرُ النِّعْمَةِ، وَذَلِكَ جَعْدَهُ لِمَا مَنَّ بِهِ فِرْعَوْنَ عَلَيْهِ مِنَ التَّرِيبَةِ، وَعَدَمِ الْاِسْتِعْبَادِ، كَمَا اسْتَعْبَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَكِنْ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ: هِيَ أَعْمٌ مِمَّا قَالَ الْمُفَسِّرُ، بَلْ كَذَلِكَ - وَهِيَ الْأَهْمُ عِنْدَ فِرْعَوْنَ - أَنَّهُ كَفَرَ بِعِبُودِيَّتِهِ، فَلَمْ يَتَّعْبُدْ لَهُ.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠].

• • • • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿فَعَلْتُهَا إِذَا﴾ أَي: حِينْتِذِ ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾
عَمَّا آتَانِي اللَّهُ بَعْدَهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالرَّسَالَةِ.

قوله: ﴿فَعَلْتُهَا إِذَا﴾ كلمة (إِذَا) للمستقبل؛ لِأَنَّ أَصْلَهَا: (إِذَا)، فَنَوَّتَتْ،
(وَحِينْتِذِ) تَكُونُ لِلْمَاضِي، فَتَفْسِيرُ الْمُفَسِّرِ (إِذَا) بـ (حِينْتِذِ) مِنْ بَابِ التَّفْسِيرِ بِالْمَعْنَى،
لَا التَّفْسِيرِ بِاللَّفْظِ؛ إِذْ لَا يُفَسَّرُ حَرْفٌ بِحَرْفٍ يِقَابِلُهُ فِي الْمَعْنَى، وَلَكِنْ مِنْ بَابِ
التَّفْسِيرِ بِالْمَعْنَى، يَعْنِي: فَعَلْتُهَا حِينْتِذِ فَعَلْتُهَا فِيمَا مَضَى ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾.

وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ (إِذَا) عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ جَوَابٌ لِفِرْعَوْنَ كَالْمَتَهَكِّمِ
بِهِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ (إِذَنْ أَفَعَلَهَا) يَعْنِي: وَلَا أَبَالِي بِكَ، وَلَكِنِّي مِنَ الضَّالِّينَ الْجَاهِلِينَ لِحُكْمِ
الْقَتْلِ. وَلَعَلَّ هَذَا أَقْرَبُ أَنْ تَكُونَ: (إِذَا) عَلَى بَابِهَا لَيْسَتْ بِمَعْنَى الْمَاضِي، وَكَأَنَّ ذَلِكَ
جَوَابٌ لِفِرْعَوْنَ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِهَانَةِ بِهِ وَعَدَمِ الْاِكْتِرَافِ، وَأَنَّهُ لَا يُبَالِي بِهِ.

وقوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ جَوَابٌ لِقَوْلِ فِرْعَوْنَ لَهُ: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾
[الشعراء: ١٩]. وقوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ يَقُولُ الشَّارِحُ - أَوِ الْمُفَسِّرُ -: [عَمَّا آتَانِي اللَّهُ
بَعْدَهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالرَّسَالَةِ]، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالضَّلَالِ هُنَا الْجَهْلُ. وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ
الضَّلَالُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

■ ضلال يُذَمُّ عليه الفاعلُ أو الضالُّ.

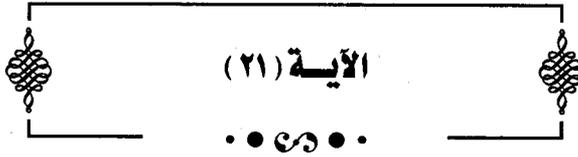
■ وضلال لا يُذَمُّ عليه.

والضَّالُّ الَّذِي حَصَلَ أَوْ الَّذِي اتَّصَفَ بِهِ مُوسَى حِينَ قَتَلَهُ الْقِبْطِيُّ ضَالًّا لَا يُلَامُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ وَحْيٌ وَلَا رِسَالَةٌ حِينْتِذٍ، فَهُوَ مَعذُورٌ، وَمِنْ هُنَا نَعْرِفُ أَنَّهُ يَصِحُّ أَنْ نَصِفَ الْمَخَالِفِينَ لِلصَّوَابِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالضَّلَالَةِ، لَكِنْ لَا الضَّلَالِ الْمَطْلُوقِ الَّذِي يُذَمُّونَ عَلَيْهِ إِذَا عُرِفَ أَنَّهُمْ أَهْلُ نَصِيحٍ فِي الْإِسْلَامِ، لَكِنْ أَخْطَأُوا بَعْدَ الْجَهْدِ.

مثال ذلك: أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَشَاعِرَةٌ مِنَ الَّذِينَ عُرِفُوا بِالْإِخْلَاصِ لِلْإِسْلَامِ، وَبِمَقَامِ الصِّدْقِ فِيهِ، وَمَعَ ذَلِكَ نَصَفُهُمْ بِأَتَمِّ ضَالِّونَ، لَكِنْ لَا الضَّلَالِ الْمَطْلُوقِ الَّذِي يُشَمُّ مِنْهُ، أَوْ يُشْعِرُ بِالذَّمِّ وَالْقَدْحِ، لَكِنْ الْمُرَادُ مَخَالَفَةُ الصَّوَابِ، وَإِلَّا سَنَجِدُ مَنْ يُشَنِّعُ إِذَا قَلْنَا مِثْلًا: ابْنُ حَجَرٍ ضَالٌّ، وَالنَّوَوِيُّ ضَالٌّ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَكْبَارِ الْعُلَمَاءِ مُحْطِئُونَ لِلصَّوَابِ، أَوْ مُحْطِئُونَ فِيهَا يَقُولُونَ، مَجَانِبُونَ لِلصَّوَابِ، لَكِنْ لَا نَقُولُ: كَيْسَ الضَّلَالِ الْمَطْلُوقِ الَّذِي يُذَمُّ عَلَيْهِ الْفَاعِلُ؛ لِأَنَّ الضَّلَالَةَ مَعَ الْجَهْدِ وَتَحْرِي الْحَقِّ لَا يُذَمُّ عَلَيْهِ الْمَرْءُ وَإِنْ وُصِفَ بِهِ.

فائدة: قوله: ﴿إِذَا﴾ فِي جَوَابِ لِلْحَالِ بِاعْتِبَارِ جَوَابِهِ لِفِرْعَوْنَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَا مِنْ الضَّالِّينَ﴾ الْجُمْلَةُ الْحَالِيَّةُ حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ ﴿فَعَلْنَاهَا﴾، فـ ﴿إِذَا﴾ لَا تَكُونُ مُتَعَلِّقَةً بِ(فَعَلْتُ)، وَتَكُونُ مُتَعَلِّقَةً بِجَوَابِ: أُجِيبُكَ إِذَنْ، ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ يَعْنِي: بِاعْتِبَارِ جَوَابِهِ لِفِرْعَوْنَ، لَا بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ فَعَلَهَا.

فَكَأَنَّهُ يُشْعِرُ بِعَدَمِ الْاِكْتِرَافِ وَبِالتَّحْدِي لِفِرْعَوْنَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَبَالِ بِهِ. يَقُولُ ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ وَالْمُرَادُ بِالضَّلَالِ: الْجَهْلُ الَّذِي لَيْسَ عَنْ عَمْدٍ.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١].



قال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ﴾. وسبب فراره منهم أن رجلاً جاءه يسعى وقال: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْأَمَلَاءُ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الفصص: ٢٠]، وهذا الرجل مجهول، لكن قبل موسى خبره لوجود القرينة؛ وهي قتله القبطي، وإلا فإنه ما يقبل خبر رجل مجهول. ثم إن هذا الرجل أكد خبره بقوله: ﴿فَاخْرُجْ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فخرج وفر منه خائفاً.

قال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ﴾، (لَمَّا) ظرف بمعنى: (حين)، وتُستعمل عادة استعمالات، فتُستعمل ظرفاً بمعنى: (حين)، وتُستعمل بمعنى أداة استثناء، بمعنى: (إلا)، وتُستعمل شرطية، وتُستعمل نافية، أما استعمالها نافية ففي مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، يعني: لم يدخل.

وأما استعمالها شرطية ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ وَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، فهذه الشرطية، وأما استعمالها بمعنى

(إِلَّا) ففي مثل قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، يعني: ما كلُّ نفسٍ إلَّا عليها حافظٌ.

وهنا ﴿لَمَّا خَفْتُكُمْ﴾ اسمٌ بِمَعْنَى: (حين)، فهي ظرفٌ يعني: حين خَفْتُكُمْ.

وهذا ممَّا يؤيِّد ما سبقُ أنْ أشرنا إليه بأن الكَلِمَاتِ تعتبر حَقِيقَةً بِحَسَبِ السِّيَاقِ، وأنَّ هَذَا هُوَ مَاخُذُ شَيْخِ الإِسْلَامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي أَنَّهُ لَيْسَ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مَا يُسَمَّى بِالْمَجَازِ مُطْلَقًا؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ لَيْسَ أَمْرًا ذَاتِيًّا لِلكَلِمَةِ، بل الكَلِمَةُ لها مَعْنَى بِحَسَبِ قِيَاسِهَا وَقِرَائِنِ أَحْوَالِهَا.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا] عِلْمًا ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.]

﴿فَوَهَبَ لِي﴾: أعطاني، قَالَ: [حُكْمًا] عِلْمًا، ولكن تفسير الحُكْمِ بالعلم قد يقول قائلٌ: إنَّ فيه نظرًا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْطِفُ بَعْضَهُمَا عَلَى بَعْضٍ؛ كما فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، والعطفُ يَقْتَضِي المُغَايِرَةَ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَفْسَّرَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ.

ولننظر: هل هَذَا الاعتراضُ صحيحٌ، أم يُقال: إنهما من الألفاظِ الَّتِي إِذَا اجتمعتِ افترقتُ، وَإِذَا افترقتِ اجتمعتُ، فإذا اجتمعتا تَغَايَرَتَا، وَإِذَا انفردتُ إحداهما صارَ مَعْنَى كُلِّ واحِدَةٍ مَعْنَى الأُخْرَى.

قال تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الحُكْمُ: القضاءُ بِالشَّيْءِ، وَيُسَمَّى حُكْمًا، ولا حكمَ إلَّا بعلمٍ، فتفسير الحكمِ بلازمِهِ، وَإِذَا جُمِعَ مَعَ العِلْمِ صارَ العِلْمُ ضِدًّا لِلْجَهْلِ، والحكمُ تطبيقُ ذَلِكَ العِلْمِ، فالذي يَظْهَرُ أَنَّ المُرادَ بالحكمِ هنا أخَفَّ مِنَ العِلْمِ، يعني: الحكمُ: القضاء، أو ما بِهِ يَقْضِي الإِنْسَانُ بَيْنَ النَّاسِ،

ولا يكون ذلك إلا بعلم، فتفسير المُفسِّر له تفسير بلازمه؛ لأنَّ من لازمِ الحكمِ العلم، وليس من لازمِ العلمِ الحكم؛ لأنَّه قد يَعْلَم ولكن لا يَحْكُم.

وقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هَذَا بَعْدَ أَنْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ وَأَتَاهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحُكْمِ جَعَلَهُ أَيْضًا مُرْسَلًا وَكُلَّفَ بِالرِّسَالَةِ.

وفي قوله: ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يقل: وَجَعَلَنِي رَسُولًا، كالتنبيه لِفِرْعَوْنَ أَنَّهُ لَيْسَ بِبَدِيعٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِأَمْرٍ جَدِيدٍ، بَلْ إِنْ أَمَامَهُ رُسُلًا، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ غَافِرٍ أَنَّ الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ يَقُولُ لَهُمْ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ [غافر: ٣٤]، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الَّذِينَ عِنْدَكَ خَبَرُهُمْ، فَلَسْتُ بِبَدِيعٍ مِنَ الرُّسُلِ.



الآية (٢٢)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

• • • • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ أَصْلُهَا: تَمَنَّ بِهَا عَلَيَّ، أَي: تَجَعَلَ بِهَا مِنَّةً عَلَيَّ، وَلَكِنْ حُذِفَ حَرْفُ الْجُرِّ وَعُدِّي الْفِعْلُ إِلَيْهَا. قَالَ: ﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ أَي: تَجْعَلُهَا مِنَّةً ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يَقُولُ: [بَيَان لـ(تلك)، أَي: اتَّخَذْتَهُمْ عِبِيدًا]، وَإِذَا كَانَتْ بَيَانًا لـ(تلك) فَتَكُونُ (أَنْ) تَفْسِيرِيَّةً، تَفْسِيرٌ لِاسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ أَي: حِينَ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَعَلتَّ تَرْبِيَّتِي عِنْدَكَ وَلِيَدَ النِّعْمَةِ، وَفِي الْحَقِيقَةِ هَذَا لَيْسَ بِنِعْمَةٍ؛ لِأَنَّ كَوْنَ الْإِنْسَانِ لَا يَقْتُلُ هَذَا الرَّجُلَ وَهُوَ يَقْتُلُ غَيْرَهُ عُدُوَانًا لَيْسَ بِنِعْمَةٍ؛ لِأَنَّ أَصْلَ قَتْلِ أَوْلَئِكَ ظُلْمٌ وَجَوْرٌ، فَكَوْنُهُ لَا يَقْتُلُ هَذَا الرَّجُلَ لَيْسَ نِعْمَةً.

وَعَايَةُ مَا هُنَاكَ أَنَّهُ لَمْ يَظْلِمُهُ، فَهُوَ لَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ ضَرْرًا نَازِلًا بِهِ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَجْلِبْ إِلَيْهِ نَفْعًا. فَمُوسَى يَقُولُ: كَيْفَ تَمَنَّ عَلَيَّ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَعْنِي: وَلَمْ تَسْتَعِيدِنِي، فَهَذِهِ لَيْسَتْ نِعْمَةً؛ لِأَنَّ كَوْنَ الْإِنْسَانِ لَا يَظْلِمُ هَذَا الرَّجُلَ وَيَظْلِمُ ذَاكَ، فَهَذَا لَيْسَ نِعْمَةً عَلَيَّ مَنْ لَمْ يُظْلَمْ؛ إِذْ لَمْ يُسَدِّ إِلَيْهِ نَفْعًا، وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ ضَرْرًا، عَايَةُ مَا هُنَاكَ أَنَّهُ امْتَنَعَ عَنْ ظُلْمِهِ.

وَفِي الْوَاقِعِ امْتِنَاعُهُ عَنْ ظُلْمِهِ نِعْمَةً عَلَيَّ نَفْسِ الظَّالِمِ؛ أَنْ اللَّهُ تَعَالَى أَنْعَمَ عَلَيْهِ

فَمَنْعَهُ مِنْ ظُلْمِ هَذَا الرَّجُلِ، ولهذا يقول المُفسِّر: ﴿أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولم تَسْتَعْبِدْنِي، لا نعمة لك بذلك لِظُلْمِكَ باستعبادهم، فأنت ما أعطيتني منةً جديدةً ونعمةً جديدةً حَتَّى تَمَنَّ بِهَا، فهو يُنكر عليه، ولهذا يقول المُفسِّر: [وقدَّرَ بعضُهم أوَّلَ الكلامِ همزةً استفهامٍ للإنكارِ]، يقول: كيف تمنُّ عليَّ بهذا الشَّيءِ؛ بأنك عَبَدْتَ بني إِسْرَائِيلَ، هَذَا لَيْسَ بنعمةٍ.

فَفِرْعَوْنُ يراها نعمةً، قَالَ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ فهو جعل هذه مِنَ النعم.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كونك عَبَدْتَهُمْ، أي: جَعَلْتَهُمْ عبيدًا لك، ووجهُ الاستعبادِ أَنَّهُ -وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ- كَانَ يَقْتُلُ الرَّجَالَ، فتبقى النساءُ بدون قِيَمٍ، والمرأةُ إِذَا بَقِيَتْ بدون قِيَمٍ تضطرُّ إِلَى أن تُخَدِّمَ، ولهذا قال العلماءُ: إنه كَانَ يستخدمُ النساءَ فَيُبْقِيَهُنَّ بالضرورة، وَإِذَا لم يكن لهنَّ قِيَمٌ سوف يَلْجَأْنَ إِلَى الأقباطِ لاستخدامهنَّ.

وسبقَ أن قال موسى: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، ثم قَالَ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]، فكأنه يقول: أنتم لم تألوا جُهْدًا فِي معاقبتي، ولكنني فَرَرْتُ مِنْكُمْ فلم تُدْرِكُونِي فنجوتُ، فالعقوبة نجوتُ منها بالفرارِ، والجهلُ تَنَزَّهْتُ مِنْهُ بالرَّسَالَةِ.

فكأنه يقول: تَرَكَ الظلمَ بالنسبةِ إِلَى لا يُعَدُّ نعمةً؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ مُسْتَحِقًّا لَهُ حَتَّى نقول: إنه عَفَا عَنْهُ وتركه، فهذا ما صار عليه المُفسِّرُ، لكن هناك احتمالٌ آخَرُ، فالإساءةُ إِلَى قومهِ إِسَاءَةٌ لَهُ، فكأنه يُوَكِّدُ نفيَ النعمةِ، يعني: أين النعمةُ وأنت قد

عبدت بني إسرائيل وهم قومي، فإذا قدر أيّ سلّمت من التّعبيد والظلم، فأنا فردٌ من قبيلةٍ وقومي قد عبدتهم، فأين النعمة؟!

وقوله: [قدر بعضهم أوّل الكلام همزة]، ليس ببعيدٍ أنّه قال: أو تلك نعمةٌ تمّنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل. يعني: فليس لك عليّ نعمة.

و(أن) تين المبهّم في قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ فكأنه يقول: تمّن عليّ بهذه النعمة حين عبدت بني إسرائيل، يعني: ولم تستعبدهم، هذا هو المعنى.

ولولا أن هذا المعنى ظاهرٌ لقلنا: إن موسى عليه الصلوة والسلام صرف نعمته عليه كالمتهكّم به، يعني: يقول: أين النعمة التي أنعمت بها عليّ وأنت تُعبد بني إسرائيل؛ لأنّ تعبيد بني إسرائيل خلاف النعمة في الواقع، ومن المعلوم أن موسى من بني إسرائيل، فتعبيد بني إسرائيل - وهم قومه - إذلالٌ له، وهذا معنى جيّد في الحقيقة، نقول: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ يعني: كيف تمّن عليّ بهذه النعمة وأنت تعبد بني إسرائيل، ويكون هذا من باب ما يُسمّونه بـ(تأكيد الذمّ بما يُشبه المدح)، وحينئذٍ تكون ﴿أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تفسيراً لـ(تلك)، يعني: أهذه النعمة التي تمّنها عليّ أن تُعبد بني إسرائيل، فأين النعمة؟! فهذا معنى جيّد.



الآيتان (٢٣، ٢٤)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٤].

•••••

قَالَ الْمُفَسِّرَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴿ لِمُوسَى ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ الَّذِي قُلْتَ: إِنَّكَ رَسُولُهُ؟ أَي: أَيُّ شَيْءٍ هُوَ؟ وَلِمَا لَمْ يَكُنْ سَبِيلَ لِلخَلْقِ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا يَعْرِفُونَهُ بِصِفَاتِهِ، أَجَابَهُ مُوسَى بِبَعْضِهَا ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾].

هذا الكلام الذي قاله المُفسِّر في تفسير الجملة بعيداً من الصوابِ كلِّ البُعد؛ قوله: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ من المعروف أن (ما) يُسْتَفْهَمُ بِهَا عن الحَقِيقَةِ، فتقول: ما الذهب؟ يُقال مثلاً: هُوَ مَعْدِنٌ نَفِيسٌ.. إلى آخره، تقول مثلاً: ما العلم؟ تقول: إدراكُ الشَّيْءِ عَلَى ما هُوَ عَلَيْهِ إدراكًا جازمًا، ف(ما) يُسْتَفْهَمُ بِهَا فِي الأَصْلِ عن الحَقِيقَةِ.

ويدعي المُفسِّر أنَّ فِرْعَوْنَ اسْتَفْهَمَ عن ذلك - عن الحَقِيقَةِ - ولكنه لَيْسَ كذلك، ففِرْعَوْنُ اسْتَفْهَمَ عن هَذِهِ الرَبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، فَمَا هَذِهِ الرَبُوبِيَّةُ الَّتِي زَعَمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَكَ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟!

لأننا لو قلنا: إِنَّهُ يُسْتَفْهَمُ عن حَقِيقَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَلزَمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ قد أَقْرَبَهُ، وَهُوَ لَمْ يُقَرَّرْ بِهِ حَتَّى يَسْأَلَ عن حَقِيقَةِ هَذَا الرَّبِّ، وَإِنَّمَا يُنْكَرُ الرَّبَّ أَصْلًا،

فلاستفهام للإنكار: أي شيء هو رب العالمين الذي زعمت أنه أرسلك؟! يعني: ليس هناك رب، فالتفسير الذي ذهب إليه المفسر بناءً على ما هو معروف من أن (ما) - وهو عند المناطق أيضًا، ليس معروفًا في اللغة العربية، بل عند أهل المنطق - يستفهم بها عن كنه الشيء وحقيقته، فقال: إن فرعون يستفهم عن كنه الخالق سبحانه وتعالى وحقيقته، ولكن موسى لما لم يمكن أن يجيب عن ذلك، عدل إلى بيان صفة من صفاته، فيكون الجواب من موسى غير مطابق للسؤال، ويسمى هذا بأسلوب الحكيم، أن يجاب السائل بغير ما يتوقع.

ولكن ما قاله وما ذهب إليه ليس بصحيح، كما أنكره ابن كثير رحمه الله في تفسيره^(١)، وقال: إن هذا معناه إقرار فرعون بالله، لكن يسأل عن حقيقة هذا الإله، فالصواب أن موسى عليه الصلاة والسلام أجابه بجواب مطابق للسؤال، وأن فرعون يسأل عن هذه الربوبية التي زعم موسى أنه مرسل من رب العالمين فقال ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟! أي شيء رب العالمين الذي أرسلك؟! وليس معناه: أي شيء هو مادته.

والجواب: [﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق ذلك]، ولا يكفي أن يفسر بالخالق، بل خالق ذلك ومدبره، والمتصرف فيه؛ لأن الرب لا يكفي أن يكون خالقًا، بل لا بد من خلقٍ وتدبيرٍ وتصرفٍ.

قال: ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وليست ربوبية فرعون كهذه الربوبية؟ وفرعون يدخل في ذلك؛ لأن الله ربه، لأنه لا يخرج عن السماوات والأرض وما بينهما، فهو في الأرض، وكأنه أيضًا أجاب بهذا إشارة إلى إبطال عبودية فرعون؛

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/١٣٨) ط. دار طيبة.

لَآنَ فِرْعَوْنَ لَا خَلْقَ سَمَاوَاتٍ وَلَا أَرْضًا، وَلَا مَا بَيْنَهُمَا، فَالَّذِي يَسْتَحِقُّ الرُّبُوبِيَّةَ هُوَ اللهُ.

وَيَنْبَغِي الْوُقُوفُ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، ثم يُقال: ﴿إِن كُنتُمْ مُوقِنِينَ﴾ فالأمرُ بِبَيِّنٍ.

ولهذا المفسرُ قدَّرَ الجواب، وقال: [﴿إِن كُنتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بأنه تعالى خالقه فآمنوا به وحده].

وإنما قلنا: إنها لا تعلق لها بما قبل؛ لأنه لو تعلقت بما قبلها لكان معنى أنه ربُّ السماوات والأرضِ إن أيقنوا بذلك وإلا فليس ربُّ السماوات والأرضِ، وهذا الكلام لا يستقيم.

والتقدير: ﴿إِن كُنتُمْ مُوقِنِينَ﴾ - أي: من ذوي الإيقان - فأيقنوا بذلك؛ لأنه لا أحد يقدر على خلق السماوات والأرضِ، فد(إن) هنا شرطية، وجوابُ الشرط محذوفٌ، وقدَّرَ المفسرُ: (فآمنوا به وحده). و(آمنوا) و(أيقنوا) معناهما واحد.



الآية (٢٥)

• • ٤٧ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٥].

• • ٤٧ • •

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ قَالَ ﴾ فِرْعَوْنُ ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ: ﴿ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ جَوَابَهُ الَّذِي لَمْ يُطَابِقِ السُّؤَالَ، وَهَذَا غَرِيبٌ! فَالاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلتَّهَكُّمِ بِلا شَكِّ، يَعْنِي: أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى هَذَا الَّذِي زَعَمَ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْوَاقِعِ - عَلَى حَسَبِ زَعْمِهِ - أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ هُوَ فِرْعَوْنُ، فَهُوَ يَتَهَكَّمُ بِهِ، يَقُولُ: اسْتَمِعُوا إِلَى هَذَا يَقُولُ: إِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا. فَيَكُونُ عَلَى هَذَا خَاطِئًا فِي تَهَكُّمِهِ، وَقَصْدُهُ بِهَذَا حَقِيقَةُ التَّهْوِيلِ، وَتَحْطِيمِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَبَيَانُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ لَيْسَ بِصَوَابٍ، أَمَّا عَلَى رَأْيِ الْمَفْسِّرِ فَجَوَابُهُ لَمْ يُطَابِقِ السُّؤَالَ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَكَانَ فِرْعَوْنُ مُحِقًّا فِي اعْتِرَاضِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ إِذَا عَرَفَ أَنَّ الْإِنْسَانَ أَجَابَ بِغَيْرِ مَا سُئِلَ عَنْهُ فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ مُنْقَطِعٌ عَنِ الْحُجَّةِ، وَعَاجِزٌ عَنِ دَفْعِهَا، فَهَذَا مِنْ أَعْدَمٍ مَا يَكُونُ.

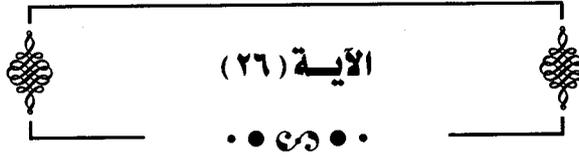
وَنَحْنُ نَقُولُ لِلْمَوْئَلَفِ وَلِغَيْرِ الْمَفْسِّرِ مِمَّنْ نَشَأُ عَلَى طَرِيقَتِهِ: إِنَّ جَوَابَ مُوسَى ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ مُطَابِقٌ لِلسُّؤَالِ، وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَمْ يَسْأَلْ عَنِ حَقِيقَةِ وَكُنْهِ الْخَالِقِ أَبَدًا، وَلَا دَارَ فِي فِكْرِهِ هَذَا، وَلَا يَبَالِي بِهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ.

فلهذا نقول: إن الجواب مطابِق للسؤال، و﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ الاستِفْهَامُ لِلتَّهَكُّمِ؛

لَإِنَّ مُوسَىٰ أَتَىٰ بِأَمْرٍ بَعِيدٍ عَمَّا يُرِيدُهُ فِرْعَوْنُ، ففِرْعَوْنُ الَّذِي يَقُولُ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يريدُ مِنْ مُوسَىٰ أَنْ يَقُولَ: رَبُّ الْعَالَمِينَ فِرْعَوْنُ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، ثُمَّ أَيْضًا اسْتَبَلَّهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ﴾ يَعْنِي: إِنْ كُنتُمْ مِنْ ذَوِي الْإِيقَانِ وَالْعِلْمِ فَأَيُّقِنُوا بِذَلِكَ.

وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا فِي ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ فِي هَذَا الْمَقَامِ لَا شَكَّ أَنَّهُ سَيَصْدُرُ مِنْ مِثْلِ فِرْعَوْنِ، حَيْثُ يَتَهَكَّمُ بِمُوسَىٰ الَّذِي جَاءَ بِالْحَقِيقَةِ وَلَا يَسْتَطِيعُ فِرْعَوْنُ أَنْ يَدْفَعَهَا.





❁ قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

•••••

قَالَ الْمَفْسَّر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِيمَا قَبْلَهُ يَغِيظُ فِرْعَوْنَ].

مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْلُوبُهُ أَسْلُوبٌ حَكِيمٌ: أَتَى أَوَّلًا بِالرَّبُوبِيَّةِ الْعَامَّةِ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، ثُمَّ أَتَى لِلرَّبُوبِيَّةِ الْخَاصَّةِ لِفِرْعَوْنَ الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ رَبُّهُ، وَقَالَ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، إِشَارَةً إِلَى أَنَّكُمْ أَنْتُمْ أَتَيْتُمْ مِنْ آبَائِكُمْ، وَمَنْ أَتَى مِنْ أَبِي فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ رَبًّا؟! هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ نُطْفَةٍ.

فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: ارْجِعُوا إِلَى أَصْلِكُمْ، فَاللَّهُ تَعَالَى رَبُّكُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ تَدَّعُونَ أَنَّكُمْ أَرْبَابٌ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ أَتَيْتُمْ مِنْهُمْ، فَيَذَكِّرُهُمْ بِأَصْلِهِمْ؛ لِيَذْكُرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا مَحْدَثِينَ، وَأَنَّهُمْ لَا يَصْلُحُونَ لِأَنْ يَكُونُوا أَرْبَابًا، وَهَذَا مِنْ حُسْنِ الْجَوَابِ، وَفِي الْحَقِيقَةِ كُلُّ جَوَابٍ يَقُولُهُ مُوسَى فَهُوَ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ تَدْمَغُهُمْ، وَلَكِنْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- مَنْ لَمْ يُوقَفْ بِالْحَقِّ فَإِنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ وَيَسْتَكْبِرُ عَنْهُ.

قَالَ الْمَفْسَّر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِيمَا قَبْلَهُ يَغِيظُ فِرْعَوْنَ]، وَفِي الْحَقِيقَةِ هَذَا كَلَامٌ لَيْنٌ مِنَ الْمَفْسَّرِ، وَلَوْ قَالَ: هَذَا أَيْضًا إِقَامَةٌ حُجَّةٌ أُخْرَى عَلَى فِرْعَوْنَ أَنََّّهُمْ مَرْبُوبُونَ، وَأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مِنْ أَصْلَابِ آبَائِهِمْ

الأوليين، ومن كان كذلك مولودًا فلا يستحق أن يكون ربًّا وإلهًا - الله أكبر -
لو قال ذلك لكان أولى، فالرُّسلُ يعانون من أقوامهم شيئًا كثيرًا.



الآية (٢٧)

•••••

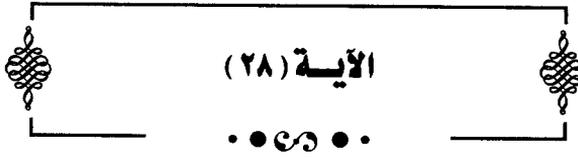
﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧].

•••••

(إِنَّ) للتوكيد، و(لَمَجْنُونٌ) اللام أيضًا للتوكيد، فأكد جنون موسى بأمرين؛ بـ(إِنَّ) واللام، وفي قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ﴾ من التهكم ما هو غير خفي، يتهكم به لأنه يُنكر رسالته وينكر ربوبيته ما أرسله، فهذا من باب التهكم به، ثم إنه لم يُضفهُ إِلَى نفسه تكبرًا، فما قَالَ: إِنَّ الرسولَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْنَا أَوْ إِنَّ رسولَنَا، قَالَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ﴾، وهذا علُوٌّ منه وتكبرٌ وتهكمٌ بموسى.

فالعلُوُّ والتكبرُ والترفعُ حيث أضافه إليهم، فكأنه هُوَ فِي شأنِ أعلى مِن أن يُرْسَلَ إليه ولا عَلَى سبيلِ التهكم، ثم إِنَّ إضافةَ الرِّسَالَةِ إليهم وَهُوَ يَنْكِرُ ذلك تهكمٌ بموسى ظاهرٌ، فقوله: ﴿الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ ولم يقل: أرسله ربُّ العالمين، مع أن موسى قَالَ: إِنِّي رسول ربِّ العالمين؛ لِأَنَّهُ ما سَمَحَ لنفسه أن يصفَ الله تعالى بالربوبية ولا عَلَى سبيلِ التهكم.

وقوله: ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ المجنون: فاقدُ العقلِ، وهذا دأبُ جميعِ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، يقولون: ساحرٌ أو مجنون، و(أو) هَذِهِ مانعةٌ خُلِّوْ وليست مانعةً جمع؛ لِأَنَّهم قد يقولون: ساحرٌ فقط، أو مجنونٌ فقط، أو ساحرٌ ومجنونٌ، وهذا ما وَقَعَ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما سيأتي قريبًا إن شاء الله.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[الشعراء: ٢٨].

•••••

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ]، يعني: هُوَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْجِهَةُ فَقَطْ، وَلَكِنْ الْمُرَادُ الْجِهَةُ وَمَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنْ شُرُوقِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجُومِ، وَمَا إِلَيْهَا. قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وَهَذَا كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ لِلَّذِي حَاجَّهُ، قال إِبْرَاهِيمُ: ﴿فَاتَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فَكَأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَدَلَ إِلَى أَمْرٍ ظَاهِرٍ بَيِّنٍ لَا يُمَكِّنُ الْمَارَأَةَ فِيهِ أَبَدًا؛ قَالَ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وَالَّذِي بَيْنَهُمَا وَمَا يَحْدُثُ مِنَ السَّحَابِ وَالرِّيَّاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَهَذَا أَمْرٌ لَا أَحَدٌ يُنْكِرُهُ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ ظَاهِرٌ لِلْعُقَلَاءِ.

ثم في قوله: ﴿إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تعريض لهم كرد على قولهم: إن رسولكم لجنون، كأنه يقول: المجنون من ينكر هذه الأشياء.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ من ظهور القوة من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهُ لَمْ يَكْتَرِثْ بِهِمْ، فَهُوَ رَجُلٌ وَحْدَهُ أَمَامَ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَهَذَا

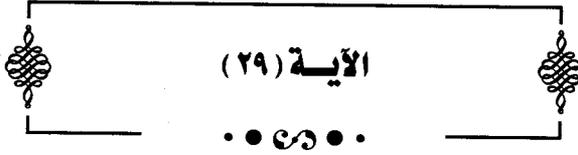
كَلَامٌ مُّزَعَجٌ فِي الْوَاقِعِ أَنْ يَقُولَهُ الْإِنْسَانُ لِمَنْ كَانَ نِدًّا لَهُ، وَلَكِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ اللَّهُ لَهُ فِي الْأَوَّلِ: ﴿فَاذْهَبَا بِثَابِتَيْنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥]، كَانَ وَاثِقًا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَمَوْقِنًا بِأَنَّهُ لَنْ يَضُرَّهُ فِرْعَوْنُ، وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ.

الشَّاهِدُ أَنَّ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ وَمَا بَيْنَهُمَا لظهورِ الْآيَاتِ فِيهِمَا؛ قَالَ لَهُمْ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فهذا من وجه.

ثَانِيًا: أَرَادَ أَنْ يَقَابِلَ قَوْلَ فِرْعَوْنَ: ﴿إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: الْمَجْنُونُ مَنْ لَمْ يَسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَاتِ عَلَى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَنَّهُ كَذَلِكَ فَآمَنُوا بِهِ وَحْدَهُ، مِثْلَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ فِيهَا سَبْقًا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]، بِأَنَّهُ تَعَالَى خَالِقَهُ فَآمَنُوا بِهِ وَحْدَهُ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لَيْنٍ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾

[الشعراء: ٢٩].

• • • • •

قَالَ الْمُسَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: ﴿لَيْنٍ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾]، بعد أن انقطع به سلطان الحجّة والبرهان عدل إلى سلطان القوة والتهديد؛ فهكذا العاجز عن ردّ الحجّة بالحجّة يَعْمِدُ إِلَى الْقُوَّةِ إِذَا كَانَ لَهُ سُلْطَانٌ، وهذا له سلطانٌ عَلَى مُوسَى، ولهذا هَدَّاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْنٍ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي﴾ لم يقل: لَيْنٌ دَعَوَتْ إِلَى اللَّهِ فَقَطُّ، يعني: يريد منه أن يَمْتَنِعَ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ بِالْأُولَى، وأن لَا يَتَّخِذَ إِلَهًا سِوَاهُ، وفي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ يَنْكُرُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ رَبٌّ سِوَاهُ، وأن قَوْلَهُ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، صفة كاشفةٌ وليست صفةً مُقَيِّدَةً؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْتَقِدُ أَنَّ هُنَاكَ رَبًّا سِوَاهُ.

وقوله: ﴿لَيْنٍ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ﴾ فيه شيان يحتاجان إلى جوابٍ: الشَّرْطُ وَالْقَسَمُ، والموجودُ هنا جوابُ القسمِ وليس جوابُ الشَّرْطِ؛ فكلمة ﴿لِأَجْعَلَنَّكَ﴾ ليست جوابُ شرطٍ، بل جوابُ قَسَمٍ، ولهذا أُكِّدَتْ بِالنونِ وَاللَّامِ، فهي جوابُ قَسَمٍ، وهذه هي القاعدة؛ يقول مالك^(١):

(١) ألفية ابن مالك - عوامل الجزم، (ص: ٥٩) ط. دار التعاون.

وَاحْدِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمٍ جَوَابَ مَا أَخْرَتْ فَهَوَ مُلْتَزَمٌ

وهنا اجتمع شرطٌ وقسمٌ: الشرط (إن)، والقسم (والله) المحذوف، يقول: «احذف لَدَى اجتماعِ شرطٍ وقسمٍ جوابَ ما أخرجت» والمؤخر هو الشرط، فيكون الجواب الموجود للقسم، وهو كذلك.

وقوله: ﴿لَيْنٍ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي﴾ (إِلَهًا) بمعنى: مألوه، أي: معبود، والمراد بالمعبود هنا المعبود الذي يستحق أن يُعبد، وذلك لربوبيته، فهو يعتقد أنه الرب، فيجب أن يكون هو الإله الذي يُعبد.

قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ انظر: ﴿مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ولم يقل: لَأَسْجِنَنَّكَ، كما قال الله تعالى في قصة يوسف: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجُوتَهُ﴾ [يوسف: ٣٥]، بل قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ زيادة في تهديد موسى، كأنه يقول: إن هناك سُجَنَاءَ، وأنا قادرٌ على سجنِ الناسِ، فإذا لم تتخذني إلهًا واتخذت إلهًا غيري، جعلتكَ في جملة هؤلاء.

قال المفسر رحمه الله: [﴿مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾] كَانَ سِجْنُهُ شَدِيدًا؛ يَجْسُ الشَّخْصَ فِي مَكَانٍ تَحْتَ الْأَرْضِ وَحْدَهُ، لَا يُبْصِرُ وَلَا يَسْمَعُ فِيهِ أَحَدًا]. وهذا ليس شديدًا بما نعرف من السجون، فهي أشد من هذا بكثير، وفرعون إنما قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ أما كيف يسجنه فالآية لم تتعرض له، وأيضًا إذا كان معروفًا أن سجنه بهذه الكيفية فهذا السجن ليس شديدًا، بل في السجن من التعذيب ما هو أشد، فنسمع أنه - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - يُؤْتَى بِالشَّخْصِ وَيُجْعَلُ فِي مِثْلِ بَرْمِيلٍ، وَفِيهِ مَسَامِيرٌ وَتَحْتَهُ نَارٌ، فَهَذَا الرَّجُلُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْلِسَ؛ إِنْ جَلَسَ خَرَقَتْهُ الْمَسَامِيرُ، وَإِنْ اتَّكَأَ عَلَى أَحَدِ الْجُدْرَانِ كَذَلِكَ، فَهَذَا - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - مِنَ الْأَسَالِبِ الَّتِي يَفْعَلُونَهَا.

ونسَمِعَ أَيضًا أَنَّهُ مِنَ الْأَسَالِيبِ أَنَّهُمْ يَجُوعُونَ السَّبَاعَ الضَّارِيَةَ ثُمَّ يَرْسَلُونَهَا عَلَى السَّجَنَاءِ تَنْهَشُهُمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ الدَّفَاعَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُمُ الْقُدْرَةُ، مِثْلَمَا فَعَلَ الْحَجَّاجُ بِجَحْدَرِ بْنِ مَالِكٍ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الْخَوَارِجِ، فَقَبَضَهُ، وَكَانَ شُجَاعًا جِدًّا، فَلَمَّا قَبَضَهُ حَبَسَهُ وَأَتَى بِهِ، وَقَالَ: إِنَّا مُلْقُوكَ إِلَى الْأَسَدِ، وَإِنَّا سَنَقِيدُ يَدَكَ، وَأَنْتَ وَشَأْنُكَ، فَاتَى بِأَسَدٍ فَأَجَاعَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ جَحْدَرُ: أَعْطِنِي سِيفًا، وَشُدِّ إِحْدَى يَدَيْيَ، فَأَعْطَاهُ السِّيفَ وَشُدَّ إِحْدَى يَدَيْهِ، ثُمَّ أَلْقَاهُ إِلَى الْأَسَدِ وَالْأَسَدُ جَائِعٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَمْ يَأْكُلْ، يَقُولُونَ فِي تَرْجُمَتِهِ: فَلَمَّا وَثَبَ عَلَيْهِ الْأَسَدُ صَرَبَهُ فِي نَحْرِهِ بِالسِّيفِ بِيَدٍ وَاحِدَةٍ، فَخَرَّ الْأَسَدُ صَرِيعًا، فَأَطْلَقَهُ الْحَجَّاجُ؛ لِقُوَّتِهِ وَشُجَاعَتِهِ^(١).
فهذه الأساليبُ أيضًا ممَّا يَعْمَدُ إِلَيْهِ أَهْلُ الظُّلْمِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - بِالسَّجَنَاءِ.

والمهمُّ أَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرٌ مَا يُفَعَّلُ بِمُوسَى، إِنَّهَا فِيهَا أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنَ الْمَسْجُونِينَ؛ أَي مِنْ جَمَلَةٍ مَنْ يُسَجَّنُ.



(١) تاريخ دمشق (١٢٢/١٤٨)، والبداية والنهاية لابن كثير (٩/١٤٥) ط إحياء التراث.

الآيات (٣٠ - ٣٥)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٣٠﴾ قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣١﴾ قَالَ فَاتِّبِعْهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٥].

•••••

قَالَ الْمُبَسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ لَهُ مُوسَى: ﴿أُولُو﴾ أَي: أَتَفَعَّلُ ذَلِكَ وَلَوْ ﴿حِجَّتِكَ﴾]، إِذَا اقترنت همزة الاستفهام بالعاطفِ فإمَّا أَنْ تَقْدَرَ بَعْدَهَا جَمَلَةٌ يَعْطِفُ عَلَيْهَا مَا بَعْدَ الْهَمْزَةِ، أَوْ تَقْدَرُ الْهَمْزَةُ مُتَأَخِّرَةً بَعْدَ حَرْفِ الْعَطْفِ، وَجِهَانِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ، وَالْوَجْهُ الْأَخِيرُ أَسْهَلُ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ - كَمَا يَمْرُوكَ - قَدْ لَا يُمْكِنُ فِيهِ التَّقْدِيرُ، وَأَمَّا هَذَا فَتَقُولُ: الْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ، وَهِيَ مُقَدَّمَةٌ، وَالْوَاوُ حَرْفُ عَطْفٍ، وَهُوَ مُقَدَّمٌ حُكْمًا، مُؤَخَّرٌ لَفْظًا، وَالْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ.

أَمَّا عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُبَسَّرُ هُنَا فَإِنَّهُ جَعَلَ الْهَمْزَةَ دَاخِلَةً عَلَى شَيْءٍ مَحذُوفٍ: [أَتَفَعَّلُ ذَلِكَ وَلَوْ ﴿حِجَّتِكَ﴾ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ]، كَأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لَهُ: عَلَى رِسْلِكَ، لَا تَسْجُنِّي، فَأَنَا مَا جِئْتُ بِبَاطِلٍ وَسَأُقِيمُ الْبِرْهَانَ عَلَى مَا أَتَيْتُ بِهِ: ﴿أُولُو حِجَّتِكَ﴾ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ.

وَمِنْ لُطْفِ اللَّهِ أَنْ فِرْعَوْنَ قَالَ: ﴿فَاتِّبِعْهُ﴾، وَكَانَ مُقْتَضَى جَبْرُوتِهِ وَطُغْيَانِهِ

أن يقول: ولو جِئْتَنِي بِشَيْءٍ مُّبِينٍ إِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ، ولكن القلوب بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فالآن اللهُ قلبَ هذا الرَّجُلِ المتكبرِ الجبارِ مُوسَى حينَ قَالَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتَنِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا اللَّيْنُ قد يكونُ له سببٌ حَسْبِيٌّ، فهو لِئَلَّا يَنْقَطِعَ أَمَامَ الْمَلَأِ الَّذِينَ عِنْدَهُ؛ لِأَنَّ مُوسَى إِذَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ خِطَّةَ الرُّشْدِ ثم تَعَسَّفَ، وقال: ولو جِئْتَنِي بهذا، فربَّما حينئذٍ يَظْهَرُ أَمَامَ مَلَكِهِ أَنَّهُ مُعَانِدٌ وَأَنَّهُ مَنْقَطِعٌ، فقال: ﴿فَأَتِ بِهِ﴾.

ثم إنه أيضًا قد يكونُ مِمَّا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ لِيَكُونَ إِبْطَالُهُ أَوْ دَعْوَى بُطْلَانِهِ عَلَى يَدِهِ؛ لِإِنَّهُ رَبِّمَا يَأْتِي بِهِ مُوسَى فِي مَكَانٍ آخَرَ فَيَغْتَرِّبُهُ النَّاسَ -عَلَى زَعْمِهِ- فَأَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ أَمَامَهُ؛ لِيَتِمَّكَنَ مِنْ دَعْوَى بُطْلَانِهِ.

نقول: ووجهُ التلويح -أو أن الله ألانته له- أَنَّهُ مَا قَالَ: لَا تَأْتِ بِشَيْءٍ وَسَأَسْجُنُكَ ولو لم تأت؛ فقد عَرَضَ عَلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي بِشَيْءٍ مُحْتَمَلٍ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ، ولكن فِرْعَوْنُ لَأَنَّ بَعْضَ الشَّيْءِ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا:

أولاً: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَلَانَهُ، والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ثانياً: الأسبابُ الحسبيةُ لِأَجْلِ الْأَيْقَالِ: إِنَّ حُجَّتَهُ انْقَطَعَتْ، وَإِنَّ الرَّجُلَ عَرَضَ عَلَيْهِ خِطَّةَ رُشْدٍ فَأَبَاهَا.

ثالثاً: لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ إِبْطَالُ مَا يَأْتِي بِهِ مُوسَى عَلَى يَدِهِ حَتَّى يُبَيِّنَ، وَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَتَحَدَّاهُ، وَإِنْ كَانَ هَذَا مَا يَمْنَعُ أَنْ يَقُولَ: لَا تَأْتِ بِهِ؛ لِإِنَّهُ هُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَقُولَ: لَا تَأْتِ بِهِ بَدُونَ أَنْ يَتَحَدَّاهُ؛ لِأَنَّ تَحْدِيهَ لَهُ فِيهِ احْتِمَالٌ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ، وَحِينَئِذٍ تَنْقَطِعُ حُجَّةُ فِرْعَوْنِ.

يقول المفسر رحمه الله: [بِشَيْءٍ مُّبِينٍ] بُرْهَانٌ بَيْنٌ عَلَى رِسَالَتِي، شَيْءٌ: فَسْرُهُ الْمُفَسِّرُ بِبُرْهَانٍ، (مُبِينٍ): بِ(بَيْنٍ)، إِذْ فِيهَا مِنْ (أَبَانَ) اللَّزِيمُ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: أَبَانَ بِمَعْنَى أَظْهَرَ مُتَعَدِّ، وَأَبَانَ بِمَعْنَى بَانَ.

وقوله: [بَيْنٌ عَلَى رِسَالَتِي]، الْمُفَسِّرُ قَيَّدَهَا بِقَوْلِهِ: (عَلَى رِسَالَتِي) وَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ: إِنَّهَا أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ؛ عَلَى كُلِّ مَا قَلَّتْ مِنَ الرَّسَالَةِ، وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَنَّهُ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، و﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، و﴿رَبِّكُمْ وَرَبِّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾، و﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، وَلَكِنْ كَلَامُ الْمُفَسِّرِ لَا يَأْبَاهُ إِذَا قَلْنَا: إِنَّ الْمُرَادَ بِالرَّسَالَةِ كُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى.

قال المفسر رحمه الله: [قَالَ] فِرْعَوْنُ لَهُ: ﴿فَأْتِ بِهِ﴾، أَي: هَذَا الشَّيْءِ الْمُبِينِ [إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ] فِيهِ.

وَالْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ مَوْصُولَةٌ فِيهَا قَبْلُهَا وَلَيْسَتْ مَنْقُوعَةً، يَعْنِي: إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأْتِ بِهِ، وَفِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ يَقُولُ بَعْضُ النُّحَوِيِّينَ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَى جَوَابِ الشَّرْطِ؛ لِإِدْلَالِهِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: إِنْ جَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، وَدَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، وَلَا أَعْلَمُ أَنْ أَحَدًا قَالَ: إِنْ جَوَابُ الشَّرْطِ مَا سَبَقَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ جَوَابَ الشَّرْطِ لَا يَتَقَدَّمُ عَلَى الْعَامِلِ، وَلَكِنْ الصَّحِيحُ الْأَوَّلُ: أَنَّ التَّرْكِيبَ فِي مِثْلِ هَذَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ الَّذِي بَعْدَهُ أَنْ الَّذِي بَعْدَهُ يَقُولُ: يَجِبُ أَنْ يَقَدَّرَ الْجَوَابُ، وَلَكِنَّهُ حُذِفَ لِلْعِلْمِ بِهِ، وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنْ مَا عَلِمَ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ إِطْلَاقًا، فَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَمِثْلُ هَذَا يَقَعُ أَيْضًا فِي الْقَسَمِ.

وقوله: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، ذَكَرْنَا أَنَّ هَذَا الْخُضُوعَ مِنْ فِرْعَوْنَ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ، وَمِنْهَا أَنَّ اللَّهَ أَلَانَ قَلْبَهُ، فَقَدْ تَحَدَّاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ

كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٠﴾، مع أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ هَذَا التَّحْدِي لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ أَلَانَهُ لَكَانَ مَا تَحَدَّاهُ بِهِ؛ إِذْ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَقُولَ لَهُ: لَا تَأْتِ بِهِ، وَمِنَ الْجَائِزِ بَعْدَ أَنْ تَحَدَّاهُ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ مُوسَى، فَيَكُونُ كَذَلِكَ حُجَّةً عَلَى فِرْعَوْنَ.

فَأْتَى بِالْآيَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ، وَهِيَ آيَةُ الْعَصَا، وَآيَةُ الْيَدِ، وَقَابَلَهُمَا فِرْعَوْنَ بِمِثْلِ مَا قَابَلَ بِهِ أَوْلَا، وَهُوَ التَّمْوِيهُ، وَادْعَاءُ السَّحْرِ، وَأَنَّهُ سَاحِرٌ عَلِيمٌ جَيِّدٌ فِي سِحْرِهِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]، مَا قَالَ: أَنْ يُخْرِجَنِي مِثْلًا، أَوْ أَنْ يُخْرِجَنَا؛ تَرْفَعًا وَتَعْظُمًا أَنْ يَبْدُو أَمَامَ مُوسَى بِمَظْهَرِ الضَّعْفِ الَّذِي يَهْدِدُ، وَلَكِنَّهُ خَاطَبَ بِهِ قَوْمَهُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿مَنْ أَرْضِكُمْ﴾ ؛ تَهْيِجًا لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا شَكَّ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَحَدًا لِيُخْرِجَهُ مِنْ أَرْضِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ ولم يقل: مَنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَلَا: مَنْ الْأَرْضِ؛ تَهْيِجًا لَهُمْ عَلَى مَقَابَلَةِ مُوسَى بِمَا يَقَابِلُونَهُ بِهِ، وَلَا جِلِّ أَنْ يَكْرَهُوا مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيَرَوْا أَنَّهُ عَدُوٌّ مُسْتَعْمِرٌ.

وقوله: ﴿بِسِحْرِهِ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب سحره، وفِرْعَوْنَ هُنَا قَالَ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾، وَالْمَلَأُ مَا قَالُوا: (بِسِحْرِهِ)، أَمَا هُوَ فَقَالَ: (بِسِحْرِهِ)؛ لِأَجْلِ أَنْ يُشَدَّهُمْ إِلَى طَلَبِ السَّحْرَةِ الَّذِينَ يَقَابِلُونَ فِرْعَوْنَ، قَالَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠]، وَلَمْ يَقُلْ: (بِسِحْرِهِ)، وَالْفَرْقُ أَنْ فِرْعَوْنَ أَرَادَ أَنْ يَشَدَّهُمْ، وَأَنْ يُغْرِبَهُمْ بِمَا يَقَابِلُونَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ هُنَا هُوَ طَلَبُ الْفِعْلِ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِعْلَاءِ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ لَنْ يُخَضَّعَ لِقَوْمِهِ حَتَّى يَطْلُبَ مِنْهُمْ أَمْرًا، وَلَكِنْ الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ

المشورة، يعني: فبماذا تشيرون علي؟ وسمي المشيرُ أمرًا لأنه مُوجّه؛ فإن من استشاره لا شك أنه يطلب توجيهه، فتكون مشورته بالأمر أمرًا به.

والإشارة هنا لمصلحته؛ لأنه إذا استشارهم فإنه يريد أن يختبرهم ماذا يكون عندهم، ويريد أيضًا أن لهم وزنًا لأجل أن يتشجعوا على هذا الأمر.

فائدة: قال تعالى: ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القَصَص: ٣٢]، وقال: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢]؛ لأنه - والله أعلم - أن الجيب في مقدّمة الجسم، ويمكن لو أنه ألقاها خلف ظهره ثم أخرجها أن يقول قائل: إنه عمل فيها عملاً لم نشاهده، لكن هذا أمامهم وظهر.

وكنت أتصوّر بالأوّل أنه لما كان في العادة أن اليد إذا أدخلت وتغيبت عن الشّمس والهواء ابيضت، فالظاهر أن الجلد كلّهُ المستور من الإنسان أبيض، والبارز للشّمس والهواء أسمر، ولكن أن يتغيّر بهذه السّرعة فهذا خلاف العادة، ففي العادة لا يتغيّر إلا بعد مدّة طويلة، وهذه السّرعة تدلّ على أنّها ليست أمرًا عاديًا، بل هو أمرٌ خلاف العادة، وهذه من آيات الله.



الآيتان (٣٦، ٣٧)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تُونُكَ
يَكْفُلُ سَحَارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٣٦-٣٧].

• • • • •

إذا أراد الله أمراً هياً أسبابه، لو سلط فرعون على موسى وأخيه لقصى
عليهما، ولكن الله تعالى جعل لكل شيء سبباً.

أشار الملائة على فرعون أن يؤخر أمر موسى وهارون، وأن يبعث في
﴿المدائن﴾ جمع مدينة ﴿حاشرين﴾ جامعين، يعني: يرسل إلى مدائن مصر من يجمع
السحرة.

ولهذا جاء الجواب: ﴿ يَا تُونُكَ يَكْفُلُ سَحَارٍ عَلِيمٍ ﴾، وكان من المتوقع أن
يقول: (يأتونك)، فما هو الفرق بين (يأتوك) وبين (يأتونك) من حيث المعنى؟

لو قال: (يأتونك) لكانت صفة لـ (حاشرين)، أي: حاشرين يأتونك بكُلِّ
سحارٍ عليم، لكن المراد خلاف ذلك؛ لأن: (يأتوك) أبلغ من: يأتونك، حيث
كانت جواباً للأمر، الذي هو للمشورة، إذن (ابعث) أيضاً ليست أمراً حقيقياً،
فهي أمرٌ للمشورة: (ابعث يأتوك)؛ لأنه بمجرد بعثك يأتونك به.

لكن لو كانت صفة لـ (حاشرين): (حاشرين يأتونك) لكان من الجائز ألا
يأتوا، فصفة الحاشر من يجمع ويأتي بالسحرة، لكن قد يتهدأ له ذلك وقد لا يتهدأ،

أَمَا إِذَا قَالَ: ابْعَثْ يَا تَوَكُّبُ، صَارَ هَذَا مِثْلَ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ، يَعْنِي: إِنَّهُ إِذَا حَصَلَ بَعَثُكَ لَزِمَ مِنْهُ التَّيَجُّبُ، وَهُوَ أَنَّ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ.

و(سَحَّار) هِيَ مِنْ بَابِ الْمُبَالِغَةِ، أَوْ هِيَ مِنْ بَابِ النَّسْبَةِ، كَمَا يُقَالُ: بَنَاءٌ وَنَجَّارٌ وَصَنَّاعٌ، يَعْنِي: لِأَنَّ صِنْعَتَهُ السَّحْرُ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ وَلَا يُنْسَبُ الْإِنْسَانُ إِلَى هَذِهِ الصِّفَةِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُجِيدًا فِيهَا، فَلَا يُقَالُ لِمَنْ بَنَى مَرَّةً وَاحِدَةً: إِنَّهُ بَنَاءٌ، وَلَا لِمَنْ نَجَرَ مَرَّةً وَاحِدَةً: إِنَّهُ نَجَّارٌ، وَإِنَّمَا يُقَالُ ذَلِكَ فِيمَنْ أَتَقَنَّ الْمِهْنَةَ وَالصَّنْعَةَ.

إِذْنٌ فَالسَّحَّارُ إِمَّا صِيغَةٌ مُبَالِغَةٌ أَوْ صِيغَةٌ نِسْبِيَّةٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّ (سَحَّار) عَلَى مَعْنَى الْمُبَالِغَةِ بِمَعْنَى كَثِيرِ السَّحْرِ، وَلَكِنْ (سَحَّار) عَلَى مَعْنَى النَّسْبَةِ بِمَعْنَى أَنَّهُ مُتَقَنَّ لِهَذِهِ الصَّنْعَةِ؛ لِأَنَّهُ نُسِبَ إِلَيْهَا.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ النَّسْبَةَ أَوْلَى، يَعْنِي: بِذِي سَحَرٍ قَدْ أَتَقَنَّ هَذِهِ الْمِهْنَةَ، فَتَكُونُ لِلنَّسْبَةِ، وَيُعْنِي عَنِ الْمُبَالِغَةِ قَوْلُهُمْ: (عَلِيمٌ) يَعْنِي فَائِقُ السَّحْرِ، وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذَا يُعْنِي عَنِ النَّسْبَةِ وَإِنْ (سَحَّار) صِيغَةٌ مُبَالِغَةٌ لِكثْرَةِ سِحْرِهِ وَإِتْقَانِهِ.

قَالَ: ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أَي سَحَّارٍ وَعَلِيمٍ، وَلِهَذَا قَدْ يَرْتَجِّحُ أَنَّهَا لِلْمُبَالِغَةِ وَتَكُونُ النَّسْبَةُ مَفْهُومَةً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿عَلِيمٍ﴾.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ] يَفْضَلُ مُوسَى فِي عِلْمِ السَّحْرِ، يَعْنِي: يَزِيدُ عَلَيْهِ، فَعَلَى هَذَا طَلَبُوا أَنْ يَأْتُوا بِسَحْرَةٍ يَفُوقُونَ مُوسَى فِي الْكَمِّ وَفِي الْكَيْفِ، وَفَعَلًا حَصَلَ هَذَا، وَأَتُوا بِمَهْرَةٍ سَحْرَةٍ وَبَعْدِدِ كَبِيرٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ الْأَمْرُ الَّذِي مِنْ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِثْلَ السَّحْرِ الَّذِي هُوَ خَيَالٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ.

الآية (٣٨)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ٣٨].

•••••

قَالَ الْمَفْسَّر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وَهُوَ وَقْتُ الضُّحَى
من يَوْمِ الزَّيْنَةِ].

﴿السَّحَرَةُ﴾ (أل) للعموم، والجامع إما فِرْعَوْنُ وإما الحاشرون الَّذِينَ ذَهَبُوا
إِلَى الْمَدَائِنِ يُحْشَرُونَ النَّاسِ.

وقوله: ﴿لِمِيقَاتِ﴾ اللامُ للتوقيت؛ كقوله تعالى: ﴿فَطَلِقُوهُنَّ لِإِعْدَّتِهِنَّ﴾
[الطلاق: ١]، أي: لوقتِ عِدَّتِهِنَّ.

جُمِعُوا لِهَذَا الْيَوْمِ ﴿لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ لَدَى النَّاسِ، وَالَّذِي فَرَضَ هَذَا الْيَوْمَ
-سُبْحَانَ اللَّهِ- مُوسَى وَالَّذِي اقْتَرَحَهُ مُوسَى، انظر كيف التفصيل! فموسى هو
الَّذِي يُحَدِّدُ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ، ﴿قَالَ مَوْعِدَكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَى﴾
[طه: ٥٩]؛ لِإِنَّهُ وَاثِقٌ بِنَصْرِ اللَّهِ، وَلِهَذَا وَعَدَهُمْ يَوْمًا يُسَمُّونَهُ (يَوْمَ الزَّيْنَةِ) بِمَنْزِلَةِ عِيدِ
الْمُسْلِمِينَ، وَأَمْرَهُمْ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ فِي وَاضِحَةِ النَّهَارِ ضُحَى؛ لِتَيْمُكَّنَ النَّاسُ مِنْ
الرُّؤْيَةِ وَالْمَشَاهِدَةِ عَلَى وَجْهِ التَّأْنِي وَالطَّمَأْنِينَةِ.

•••••

الآيتان (٣٩، ٤٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ ﴿٣٩﴾ لَعَلْنَا نَبْعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْفٰلِغِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٩-٤٠].

• • • • •

القائل مُبْهَم؛ لِأَنَّ الْقَائِلِينَ كَثِيرُونَ، يَقُولُونَ: ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلْأَمْرِ، يَعْنِي: اجْتَمِعُوا، أَوْ هُوَ لِلتَّشْوِيقِ؛ كَقَوْلِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَيْكُمْ تَحْرِيرَ نُجَيْكُم مِّنْ عَذَابِ إِلِيمٍ ﴾ [الصف: ١٠]، لَكِنِ الْأَمْرُ أَوْضَحُ، يَعْنِي: أَمْرُوا أَنْ يَجْتَمِعُوا ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ ﴿٣٩﴾ لَعَلْنَا نَبْعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْفٰلِغِينَ. ﴿

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الاستفهام للحث على الاجتماع والترجي على تقدير غلبتهم، ليستمروا على دينهم، فلا يتبعوا موسى]، وما ذكره المُفسِّرُ مُحْتَمَلٌ، وَهُوَ التَّشْوِيقُ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ لِلْأَمْرِ، يَعْنِي: يَأْمُرُونَ النَّاسَ أَنْ يَجْتَمِعُوا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَوْلُهُمْ: ﴿ إِنْ كَانُوا هُمُ الْفٰلِغِينَ ﴾ أَلَا يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُمْ شَاكُونَ فِي انْتِصَارِ السَّحَرَةِ عَلَى مُوسَى؟

فَالْجَوَابُ: يُمْكِنُ هَذَا أَنَّهُمْ شَاكُونَ، فَهَذَا مِنْ بَابِ التَّحَرُّزِ، فَمَا قَالُوا: لَعَلْنَا نَبْعُ الْغَالِبِ، أَوْ الْحَقِّ، ثُمَّ إِنَّهُ يَحْتَمِلُ قَوْلَهُمْ: ﴿ إِنْ كَانُوا هُمُ الْفٰلِغِينَ ﴾ أَنْ هَذَا مِنْ بَابِ الشَّرْطِ الْمُبِينِ الْوَاقِعِ؛ لِأَنَّهُمْ سَيُغْلِبُونَ.

وقال: ﴿لَعَلْنَا نَنْبِغُ السَّحْرَةَ﴾، (لَعَلْنَا) يعني مَعَشَرِ الأقباط جميعًا ﴿نَنْبِغُ السَّحْرَةَ﴾ دون مُوسَى، لكن بشرط: ﴿إِنْ كَانُوا هُمْ الْفَالِغِينَ﴾، وهذا الشرطُ فِي ظَنِّهِمْ أَنَّهُ مُتَّحَقٌّ، وَأَنَّ السَّحْرَةَ سَوْفَ يَغْلِبُونَ.

وفي قولهم: ﴿لَعَلْنَا نَنْبِغُ السَّحْرَةَ﴾ من إظهار التعصب ما لا يَحْفَى؛ لِأَنَّ الواجبَ عليهم أن يقولوا: لَعَلْنَا نَتَّبِعُ الغالبَ، لا أن يقولوا: ﴿لَعَلْنَا نَنْبِغُ السَّحْرَةَ﴾، فقد يكونُ الحَقُّ مع مُوسَى وقد يكون الحَقُّ مع السَّحْرَةَ، فلو وُفِّقوا لقالوا: لَعَلْنَا نَتَّبِعُ الغالبَ أو الحَقَّ، ولكنهم قالوا: ﴿لَعَلْنَا نَنْبِغُ السَّحْرَةَ﴾.

ثم استدرکوا فقالوا: ﴿إِنْ كَانُوا هُمْ الْفَالِغِينَ﴾ وهذا ما يُسَمَّى بـ(التحفظ) - في لغة العصر - يعني: كَأَنَّهُمْ حَكَمُوا بِأَنَّ الغلبةَ للسَّحْرَةَ، لكن مع تحفظٍ لِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ كَانُوا هُمْ الْفَالِغِينَ﴾.

وفي قولهم: ﴿الْفَالِغِينَ﴾ إشكال من الناحية الإعرابية؛ لأن: (هُم) ضمير، والخبر يكون مرفوعًا، فلماذا نُصِبَ؟

نقول: (هُم) هنا ضميرٌ فَضْلٌ لَيْسَ لها محلٌّ من الإعرابِ، و(الْفَالِغِينَ) خبر (كَانَ)، ومعلوم أن خبر (كَانَ) يكون منصوبًا. وضميرُ الفَصلِ له فوائدُ:

أولاً: تمييزُ الصِّفَةِ عنِ الخَبَرِ، مثل أن تقول: زيدُ الفاضلُ، وزيدٌ هُوَ الفاضلُ، فإذا قلت: زيدُ الفاضلُ، قد يكون (الفاضل) نعتًا والخبرُ لم يأتِ، أمَّا إذا قلت: هُوَ الفاضلُ فقد حَدَّدنا أن (الفاضل) خبرٌ.

ثانيًا: وكذلك من فوائده حَضْرُ المبتدأ بالخبرِ، (زيدٌ هُوَ الفاضل) يعني:

لا غَيْرُهُ.

ثالثاً: التأكيد، يعني أنك إذا قلت: زيد هو الفاضل، كأنك تؤكد ذلك: أنه الفاضل دون غيره.

قال: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَبِّعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ الاستفهام للحث على الاجتماع، قوله: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ يعني: اجتمعوا كترغيب وحث [والترجي على تقدير غلبتهم]، الترجي في قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَبِّعُ السَّحَرَةَ﴾ [ليستمروا على دينهم فلا يتبعوا موسى].

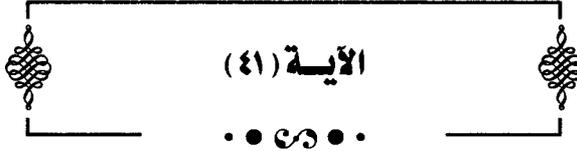
وهل هؤلاء الذين ذهبوا يجمعون الناس هل فيهم نوع من الإنصاف؟

قالوا: ﴿إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ فيه نوع من الإنصاف؛ لأنه ﴿إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ اتبعناهم، وإلا فلا. لكن تقديم أتباع السحرة وترجي اتباعهم هذا هو الذي فيه نوع من التعصب، وكان عليهم ألا يذكروا السحرة إطلاقاً، وأن يقولوا: لَعَلَّنَا نَبِّعُ الْغَالِبِينَ.

فإن قال قائل: في قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَبِّعُ السَّحَرَةَ﴾ هل يمكن أن تكون للتعليل؟

فالجواب: يُمكن، لكن للترجي أئین.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ

الْغَالِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤١].

•••••

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ ﴾ يعني: لِفِرْعَوْنَ ﴿ قَالُوا ﴾ له: ﴿ أَإِنَّا ﴾ قَالَ: [بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية، وإدخال ألفٍ بينهما على الوجهين]، التحقيق والتسهيل، ﴿ أَإِنَّا ﴾ هَذَا تَحْقِيقٌ، وتسهيل الثانية (أَيْنَ)، وإدخال الألف بينهما على الوجهين: (أَيْنَا)، (أَيْنَا)، فتكون القراءة عَلَى هَذَا أَرْبَعًا^(١).

قال: ﴿ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ هَذِهِ اللَّامُ لِلتَّوَكِيدِ: ﴿ لَأَجْرًا ﴾، والمراد بالأجرِ هنا المَثُوبَةُ الدُّنْيَوِيَّةُ والقُرْبَى والزُّلْفَى منه، أو نقول: المَثُوبَةُ الدُّنْيَوِيَّةُ فقط، لكن هُوَ زَادَهُمُ القُرْبَى والزُّلْفَى منه: ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾، وهنا يقول: ﴿ أَإِنَّا لَنَا لَأَجْرًا ﴾ وقد يُقال: كيف دخلتْ لَامُ التَّوَكِيدِ عَلَى الاستِفْهَامِ والاستِفْهَامِ إِلَى الآنَ ما وقع بعدُ، فكيف يُوَكِّدُ؟

ولهذا نظائر في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ يَاسِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠]، فكيف يَصِحُّ التَّوَكِيدُ مَعَ الاستِفْهَامِ والمستِفْهَمِ يسأل فيالَى الآنَ ما تَبَيَّنَ له الأمرُ أَنَّهُ واقع، فكيف يُوَكِّدُ؟

(١) السبعة في القراءات (ص: ٢٨٩).

فيقال: إن التأكيد هنا يُراد به تأكيد الجواب، كأنه يقول: أتؤكد لنا الأجر؟ أتؤكد لنا أنك أنت يوسف؟ أمّا بالنسبة للسائل فلا يمكن التوكيد؛ لأنه سائل مُستفهم، ولا جمع بين الاستفهام الذي هو جهل وبين التوكيد الذي هو علم مُحقق.

فعليه نقول: الاستفهام هنا على تقدير: أتؤكد لنا أن لنا لأجرًا إن كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ؟ الجواب: قَالَ: نَعَمْ.

فهؤلاء يريدون الراكب قبل المركبة، يَبْغُونَ الأجر، مثلما يقول بعض الناس إذا طلب منه أن يكون إمامًا في مسجد: هل هناك شيء؟ أو مؤذنًا، أو ما أشبه ذلك، فكذلك هؤلاء؛ لأنَّ المقام مقام انتصار حق على زعمهم، ومع ذلك قالوا: إن انتصرنا على الباطل - كما يزعمون - بالحق أين لنا لأجرًا؟ فقال لهم: نَعَمْ؛ يعني: لكم أجر.

و(نَعَمْ) حرف جواب، ويُقال: إن الجواب سؤال مُعادٍ، فالحرف نائبٌ عن السؤال، يعني: نعم لكم أجر، ولهذا في هذه القاعدة، وهو أن حرف الجواب إعادة لسؤال، لو قيل للرجل: أطلقت امرأتك؟ فقال: نعم، وما قال: هي طالق، قال: نعم، فهل تطلق؟

نقول: تطلق، لأنَّ حرف الجواب إعادة للسؤال، كذلك أيضًا لو قيل له: أقبِلت النكاح؟ فقال: نعم، انعقد النكاح. ولو قيل له: أعتقت عبدك؟ فقال: نعم، عتق، أوقف بيتك؟ قال: نعم. فلو أراد الكذب في مثل هذه الأحوال، إن قلنا: أوقف بيتك؟ قال: نعم، وهو يكذب، أطلقت امرأتك؟ قال: نعم، وهو يكذب، فهل يقع الطلاق والوقف والعتق، وما أشبه ذلك، أم لا يقع؟

نقول: أمّا الطلاق ففيه تفصيلٌ، وحقُّ الغيرِ يَقَعُ؛ لِأَنَّهُ يُؤْخَذُ بِالظَّاهِرِ، فيُقَالُ: هَذَا يَدِينُ، حُكْمًا لَا يُقْبَلُ، وَأَمَّا فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ إِذَا لَمْ يُحَاكَمْ فَإِنَّهُ يُقْبَلُ، يَعْنِي: لَوْ أَنَّ زَوْجَتَهُ وَتَقَتْ بِهِ وَقَالَتْ: إِنَّ الرَّجُلَ لَسَا قِيلَ لَهُ: أَطَلَقْتَ امْرَأَتَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَرَادَ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى صَاحِبِهِ، فَإِنَّمَا تَبَقِيَ مَعَهُ؛ لِأَنَّ مَا ادَّعَاهُ مُحْتَمَلٌ، وَإِذَا كَانَ مُحْتَمَلًا وَلَمْ يَنَازِعْ فِيهِ مَنْ لَهُ الْحَقُّ وَصَدَّقَهُ؛ فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْهُ.

ف(نعم) حرفٌ جَوَابٌ لُغَةً وَعُرْفًا، وَلَا تَأْتِي فِي اللُّغَةِ وَلَا فِي الْعُرْفِ اسْتِفْهَامِيَّةً، إِلَّا إِذَا قُرِنَتْ بِشَيْءٍ، مِثْلُ: نَعَمْ مَاذَا تَقُولُ؟ يَعْنِي: كَأَنَّهُ يَقُولُ: نَعَمْ هَاتِ مَا عِنْدَكَ، يَعْنِي: يَسْتَجِيبُ.

فَإِنْ قِيلَ: هُمْ يُسَمُّونَ الْعَالِمَ عِنْدَهُمْ سَاحِرًا؛ اسْتِدْلَالًا بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعَى لَنَا رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٤٩]، أَوْ أَنَّهُ اتُّهِمَ لِمُوسَى بِأَنَّهُ سَاحِرٌ؟

فالجواب: لا، هَذَا غَيْرُ صَاحِحٍ، فَهَمْ مُعْتَقِدُونَ أَنَّهُ سَاحِرٌ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعَى لَنَا رَبِّكَ﴾ مِنْ بَابِ التَّهْكُمِ.



الآية (٤٢)

••٤٢••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٢].

••٤٢••

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا ﴾ أَي: حِينْتِذِ]، وَلَكِنْ هَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، فَتَفْسِيرُ (إِذَا) بِ(حِينْتِذِ) غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ (حِينْتِذِ) لِلْمَاضِي، لَكِنْ (إِذَا) أَي: إِذَا غَلِبْتُمُوهُ إِذَا كَتَمَ الْغَالِبِينَ ﴿ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ يَعْنِي: لَدَيَّ، فَكَأَنَّهُ زَادَهُمْ عَلَى مَا طَلَبُوا الْقُرْبَى مِنْهُ، وَإِنَّمَا وَعَدَهُمْ بِذَلِكَ تَشْجِيْعًا لَهُمْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، فَأَجَابَهُمْ عَلَى مَا سَأَلُوا وَزِيَادَةً؛ تَشْجِيْعًا لَهُمْ.

والتنوين في (إِذَا) عِوَضٌ عَنِ جَمْعٍ، يَعْنِي: إِذَا غَلِبْتُمُوهُ.

وقوله: ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ اللام للتوكيد.

وقال: ﴿ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ سَيَجْعَلُهُمْ فِي حَاشِيَتِهِ؛ لِأَنَّهُ مَا قَالَ: لِأَقْرَبِنَكُمْ، قَالَ: ﴿ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ يَعْنِي: إِنَّكُمْ تَكُونُونَ فِي جَمَلَةِ الْحَاشِيَةِ الَّذِينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيَّ.

••❁••

الآية (٤٣)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٣].

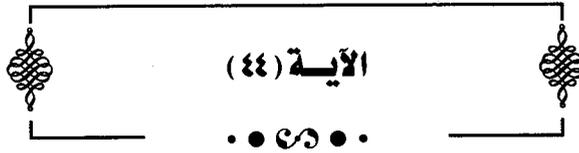
• • ❦ • •

قَالَ الْمَفْسَّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ ﴾ - بعدما قالوا له: ﴿إِنَّمَا أَن تُلْقِي وَإِنَّمَا أَن نَّكُونُ نَحْنُ الْمُلقِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٥]-: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾، فالأمر فيه للإذن بتقديم إلقائهم توصيلاً به إلى إظهار الحق.

قوله: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ مثلما قال المفسر: بعد أن قالوا: ﴿إِنَّمَا أَن تُلْقِي وَإِنَّمَا أَن نَّكُونُ نَحْنُ الْمُلقِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٥]، قَالَ: ﴿أَلْقُوا﴾، هذا الأمر يقول المفسر: إنه للإذن.

ويحتمل أن يكون للتحدي، ولهذا قَالَ: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾. و(ما) لصلة العموم، يعني: ألقوا ما تريدون مما تُلْقُونَهُ، فأنا لا أَكثَرْتُ بِهِ ولا أَهْتَمُّ بِهِ، ويدلُّ عَلَى ذلك أَنَّهُ طَلَبَ أَن يَكُونُوا هُم المُلْقِينَ؛ لِأَجْلِ أَن يَكُونَ هُوَ الغالبَ بعدهم؛ لِأَنَّهُ لو ألقى عصاهُ فصارَتْ ثعباناً مُبِيناً فماذا تَصْنَعُ وليسَ أمامها شيءٌ؟

فأمرهم أَن يُلقُوا هُم أولاً؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ واثقٌ بوعدِ اللَّهِ، فهو يَنْطِقُ من مَنْطِقِ القُوَّةِ، يقول: أنا لا أَكثَرْتُ بِكُمْ، أَلْقُوا ما تريدون: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾، والإبهامُ هنا لِلْمُبَالَغَةِ، يعني: ألقوا الَّذِي تريدون مما تُلْقُونَهُ، وفي قوله: ﴿مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ بِالْجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مَهْمَا كَانُوا مَتَّصِفِينَ بِهِ من الإلقاء؛ فَإِنَّهُ لا يَهْتَمُّ بِهِ.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
الْفَالِقُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤].



يقول: ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ﴾ أَعُوذُ بِاللَّهِ ﴿ إِنَّا لَنَحْنُ
الْفَالِقُونَ ﴾. ﴿ حِبَالَهُمْ ﴾ يعني: الَّتِي يَسْحَرُونَ النَّاسَ بِهَا، ﴿ وَعَصِيَّتَهُمْ ﴾ الَّتِي يَسْحَرُونَ
النَّاسَ بِهَا، وَهُمْ يُلْقَوْنَ هَذِهِ الْحِبَالَ وَهَذِهِ الْعِصِيَّ فَتَكُونُ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ثُعَابِينَ
وَحَيَّاتٍ، وَأَيْضًا تَظْهَرُ بِمَظْهَرِ الْكثْرَةِ وَتَمَلَأُ الْوَادِيَّ، وَهِيَ حَقِيقَةٌ لَيْسَتْ ثُعَابِينَ
وَحَيَّاتٍ، إِذَنْ السَّحْرُ هُوَ حَقِيقَةٌ، وَلَيْسَ خَيَالًا.

والحبال: جمعُ حبلٍ، والعصي: جمعُ عصا، وتلك الحبال والعصيُّ يُلقونها
ليُوهِّمُوا النَّاسَ بِسِحْرِهِمْ أَنَّهَا حَيَّاتٌ وَثُعَابِينَ، حَتَّى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَافَ
وَأَوْجَسَ مِنْ هَذَا خِيفَةً لَمَّا رَأَى هَذِهِ الْحَيَّاتِ وَالثُّعَابِينَ تُقْبِلُ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ اللَّهُ قَالَ لَهُ
فِي تِلْكَ السَّاعَةِ: ﴿ فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ (١٨) ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ [طه: ٦٨-٦٩]،
وقالوا لَمَّا أَلْقَوْهَا: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْفَالِقُونَ ﴾ والباءُ لِلسَّبِيَّةِ، وَعِزَّةُ فِرْعَوْنَ:
عَلْبَتُهُ وَقَهْرُهُ، وَفِي تَقْدِيمِهِمْ هُنَا لِلْعِزَّةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَعْتَرِضُونَ بغيرِهِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَرُونَ
أَنَّهُمْ يَنْتَصِرُونَ بِسِوَى عِزَّتِهِ.

والسَّحْرُ حَقِيقَةٌ، لَكِنْ بِاعْتِبَارِ مَا سَحَّرَ بِهِ خَيَالًا، حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ أَثَّرَ فِي الرُّؤْيَةِ،

وأثر بدلاً من أن يرى الإنسان هذه الحبال حبالاً وعصياً صار يراها ثعابين وحيات.
إذن فهذه حقيقة، لكن بالنسبة لمن يراه فليس متغيراً عن حقيقته، فالحبالُ
حبالٌ، والعصيّ عصيّ، ولو رآها من لم يصل إليه السحر لراها حقيقة: حبالاً وعصياً.

فإن قال قائل: هل يقتل العائن؟

فالجواب: لا، الصحيح أنه لا يقتل إلا إذا تعمّد القتل، إذا قال: أنا أقتل

فلاناً.

فإذا أكد يُجس، وهو يجب حسبه على كل حال، مثلما قال أهل العلم، ولكن
الغريب أن هذا مشهورٌ في الزمن السابق بين الناس، والولاية أقوياء والأمراء
أقوى مركزاً من اليوم، حتى أمراء البلدان، والقضاة موجودون وكلامُ الفقهاء
أيضاً الحنابلة، فالمذهب أنه يجب أن يُجس هؤلاء، ولكن مع ذلك ما في عُمرنا
سمعنا أنهم حُبسوا، وإلا لو حُبسوا لقلَّ الشرُّ.

وأما إذا كان ما قصد قتله ولكن مات، فهذا خطأ، يَرْمُونَهُ بِالذِّبَةِ، عَلَى أَنْ
بعض العلماء يقولون: لا يُقتل حتى وإن كان تعمّد قتله؛ لأنَّ هذا السلاح سلاح
خَفِيٍّ باطنٍ، وبعضهم قال: يقتل بمثله بإيجاد واحد يحسده قال تعالى: ﴿وَإِنْ
عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، لكن نخاف أن يُشجّع هذا
الذين يصيبون الناس بالعين.

فإن قال قائل: فيم يعالج الإنسان إذا أُصيب بعين؟

فالجواب: بالقراءة، ويعالج بالحسّ معالجة حسيّة، فيؤتى بالعائن ويتوضأ،
ويؤخذ ما يتناثر منه، ويسقى على هذا، ويرش به رأسه من فوق على جهة ظهره،

ويأذن الله يَبْرَأُ. وعند النَّاسِ شَيْءٌ لَيْسَ مَعْرُوفًا فِي السَّنَةِ لَكِنَّهُ مُجْرَبٌ، أَنَّهُ يَأْخُذُ مِنْ ثِيَابِهِ الَّتِي تَحْمَلُ مِنْ عِرْقِهِ إِنْ كَانَتْ طَاقِيَةً أَوْ عُتْرَةً أَوْ (فَنِيلَةً) أَوْ سُرْوَالًا، وَيَغْسِلُ، وَيُؤْخِذُ غَسَالَتَهُ وَيَشْرِبُهُ الْمَصَابُ، وَيَتَّبَعُ.

وَالْعَيْنُ لَا تَأْتِي إِلَّا عَلَى عَقْلَةٍ، وَأَكْثَرُ مَا تَأْتِي أَيْضًا مَنْ يَخَافُ مِنْهَا.

إِذْنٌ فَالْعِلَاجُ أَنَّهُ يَتَوَضَّأُ وَيُرْسِ عَلى بَدَنِهِ؛ عَلى الأَعْضَاءِ زِيَادَةً عَلى الوَضُوءِ. وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الإِنْسَانَ العَائِنَ إِذَا صَلَّى عَلَيْهِ صَلَاةُ الجَنَازَةِ أَنَّهُ يَكْفُرُ، وَلَكِنْ هَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

وَالْعَيْنُ مَنَشُؤُهَا الحَسَدُ، وَهَذَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]: العائن إذا عان.

الله يرحمه شيخنا، كَانَ يَدْرُسُنَا بِاللَّيْلِ بَيْنَ العِشَاءِ، وَمَرَّتِ الطَّيُورُ هَذِهِ الَّتِي تَصِيحُ بِاللَّيْلِ، وَأَطْنُهَا يَسْمُونَهَا البَطَّ، وَرَفَعَتْ رَأْسِي، فَقَالَ هُوَ: إِنْ صَيَدَ العِلْمُ أَفْضَلُ - أَوْ خَيْرٌ - مِنْ صَيْدِ الطَّيُورِ! وَهُوَ صَحِيحٌ مَا فِيهِ شَكٌّ، وَأَنَا أَجْزِمُ جَزْمًا أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي يَلْتَفِتُ يَقِينًا (بِروح)، وَهُوَ مَا يَلْتَفِتُ إِلَّا مُؤْتَمِّرًا بِأَمْرِ قَلْبِهِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَّا بِهَذَا.

وقولهم: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْعَلِيلُونَ﴾ أَكْثَرُهَا بِ(إِنَّ) وَاللَّامِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ تِلْكَ السَّاعَةَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ أَقْوَى مِنْ فِرْعَوْنَ، وَأَنَّهُمْ بِعِزَّتِهِ سَيَغْلِبُونَ لَا مُحَالَةً، وَهَذَا أَكْثَرُهَا بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْعَلِيلُونَ﴾، وَأَتَوْا بِالْجُمْلَةِ الإِسْمِيَّةِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ هَذِهِ الغَلْبَةُ سَتَدُومُ وَتَسْتَمِرُّ؛ لِأَنَّ الجُمْلَةَ الإِسْمِيَّةَ تَدُلُّ عَلَى الثَّبُوتِ وَالاستقرارِ وَالدوامِ.

وفي قولهم: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ﴾ إِذَا أَعْرَبْنَا (نحن) ضَمِيرَ فَصْلِ فِيهِ مَا يُسْتَفَادُ مِنْ

ضميرِ الفصلِ، وَهُوَ التَّكْيِذُ والحَصْرُ والفِصْلُ، يعني: إنا لنحنُ الغالبونَ دونَ غيرنا
بهذه العزة العظيمة، الَّتِي كانوا يَعْتَقِدُونَهَا حينذاك.

ومن فوائد الآية:

أن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما قَالَ: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ،
واستعانوا بغيرِ مُعِينٍ؛ فقالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِمُونَ﴾.



الآية (٤٥)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٥].

•••••

قال الله تعالى: ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ ﴾ ألقى موسى عصاه بوحى خاص من الله، كما في سورة طه: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ [طه: ٦٨-٦٩]، فألقى موسى عصاه، ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [بحذف إحدى التائين من الأصل، تَبْتَلِعُ ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾]: (تَلْقَفُ) ^(١) ولم يُشِرْ المُفَسِّرُ إِلَى الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ (تَلْقَفُ)، أَمَا قِرَاءَةٌ: (تَلْقَفُ) فليس فيها حذف إحدى التائين، وأما (تَلْقَفُ) ففيها حذف إحدى التائين، وأصله: (تَتَلْقَفُ)، ومعناها واحد، يعني: تَبْتَلِعُ، لكن (تَلْقَفُ) تفيد معنى زائداً على (تَلْقَفُ)، فهي تفيد التَّبَعُ، يعني: كأنها جَعَلَتْ تَتَّبِعُ حَتَّى أَفْتَتَهَا كُلَّهَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْحِبَالُ أَمَامَهَا كَثِيرَةً فَلَا تَتَّبِعُهَا، فَأَيُّ جِهَةٍ تَأْخُذُ تَلْقَفُ، لَكِنْ لَمَّا فَنِيَتْ وَقَلَّتْ صَارَتْ حَبَلًا هُنَا وَحَبَلًا هُنَا، فَهِيَ تَتَلَقَّفُ: تتبعه.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ يَقْلِبُونَهُ بِتَمْوِيهِمْ، فَيُحَيِّلُونَ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَهُمْ أَمَّا حَيَاتٌ تَسْعَى]، ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ الإِفْكُ: الكَذِبُ، وَهَذَا كَذِبٌ بِالْفِعْلِ وَلَيْسَ بِالْقَوْلِ، فَهَذَا كَذِبٌ فِعْلِيٌّ؛ لِأَنَّ الْكُذْبَ الْقَوْلِيَّ يَكُونُ بِاللِّسَانِ، وَهُوَ إِخْبَارٌ

(١) السبعة في القراءات ص ٢٩٠.

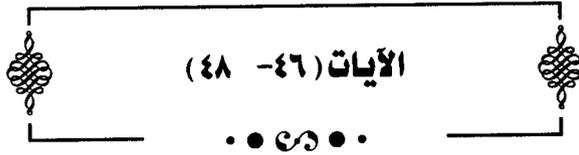
الإنسان بما لا يوافق الواقع، والكذبُ الفعليُّ يكون بالفعلِ، وهو إظهارُ الإنسانِ الفعلَ بخلافِ الحقيقتِ، فهو لاءٌ أظهرُوا الحبالَ والعِصِيَّ حَيَّاتٍ، لكنها ليست كذلك، ليست حياتٍ، وإنما هي حبالٌ وعصيٌّ.

وقد زعم بعض العلماء أن السَّحْرَ لا حقيقةَ له، واستدلُّوا بقوله: ﴿يَجْعَلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦]، والصَّوَابُ أن له حقيقة، وحقيقتهُ هَذَا التخييلُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل يُوَثِّرُ السَّحْرُ؟

فالجواب: نعم، يُوَثِّرُ فِي التَّصَوُّرِ، وفي الإحساسِ، وما أشبه ذلك، أمَّا أن يُوَثِّرُ بقلبِ الحقائقِ، فلا؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ صِفَاتِ الخَالِقِ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمْنَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٨].

• • • • •

لَمَّا رَأَى السَّحَرَةَ، وَهَمَّ أَعْلَمُ النَّاسِ بِالسَّحْرِ وَأَثَارِهِ وَتَأثيرِهِ، لَمَّا رَأَوْا مَا تَفَعَّلَهُ هَذِهِ الْعَصَا الَّتِي وَضَعَهَا مِنْ يَدِهِ وَهَمَّ يُشَاهِدُونَ، عَرَفُوا أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ بِسِحْرٍ؛ لِأَنَّ سِحْرَهُمْ أَقْوَى مَا يَكُونُ مِنَ السَّحْرِ وَأَكْثَرَهُ.

وَكَانَ السَّحْرُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَيْضًا شَائِعًا، وَهَذَا جَاءَتْ آيَةُ مُوسَى بِشَيْءٍ يُشَبِّهُهُ؛ بِنَوْعٍ مِنْهُ، وَلَكِنْ هُمْ عَرَفُوا أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِسِحْرٍ، وَأَنَّهُ فَوْقَ طَاقَةِ السَّحَرَةِ، فَمَاذَا حَصَلَ؟ ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمْنَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾.

قال: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ﴾ ولم يقل: فسجد السحرة، كأن هذا السجود أمر اضطراري؛ لقوة ما دفعهم إليه، يعني: لا كأنه أمر اختياري، لكن لقوة الدافع صار كأنهم ألقوا إلقاءً بدون اختيار.

و﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ﴾ (أل) للعموم، يعني: جميع السحرة مع مهارتهم ومعرفتهم ألقوا ساجدين لله، بدليل قولهم: ﴿ قَالُوا ءَأَمْنَا ﴾، وليسوا ساجدين تعظيمًا لعصا موسى؛ لِأَنَّ تَصْرِيحَهُمْ بِالْإِيَابِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ سَاجِدُونَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قَالُوا ءَأَمْنَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ هذا البدل من أحسن ما يكون بعد العموم

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لِأَنَّ مُوسَى كَانَ يَقُولُ: إِنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالُوا: رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَكَانَ فِرْعَوْنُ أَيْضًا يَقُولُ: إِنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَأَخْرَجُوا رَبُوبِيَّةَ فِرْعَوْنَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ وَإِنْ كَانَ يَدْعِي أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، لَكِنَّهُ لَيْسَ رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ؛ لِأَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ يُنْكِرَانِ رَبُوبِيَّتَهُ، فَلِذَلِكَ كَانَ هَذَا الْبَدَلُ مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ فِي بَيَانِ الْمُرَادِ.

وإتيانهم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ دُونَ أَنْ يَأْتُوا مَبَاشِرَةً بِرَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُمْ آمَنُوا بِرِسَالَةِ مُوسَى؛ لِأَنَّ مُوسَى قَالَ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، مَا قَالَ: أَنَا رَسُولُ رَبِّي، قَالَ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هَذِهِ هِيَ فَائِدَةُ الْبَدَلِ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، وَالتَّرْتِيبُ هُنَا بَيْنَ مُوسَى وَهَارُونَ تَرْتِيبٌ يَطَابِقُ الْوَاقِعَ؛ فَإِنَّ مَرْتَبَةَ مُوسَى أَعْلَى مِنْ مَرْتَبَةِ هَارُونَ؛ لِأَنَّ مُوسَى مِنْ أَوْلِي الْعِزْمِ.

وَلَكِنْ التَّرْتِيبُ اخْتَلَفَ فِي سُورَةِ طه: ﴿رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]، مِنْ أَجْلِ مِرَاعَاةِ الْفَوَاصِلِ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَكُلَّ كَلَامٍ فَصِيحٍ قَدْ تُرَاعَى فِيهِ الْفَوَاصِلُ وَالنَّغْمَاتُ، لَكِنْ فِي الْأَمْرِ الْمَعْلُومِ، فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مُوسَى أَفْضَلُ مِنْ هَارُونَ، وَتَرْتِيبُهُ فِي الذِّكْرِ لَا أَحَدٌ يَتَوَهَّمُ مِنْهُ أَنَّ هَارُونَ أَعْلَى مِنْهُ مَرْتَبَةً، فَالتَّقْدِيمُ لَهُ غَايَةٌ، وَهَذَا قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ»^(١).

يَقُولُ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَا شَاهَدُوهُ مِنْ الْعَصَا لَا يَتَأْتَى بِالسَّحْرِ]، فَلَمَّا آمَنُوا هَذَا الْإِيْمَانَ أَعْلَنُوهُ إِعْلَانًا غَيْرَ مُبَالِغِينَ بِمَا يَنْتُجُ وَرَاءَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْإِيْمَانَ الصَّادِقَ يَقْضِي عَلَى كُلِّ عَاطْفِيَّةٍ، فِعَاطْفَةٌ حُبِّ النَّفْسِ أَمْرٌ جَبَلِيٌّ فِطْرِيٌّ، لَكِنْ الْإِيْمَانَ يَقْضِي عَلَيْهَا، وَهَذَا الْإِنْسَانُ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ حِينَمَا

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ حُجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمُ (١٢١٨).

يُخْرِجُ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ سِيوفَ الْقَوْمِ قَدْ تَبَثَّرُ رَقَبَتَهُ، لَكِنَّهُ لَا يَبَالِي، وَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ يَنْسَى الْعَاطِفَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَقَارِبِهِ، حَتَّىٰ إِنْ الرَّجُلُ لَيَقْتُلُ أَبَاهُ إِذَا كَانَ مِنَ الْكُفَّارِ.

فهنا قالوا معلنين هذا الإعلان غير مبالين بما ينتج، وفي ظني أنهم سيعلمون أنه سينتج عن ذلك أمر عظيم؛ لأن فرعون جاء بهم كسلاح له، فإذا خانوه في هذا المجتمع العظيم، وهو يوم الزينة، فسينتج عن هذا العقوبات، إلا أنهم غير مبالين بهذا؛ لما أشرنا إليه قبل.

فائدة: فِي سُورَةِ طه قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٧٢﴾ إِنَّمَا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿طه: ٧٢-٧٤﴾، قوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ تَبَعٌ مِنْ كَلَامِهِمْ هُمْ، لَكِنْ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ قَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِهِمْ أَوْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ.

فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: أَنَّ الْحَقَّ إِذَا تَبَيَّنَ كَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِهِ مَنْ يَعْرِفُ هَذَا الْحَقَّ؛ فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلَ مَنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِسِحْرٍ؛ هُمُ السَّحَرَةُ الَّذِينَ عَرَفُوا السِّحْرَ وَبَاطِلَهُ، فَالَّذِي يَعْرِفُ الْحَقَّ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُ الْبَاطِلَ، أَمَا مَنْ لَا يَعْرِفُ الْبَاطِلَ فَإِنَّهُ قَدْ تَلْتَبَسَ عَلَيْهِ الْأُمُورُ، وَلِهَذَا قِيلَ: «بِضْذِهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ»^(١).

(١) ديوان المتنبي (١/٢٢).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مُبَادَرَةُ السَّحَرَةِ إِلَى الْإِيمَانِ، حَتَّىٰ إِنْ الْإِيمَانَ كَانَ كَأَنَّهُ أَمْرٌ اضْطِرَّارِيٌّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾؛ لِقُوَّةِ مَا شَاهَدُوا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي لَمْ يَتَمَكَّنُوا مَعَهَا أَنْ يَتَأَخَّرُوا، فَلَمَّا رَأَوْا الْآيَاتِ مَا أَمَكَّنَهُمْ أَنْ يَتَأَخَّرُوا عَنِ الْإِيمَانِ، فَكَأَنَّهُمْ أُلْقُوا اضْطِرَّارًا.



الآيتان (٤٩، ٥٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كَالَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ^{٤٩} لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَنَّاكُمْ جَمِيعًا ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرٌ لَنَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٩-٥٠].

• • • • •

﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ ﴾ هَذَا قَوْلُ فِرْعَوْنَ، وَكَلِمَةُ ﴿ قَالَ ﴾ أَتَتْ بِالْفَصْلِ وَلَيْسَ بِالْوَصْلِ؛ لِأَنَّ الْوَصْلَ هُوَ الْعَطْفُ بِالْوَاوِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ مَفْصُولَةٌ لَكِنْ تَدُلُّ عَلَى وَقُوعِ هَذَا الشَّيْءِ مَبَاشَرَةً كَأَنَّهُ جَوَابٌ عَنِ فِعْلِهِمْ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ، وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلْفًا ﴿ لَهُ ﴾ لِمُوسَى ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ ﴾ أَنَا ﴿ لَكُمْ ﴾]، هَذَا أَمْرٌ لَا يَكُونُ عَادَةً مِنْ هَوَلاءٍ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ أَنْ يُؤْمِنَ أَحَدٌ لِعَدُوِّ فِرْعَوْنَ بِدُونِ إِذْنِهِ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ سَيَّطَرَ عَلَيْهِمْ سَيِّطْرَةً تَامَّةً، وَأَتَمَّهُمْ لَا يَتَصَرَّفُونَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ. وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ.

فَإِنْ قِيلَ: فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿ ءَامَنْتُمْ بِهِ ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وَهَذَا: ﴿ ءَامَنْتُمْ لَهُ ﴾؟

فَالْجَوَابُ: فِي الْأَصْلِ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ: آمَنَ بِهِ: أَقْرَبُ بِهِ وَاعْتَرَفَ الْإِيمَانَ الْكَامِلَ، وَآمَنَ لَهُ: مُضْمَنَةٌ مَعْنَى انْقَادٍ. فَإِذَا جُمِعَتْ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ هُنَا صَارَتْ أَبْلَغَ، يَعْنِي:

كَأَنَّهُمْ آمَنُوا إِيْمَانًا بِهِ، ثُمَّ آمَنُوا لَهُ فَاِنْقَادُوا لَهُ.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ انظر التمويه، هذا غريب، فهذا في الحقيقة مظهر ضعيف منه، كيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر وهم قد حُشِرُوا من المدائن وليسوا مع موسى في مدينته، وكيف يُقال: إنه علمهم، بل إنهم في مدائن متباعدة، وكيف يمكن أن يُقال: إنه كبيرهم الذي علمهم السحر وهم قد وضعوا حباهم وعصيتهم ليقضوا عليه؟! فإن من علمهم السحر لا بد أن يخافوا منه، وكيف يُقال: إنه علمهم السحر وهم قد استعزوا بعزة فرعون ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾، وهم يعلمون أن فرعون خصم لموسى، لكن هذا من باب التمويه على قومه، كما قال الله فيهم: ﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، يعني: عقولهم بالنسبة لفرعون لا شيء، فهم خفيقو العقول والتفكير، ولا يعرفون شيئاً سوى فرعون، أَنَّهُ إِيْمَانُهُمْ!

قال: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وقلنا: إن هذا باطل من الأوجه التي ذكرنا، وإنه لا يُمكن، لكن هذا مظهر ضعيف من فرعون بلا شك، يعني: كأنه يقول الآن: أنتم اجتمعتم علي، وتحاشدتم علي، أنتم ومعلمكم، ثم لجأ إلى التهديد كعادته قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينالكم مني ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾].

قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد بأمر مُبهم، والإجمال ثم التفصيل من فوائده تشوق المخاطب إلى تبيين هذا المُجمل، وإذا كان وعيدا فإنه يتشوق ذلك لكنه يكون خائفاً جداً؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي مَا هَذَا الْمَبْهُمُ الَّذِي وَعَدَ بِهِ، بَيْنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَأَقْطَعَنَّ﴾ واللام واقعة في جواب القسم، بدليل أَنَّهُ مُؤَكَّد ﴿لَأَقْطَعَنَّ﴾.

وقوله: ﴿مِنْ خَلْفٍ﴾ يعني: مُتَخَالِفَةً؛ إذا قطع اليد اليمنى قطع الرجل اليسرى، وإذا قطع اليد اليسرى قطع الرجل اليمنى، وليس معنى: ﴿مِنْ خَلْفٍ﴾ أي أُخَالِفُ بينكم فمنكم مَنْ أَقَطَّعَ يديه ومنكم من أَقَطَّعَ رجليه، بل هَذَا واقِعٌ عَلَى مَحَلٍّ واحدٍ، فالخِلافُ فِي مَحَلٍّ واحدٍ، يعني: كل واحدٍ مِنْكُمْ أَقَطَّعَ يَدَهُ ورجله متخالفتين، وهذا فِي شَرِيعَتِنَا حَدَّ قُطَاعِ الطَّرِيقِ، يعني: أَحَدٌ ما يُحَدُّ بِهِ قُطَاعِ الطَّرِيقِ هُوَ هَذَا؛ أَنْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ.

قال تعالى: ﴿وَأَصْلَبْتَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: بعد أن أفعلَ هَذَا لِأَصْلَبْتَكُمْ أَجْمَعِينَ، يعني: كما قال فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ [طه: ٧١]، وهنا يَشِيرُ إِلَى أَنْ فِي مِضْرٍ نَخْلًا، فهو وَعَدَهُمْ بِذَلِكَ. وَالصَّلْبُ: الرِّبْطُ، وهل يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ المِصْلُوبُ مَدُودَ اليَدِ أَوْ لا؟ لَيْسَ بِشَرَطٍ، فالمهمُّ أَنْ يُرْبَطَ رِيبًا مُحْكَمًا عَلَى خَشْبَةِ الصَّلِيبِ.

فإن قال قائل: الصَّلْبُ بعدَ الموتِ أم قبله؟

فالجواب: قبلَ الموتِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبْتَكُمْ﴾.

وإن قال قائل: الصَّلْبُ فِي آيَاتِ قُطَاعِ الطَّرِيقِ قبلَ الموتِ أم بعده؟

فالجواب: الصَّلْبُ فِي آيَاتِ قُطَاعِ الطَّرِيقِ اِخْتَلَفَ فِيهِ العُلَمَاءُ: هل يَكُونُ قبلَ الموتِ أم بعده، والمشهورُ فِي مَذْهَبِنَا أَنَّهُ بعدَ الموتِ، ولكن الصَّحِيحُ أَنَّهُ قبلُ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا صُلِبُوا قبلُ نَالُوا الأَلَمِينَ: الحِسيَّ والنَّفسيَّ، أو القلبيَّ، لكن إِذَا صُلِبُوا بعدَ الموتِ فلا يُؤَلِّمُهُمْ شَيْءٌ أَبَدًا.

ثم إن تَصْلِيْبِهِمْ بعدَ الموتِ لا فائدة منه، لهذا لَمَّا قِيلَ لِأَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْهَا-: إِنْ الحِجَّاجُ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا بَعِدَ اللهُ بِنِ الزُّبَيْرِ بعدَ موْتِهِ،

قالت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «وَمَا يَضُرُّ الشاةَ سَلْخُ جِلْدِهَا بعد موتها؟»^(١)؛ لِأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ لا يُوْثِرُ.

فكان جَوَابهم أن قالوا: ﴿لَا ضَيْرٌ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: ﴿لَا ضَيْرٌ﴾ لا ضررَ علينا في ذلك، ما شاء الله! يعني: لقوة إيمانهم قالوا: هَذَا لا يَضُرُّنا، ولا يُوْثِرُ، وفي هَذَا من التحدي وإظهار القوة والشجاعة ما هو ظاهر؛ لأنهم يخاطبون أعتى أهل الأرض، وهو فِرْعَوْنُ، يقولون: لَا ضَيْرَ، افعل ما تريد، لا يَهْمُنَا، وصدقوا أَنَّهُ لا ضيرَ عليهم في ذلك ما دامَ تَعْدِيْبهم هَذَا في ذاتِ الله، فهم هنا إِنما يعدَّبون في ذاتِ الله فقط، وهذا لا يَضُرُّهم أَبداً، بل يزيدهم رفعةً، ولذلك كان ذِكْرهم إِلَى يومِ القيامةِ، فأشادَ اللهُ تعالى بِذِكْرِهِم في القرآن، وسيبقى إِلَى يومِ القيامةِ، وهذا فيه أكبرُ منفعةٍ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: ﴿لَنَا إِلَى رَبِّنَا﴾ بعدَ موتنا بأيِّ وجهٍ كانَ ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ راجعونَ في الآخرةِ، يعني: يقولون: مهما كانَ حتَّى لو بَلَّغْنَا إِلَى الموتِ فَإِنَّ النِّهَايَةَ أَنَا سَنَرْجِعُ إِلَى رَبِّنَا، وَرُجُوعُنَا إِلَى رَبِّنَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا؛ لأنَّهم يَرْجِعُونَ إِلَى نَعِيمِ أَبَدِيٍّ لا يَمِئْتُهُ شَيْءٌ من نعيمِ الدُّنْيَا، وفي سُورَةِ طه: ﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢]، يعني: اقضِ ما تريد، غاية ما يكونُ أَنْ يكونَ تَعْدِيْبُكَ مُوَصِّلاً إِلَى الموتِ، وإذا أُوْصِلَ إِلَى الموتِ فَالنتيجةُ ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾، ممَّا يدلُّ عَلَى أَنَّهُمْ صادِقُونَ في الإِيْمَانِ، وَأَنَّ إِيْمَانَهُمْ راسخٌ جِداً.

وفي هَذَا من آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبيانِ قُدْرَتِهِ ما هو ظاهرٌ، ففي لحظةٍ واحدةٍ انقلبَ الكفرُ العَظِيمُ إِلَى إِيْمَانٍ عَمِيقٍ، فبمجردِ أَنْ رَأَوْا ما تَفَعَّلَهُ عَصَا مُوسَى انقلبوا

(١) شرف المصطفى لأبي سعد الخركوشي (٢/٣٣٠).

بعد الكفرِ مُؤْمِنِينَ، ولهذا قال بعض العلماء: أَصْبَحُوا كَفَّارًا سَحْرَةً، وَأَمْسَوْا شُهَدَاءَ بَرَّةٍ^(١). وهذا صحيحٌ أَتَمُّ كَانُوا بَرَّةً وَأَتْقِيَاءَ، وَكَانُوا مِنْ أَقْوَى النَّاسِ إِيْمَانًا وَجِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾، وَفِي هَذَا أَيْضًا دَلِيلٌ عَلَىٰ إِيْمَانِهِم بِالْبَعْثِ؛ لِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾، فَهَم مَوْمِنُونَ بِلِقَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَهُوَ مِنْ أَصُولِ الْإِيْمَانِ.

فوائد الآيتين الكريمتين:

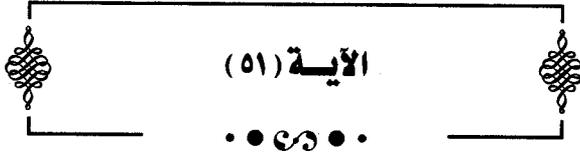
الْفَائِدَةُ الْأُولَى: شِدَّةُ تَمْوِيهِ فِرْعَوْنَ حِينَ قَالَ: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكَ السِّحْرَ﴾ مَعَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ مُوسَىٰ وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ السَّحْرَةَ شَيْءٌ مِنَ الْإِتِّصَالِ، وَلَكِنَّهُ لِقُوَّةِ تَمْوِيهِ أَرَادَ أَنْ يُمَوِّهَ هَذَا الْكَلَامَ الَّذِي لَيْسَ بِمَعْقُولٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قُوَّةُ جَبْرُوتِهِ حِينَ هَدَّدَهُمْ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ مِنْ خِلَافِ ثَمِ الصَّلْبِ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: قُوَّةُ إِيْمَانِ هَؤُلَاءِ السَّحْرَةَ الَّذِينَ تَحَدَّوْا فِرْعَوْنَ بِجَبْرُوتِهِ، وَقَالُوا: إِنَّهُ لَا ضَرَرَ عَلَيْنَا فِيمَا هَدَّدْتَنَا بِهِ؛ لِأَنَّنا سَنَنْقَلِبُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَسَيُعْطِينَا مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ أَكْثَرَ مِمَّا فَقدْنَا مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه: ﴿إِنَّمَا نَقَضِيَ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْإِيْمَانَ إِذَا صَدَّقَ صَارَ أَقْوَى مِنَ الْعَاطِفَةِ، فَحُبُّ النَّفْسِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ، وَلَكِنْ الْإِيْمَانُ يُؤَدِّي إِلَىٰ أَنْ تَرْحِصَ النَّفْسُ عِنْدَ الْمَرِّ بِجَانِبِ دِينِهِ.

(١) ذكره السمرقندي في بحر العلوم (١/٥٤١) عن عبيد بن عمير، وعزاه في تفسير ابن كثير (٣/٤٥٩) لابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴾

[الشعراء: ٥١].



قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ إِنَّا نَطْمَعُ ﴾ نَرْجُو ﴿ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتَنَا أَنْ ﴾ أَي: بَأَنَّ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فِي زَمَانِنَا].

﴿ نَطْمَعُ ﴾ يَعْنِي: نَرْجُو وَنُؤَمِّلُ، وَهَذَا الطَّمَعُ مِمَّا يُمَدِّحُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ، لَكِنْ إِذَا فَعَلَ أَسْبَابَهُ، أَمَّا إِذَا لَمْ يَفْعَلْ أَسْبَابَهُ فَإِنَّهُ مِنَ الْأَمَانِي الْبَاطِلَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»^(١).

هَمْ أَكْدُوا أَنَّهُمْ يَطْمَعُونَ فِي مَغْفِرَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُمْ فَعَلُوا السَّبَبَ، وَهُوَ الْإِيْمَانُ بَعْدَ الْكُفْرِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، فَهَمْ طَمِعُوا هَذَا الطَّمَعُ مَعَ وُجُودِ سَبَبِهِ، وَهُوَ مَدْحٌ، وَقَوْلُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتَنَا ﴾ الْغَفْرُ مَعْنَاهَا: سَتْرُ الذَّنْبِ وَالْعَفْوُ عَنْهُ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿ خَطِيئَاتَنَا ﴾ جَمْعُ: خَطِيئَةٍ، وَهِيَ الْخَطَايَا وَالسِّيِّئَاتُ وَاحِدَةً، أَمْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، أَمْ يَفْرَقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَ الْاجْتِمَاعِ فَقَطْ؟

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: أَبْوَابَ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَقْمَ (٢٤٥٩)، مَاجِهَ: كِتَابَ الزُّهْدِ، بَابَ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ، رَقْمَ (٤٢٦٠).

يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَ الْجَمَاعِ فَقَطْ، وَأَمَّا إِذَا أُفْرِدَتْ إِحْدَاهُمَا فَإِنَّهَا تَشْمَلُ الْأُخْرَى،
فَفِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ
فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾
[آل عمران: ١٩٠-١٩١]، إِلَىٰ أَنْ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴿١١٢﴾ [آل عمران: ١٩٣]،
فَفَرَّقُوا بَيْنَ الذُّنُوبِ وَالسَّيِّئَاتِ، فَالذُّنُوبُ طَلَبُوا مَغْفِرَتَهَا، وَالسَّيِّئَاتُ طَلَبُوا
تَكْفِيرَهَا؛ لِأَنَّهَا مِنَ الصَّغَائِرِ الَّتِي تَكْفُرُهَا الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، وَالسَّيِّئَاتُ الْمُرَادُ بِهَا هُنَا
الْكِبَائِرُ، الَّتِي لَا تَزُولُ إِلَّا بِمَغْفِرَةٍ، لَا بِتَكْفِيرٍ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ كُنَّا أَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا لَيْسَ مِنْ بَابِ الْإِدْلَالِ عَلَى اللَّهِ وَالْمِنَّةِ
عَلَيْهِ بِكُونِهِمْ أَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ مِنْ بَابِ التَّحَدُّثِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّذِي يَرُونَهُ سَبَبًا
وَوَسِيلَةً لِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ؛ لِأَنَّ السَّبْقَ إِلَى الْإِيمَانِ وَإِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ مَنَقَبَةٌ، وَمِنْ
أَسْبَابِ الرَّتَبِ الْعَالِيَةِ، وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ
وَقَتْلِ أَوْلِيكَ أَغْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١٠﴾ [الحديد: ١٠]، فَالسَّبْقُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ لَهُ مَرَاتِبُهُ، وَلصَاحِبِهِ
مَرْتَبَةٌ عَالِيَةٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هُوَ لِأَنَّ السَّحْرَةَ هُمُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدُ؟ أَمْ
هُوَ لِأَنَّ قَتْلَهُ؟

فَالْجَوَابُ: لَا، هُوَ لِأَنَّ إِيْمَانَهُمْ صَحِيحٌ، وَهُوَ لِأَنَّ إِيْمَانَهُمْ قَتَلُوا مَبَاشَرَةً، أَوْ أَنَّهُمْ
لَمْ يَحْدِثْ لَهُمْ شَيْءٌ، أَمَّا الَّذِينَ آذَوْهُ فَهَمُ قَوْمُهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُؤْمِنِينَ؟

فالجواب: فِي هَذِهِ الْمَعَالِجَةِ الظَّاهِرُ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ، أَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ مُؤْمِنًا، لَا أُدْرِي؛ لِأَنَّ أَوَّلَ أَنْزَالِ التَّوْرَةِ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القَصص: ٤٣].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ قَتَلَ جَمِيعَ السَّحَرَةِ؟

فالجواب: الظَّاهِرُ أَنَّهُمْ كَلَّمَهُمْ؛ لِأَنَّ قَوْلَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ: «شُهَدَاءُ بَرَّةٍ» يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ قُتِلُوا، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ نَحْتَاجُ إِلَى التَّشْبِثِ.

وَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ آمَنُوا جَمِيعُهُمْ؟

فالجواب: كَلَّمَهُمْ آمَنُوا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَلْفَى السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦]، فَكَلَّمَهُمْ آمَنُوا إِيَّانَا كَامِلًا.

فَوَائِدُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: قُوَّةُ رَجَاءِ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا﴾.

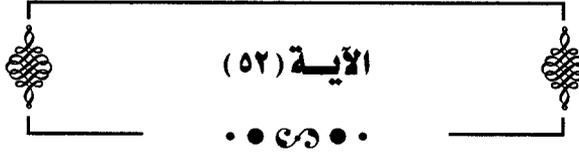
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السَّبْقَ إِلَى الْإِيمَانِ مِنْ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّفْعَةِ؛ لِقَوْلِهِمْ: ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْمُسْتَقِينَ﴾ [الحديد: ١٠]، وَلِمَا تَخَاصَمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَخَالِدٍ: «لَا تَسْبُوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ

لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(١).

الفائدة الثالثة: وفيها أيضًا أن الإطلاق تُقَيِّدُهُ قَرِينَةٌ؛ لقولهم: ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ فِي وَقْتِهِمْ، وَإِلَّا فَقَدْ آمَنَ أَحَدٌ قَبْلَهُمْ، أَوْ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ آمَنَ أَحَدُهُمْ قَبْلَهُمْ، فَقَوْلُهُمْ: ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: من آلِ فِرْعَوْنَ، والمُفَسِّرُ يَقُولُ: [فِي زَمَانِنَا]، وَلَكِنْ هَذَا لَيْسَ بِظَاهِرٍ، بَلِ الظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ آمَنَ قَبْلَ ذَلِكَ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٥٤١).



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسِرِّ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢].

• • ﴿٥٢﴾ • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ بَعْدَ سِنِينَ أَقَامَهَا بَيْنَهُمْ يَدْعُوهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِلَى الْحَقِّ، فَلَمْ يَزِيدُوا إِلَّا عُمُومًا].

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسِرِّ بِعِبَادِي﴾ وَالْوَحْيُ فِي اللَّغَةِ: الْإِعْلَامُ بِسُرْعَةٍ وَخَفَاءٍ، وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ: فَهُوَ إِعْلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالشَّرْعِ لِأَحَدِ أَنْبِيَائِهِ، ثُمَّ إِنَّ الْوَحْيَ قَدْ يَكُونُ بِوَاسِطَةٍ، وَقَدْ يَكُونُ بغيرِ وَاسِطَةٍ، وَقَدْ قَسَمَ اللَّهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]، فَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ هَذَا الْإِلْهَامُ (الْوَحْيُ الْإِلْهَامِيُّ)، ﴿مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ مَكَالَمَةٌ صَرِيحَةٌ، لَكِنْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَالثَّلَاثُ: ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ﴾.

قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسِرِّ بِعِبَادِي﴾ (أَنَّ) تَفْسِيرِيَّةٌ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِذَا سَبَقَهَا مَعْنَى الْقَوْلِ دُونَ حُرُوفِهِ فَهِيَ تَفْسِيرِيَّةٌ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أَرْمِيسَةَ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وَهَذَا: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسِرِّ بِعِبَادِي﴾؛ لِأَنَّهَا تَفْسَّرُ مَا يُوْحَى بِهِ.

وقوله: ﴿بِعِبَادِي﴾ الْمُرَادُ بِهِمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَهِيَ عِبُودِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿أَنَّ أَسْرَ بَعَادَى﴾ بِنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِي قِرَاءَةٍ^(١) بِكسْرِ النونِ وَوَصَلَ هَمْزَةَ ﴿أَسْرٍ﴾ مِنْ سَرَى لُغَةً فِي أَسْرَى، أَي: سَرَّ بِهِمْ لَيْلًا إِلَى الْبَحْرِ، يَعْنِي: يُقَالُ: أَسْرَى وَسَرَى، فَالْأَمْرُ مِنْ أَسْرَى الرَّبَاعِي: أَسْرٍ، وَالْأَمْرُ مِنْ سَرَى: اسْرٍ بِهَمْزَةٍ وَصَلَ، فَعَلَى أَنَّهُ مِنَ الرَّبَاعِيِّ تَكُونُ ﴿أَنَّ أَسْرٍ﴾، تَظْهَرُ (أَنَّ) وَتَبْقَى سَاكِنَةً، وَعَلَى أَنَّهَا مِنْ (سَرَى) تَكْسِيرِ النونِ؛ لِمَلَاقَةِ السَّاكِنِ، وَتَكُونُ الْهَمْزَةُ هَمْزَةً وَصَلَ: (أَنَّ اسْرٍ بَعَادِي).

وَالْمَعْنَى: سَرَّ بِهِمْ لَيْلًا، يَقُولُ الْمُفَسِّرُ: [إِلَى الْبَحْرِ]، وَالذَّلِيلُ أَنَّهُ إِلَى الْبَحْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتْرَكَ الْأَبْحَرَ رَهْوًا﴾ [الدخان: ٢٤]. وَكَذَلِكَ أَيْضًا مَا جَاءَ فِي سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَاتِ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ يَتَّبِعُكُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ فَيَلْجُونَ وَرَاءَكُمْ الْبَحْرَ، فَأُنْجِيَكُمْ وَأُغْرِقَهُمْ]. أَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَسِيرُوا لَيْلًا، وَإِنَّمَا أُمِرُوا أَنْ يَسِيرُوا لَيْلًا؛ لِثَلَا يَظْهَرُ أَمْرُهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَوْ أَرَادُوا أَنْ يَسِيرُوا نَهَارًا وَتَجَهَّزُوا، لَشَعَرَ بِهِمْ أَلُّ فِرْعَوْنَ، وَحِينَئِذٍ يَمْنَعُونَهُمْ أَوْ يُؤْذُونَهُمْ، فَلِذَلِكَ أُمِرُوا أَنْ يَسِيرُوا بِاللَّيْلِ.

قال: ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ أَكَدَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ بِ(إِنَّ) مَعَ أَنَّهَا جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ أَيْضًا، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَتَّبِعُونَهُمْ بَدُونِ تَرَدُّدٍ، فَاتَّبَعَهُمْ لَهُمْ أَمْرٌ مُؤَكَّدٌ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَهُمْ طَلَبًا لَهُمْ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَقْضُوا عَلَيْهِمْ.



الآية (٥٣)

•••••

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣].

•••••

بعدهما سَرَوْا لَيْلًا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنَ﴾ حِينَ أُخْبِرَ بِسَيْرِهِمْ ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ قِيلَ: كَانَ لَهُ أَلْفُ مَدِينَةٍ، وَاثْنَا عَشَرَ أَلْفَ قَرْيَةٍ ﴿حَاشِرِينَ﴾ جَامِعِينَ الْجَيْشِ]، فَلَمَّا عَلِمَ بِهِمْ فِرْعَوْنُ تَحَفَّزَ وَخَافَ أَنْ يُخْرَجُوا إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، فَيَكُونُوا أُمَّةً فَيَغْزُوهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِمْ، فَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، وَالْمَدَائِنُ مَدَائِنُ مِصْرَ، وَكَوْنُهَا بِهَذَا الْعَدَدِ الَّذِي قَالَ الْمُفَسِّرُ يَحْتَاجُ إِلَى ثُبُوتٍ، وَنَحْنُ مَا عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَقُولَ مَا قَالَهُ اللَّهُ، وَلَكِنَّا نَفْهَمُ أَنَّ هَذِهِ الْمَدَائِنَ كَثِيرَةٌ، وَوَجْهَهَا أَنْ (فَعَائِلٌ) صِيغَةٌ مُنْتَهَى الْجُمُوعِ، فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى الْكَثْرَةِ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿حَاشِرِينَ﴾: جَامِعِينَ الْجَيْشِ]، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا يَقُولُونَ: أَخْرَجُوا، بَلْ يُجْبَرُونَ عَلَيْهِمْ عَلَى أَنْ يُخْرَجُوا.

•••••

الآية (٥٤)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٤].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ حَشْرِينَ ﴾: جَامِعِينَ الْجَيْشِ قَائِلًا: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ ﴾ طَائِفَةٌ ﴿ قَلِيلُونَ ﴾، هَذَا مِنْ بَابِ الْإِعْرَاءِ عَلَى الْخُرُوجِ أَنْ يُقَلَّلَ الْإِنْسَانُ عَدُوَّهُ فِي مَسَامِعِ الْقَوْمِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَتَشَجَّعُوا.

فَإِذَا قِيلَ: أَلَيْسَ مِنَ الْأُولَى أَنْ يُكْثِرَهُمْ لِأَجْلِ أَنْ يَسْتَعِدُّوا؟

فَالْجَوَابُ: الْأُولَى مِنْ حَيْثُ التَّجْهِيزُ الْعَسْكَرِيُّ التَّقْلِيلُ، هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، وَإِنْ كَانَ الْبَعْضُ قَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى ذَهْنِهِ أَنْ يَقُولَ: لِمَاذَا لَمْ يُكْثَرُوا لِأَجْلِ أَنْ يَسْتَعِدُّوا وَيُخْرَجُوا؟

فَيُقَالُ: إِنَّ الْمَافَسَدَ الَّتِي تَتَرْتَّبُ عَلَى التَّكْثِيرِ أَكْثَرُ مِنَ الْمَافَسَدِ الَّتِي تَتَرْتَّبُ عَلَى التَّقْلِيلِ.

فَإِنْ قِيلَ: مِنَ الْمَقْصُودِ بِقَوْلِهِ: (شِرْذِمَةٌ)؟

فَالْجَوَابُ: الْمَقْصُودُ مُوسَى وَقَوْمَهُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾ طَائِفَةٌ ﴿ قَلِيلُونَ ﴾، وَكَلِمَةٌ: (شِرْذِمَةٌ) لَيْسَتْ بِمَعْنَى طَائِفَةٍ فَقَطْ، كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ، بَلْ بِمَعْنَى التَّحْقِيرِ، يَعْنِي: أَبْلَغَ مِنْ كَلِمَةِ طَائِفَةٍ،

و﴿قَلِيلُونَ﴾ تَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ الْعَدَدِ، وَ(شِرْذِمَةٌ) تَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ الْقُوَّةِ، ففِيهَا هُنَا التَّقْلِيلُ الْكَمِّيَّ وَالْكَيفِيَّ، فَالْكَمِّيَّ بِقَوْلِهِ: ﴿قَلِيلُونَ﴾، وَالْكَيفِيَّ بِقَوْلِهِ: (شِرْذِمَةٌ)؛ لِأَنَّ الشِّرْذِمَةَ الشَّيْءُ الَّذِي لَا يُعْبَأُ بِهِ؛ لِضَعْفِهِ مِثْلًا أَوْ عَدَمِ اسْتِعْدَادِهِ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [قِيلَ: كَانُوا سِتِّ مِئَةِ أَلْفٍ وَسَبْعِينَ أَلْفًا، وَمُقَدِّمَةٌ جَيْشِهِ سَبْعَ مِئَةِ أَلْفٍ]، هَذَا نَقُولُ: لَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا صِحْحَةَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ يُبْعَدُ أَنْ يَكُونَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِهَذَا الْمَبْلَغِ الْكَبِيرِ الَّذِي ذَكَرَ، بَلْ كَانُوا قَلِيلِينَ مُسْتَضْعَفِينَ بِمِصْرَ، حَتَّى إِنْ فِرْعَوْنُ كَانَ يَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، فَلِيسُوا إِلَى هَذَا الْحَدِّ بِكَثْرَةٍ، فَنَحْنُ نَقُولُ: إِنْ هَؤُلَاءِ وَإِنْ كَانُوا لَيْسُوا كَمَا وَصَفَ فِرْعَوْنُ بِكَوْنِهِمْ شِرْذِمَةً قَلِيلِينَ، لَكِنْ نَعْلَمُ أَنََّّهُمْ لَيْسُوا بِهَذِهِ الْكَثْرَةِ.

وَيَقُولُ: [فَقَلَّلَهُمْ بِالنَّظَرِ إِلَى كَثْرَةِ جَيْشِهِ]، وَلَيْسَ كَذَلِكَ أَيْضًا، وَإِنَّمَا قَلَّلَهُمْ بِمَسَامَعِ النَّاسِ مِنْ أَجْلِ الْأَيْتَآخَرِ أَحَدٌ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَشَجَّعُوا لِلْخُرُوجِ، فَيَقُولُ: هَؤُلَاءِ شِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، فَهَمُّ لُقْمَةُ سَائِغَةٌ لَا يَحْتَاجُونَ مِنَّا كَثِيرَ عَنَاءٍ.



الآية (٥٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٥].

• • • • •

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴾: فاعلون ما يَغِيظُنَا، هَذَا أَيْضًا مِنْ بَابِ الْإِغْرَاءِ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا ﴾ يَعْنِي: لَنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴿ لَغَائِطُونَ ﴾ فاعلون ما يَغِيظُنَا، وَهَذِهِ نَقْطَةٌ أُخْرَى لِلتَّيْسِيرِ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ لَا يَرْضَى أَنْ يَغِيظَهُ أَحَدٌ، فَهُوَ إِغْرَاءٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴾ هَذَا الْكَلَامُ قَائِلُهُ فِرْعَوْنُ نَفْسَهُ أَوْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَحْكِيهِ؟

فَالْجَوَابُ: فِرْعَوْنُ الَّذِي قَالَ، وَلَكِنْ لَيْسَ يَقُولُهُ أَمَامَ النَّاسِ، يَقُولُهُ لِرَسُولِهِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَى الْمَدَائِنِ، يَقُولُ: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾ كُلُّ هَذَا مِمَّا أُرْسِلَ بِهِ الرَّسُلُ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَنْشَطَ النَّاسُ عَلَى الْإِقْبَالِ.

وَإِنْ قِيلَ: الْقَصَصُ فِي الْقُرْآنِ يَكُونُ مِنْ كَلَامِ الْقَاصِّ، يَعْنِي: مِنْ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْ مِنْ كَلَامِ الْمُتَحَدِّثِ؟

فَالْجَوَابُ: مِنْ كَلَامِ مَنْ أَخْبَرَ عَنْهُ، لَكِنْ لَيْسَ بِلَفْظِهِ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ لُغْتَهُ قِبْطِيَّةٌ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَرَجَّمَ كَلَامَهُ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

• • • • •

الآية (٥٦)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ ﴾ ﴾ [الشعراء: ٥٦].

قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ ﴾ متيقظون، وفي قراءة: «حَازِرُونَ»^(١) مُسْتَعِدُّونَ]، بدأ بنفسه، وأخبر أَنَّهُ هُوَ وقومه حَازِرُونَ، أو «حَازِرُونَ»، واجتماع القراءتين يفيد المعنيين جميعاً، أي: إِننا متيقظون، ولتَيَقُّظُنَا كُنَّا مستعدين، فهاتان القراءتان تفيدان معنيين: المعنى الأول: التيقُّظ، وَهُوَ استعدادٌ نفسيٌّ، والمعنى الثاني: الاستعداد الحِسيّ؛ لقوله: (حَازِرُونَ)؛ لِأَنَّ الحَازِرَ اسْمٌ فاعِلٍ، وَهُوَ الَّذِي فَعَلَ مَا يَحْذَرُ بِهِ، وَهُوَ الاستعداد فقط.

فَإِنْ قِيلَ: أَلَا تَشْمَلُ (حَازِرُونَ) كِلَا الْمَعْنِيَيْنِ؟

فالجواب: لا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَسْتَعِدُّ وَيُحْسِنُ الْإِعْدَادَ وَالْأَجْهَازَةَ لَكِنْ لَا يَكُونُ مُتَيَقِّظًا، فَقَدْ يَسْتَعِدُّ وَلَا يَتَيَقُّظُ. أَلَيْسَ أَهْلُ مِصْرَ فِي حَرْبِ الْإَيَّامِ السَّتَّةِ كَانُوا مُسْتَعِدِّينَ، وَلَكِنَّهُمْ لَيْسُوا مُتَيَقِّظِينَ، فَالطَّائِرَاتُ قَدْ مَلَأَتْ الْمَطَارَ وَالِدَعَايَاتُ مِنَ الْإِذَاعَاتِ كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَمَعَ ذَلِكَ لِعَدَمِ تَيَقُّظِهِمْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، فَلَا بَدَّ مِنْ اسْتِعْدَادِهِ وَتَيَقُّظِهِ.

(١) الحجة في القراءات السبعة (ص: ٢٦٧).

الآيتان (٥٧، ٥٨)

• • ٥٧ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّتِ وَعَيْوُنِ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾

[الشعراء: ٥٧-٥٨].

• • ٥٧ • •

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ ﴾ أَي: فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ مِنْ مِصْرَ لِيَلْحَقُوا مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴿ مِّن جَنَّتِ وَعَيْوُنِ ﴾: بَسَاتِينَ كَانَتْ عَلَى جَانِبِي النِّيلِ، ﴿ وَعَيْوُنِ ﴾: أَنْهَارٍ جَارِيَةٍ فِي الدُّورِ مِنَ النِّيلِ، ﴿ وَكُنُوزٍ ﴾: أَمْوَالٍ ظَاهِرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَسُمِّيَتْ كُنُوزًا لِأَنَّهُ لَمْ يُعْطِ حَقَّ اللَّهِ مِنْهَا، ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾: مَجْلِسٍ حَسَنٍ لِلْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ، يُحْفَهُ أَتْبَاعُهُمْ].

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ ﴾ بَصِيغَةُ الْعِظَمَةِ لِمُنَاسِبَةِ الْمَقَامِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَعَاظَمُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَتَكَبَّرُوا قُبِلُوا بِمَا هُوَ أَعْظَمُ، وَهُوَ قُوَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّتِ ﴾ يَقُولُ الْمَفْسِّرُ: [بَسَاتِينَ كَانَتْ عَلَى جَانِبِي النِّيلِ]، وَلَا يُقَالُ لِلْبَسَاتِينَ: (جَنَّتَاتٍ) إِلَّا إِذَا كَانَتْ كَثِيرَةً الْأَشْجَارِ وَالزَّرْعِ، بَحِيثٌ تَسْتَرُّ أَرْضُهَا بِهَا وَيَسْتَرُّ مَنْ فِيهَا بِهَا، وَأَمَّا مَا فِيهِ نَخْلَاتٌ قَلِيلَةٌ أَوْ زَرْعٌ قَلِيلٌ فَلَا يُسَمَّى جَنَّةً. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ مِّن جَنَّتِ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى كَثْرَتِهَا، وَلَعَلَّ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ كَانَ لَهُ بَسَاتَانٌ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَعَيُونٌ﴾: أنهار جارية في الدور من النيل، وينبغي أن يُقال: في الدور وغيرها، حتَّى الجنات التي هي البساتين إذا كانت فيها أنهارٌ مختلفةٌ؛ فإن ذلك لا شك مما يُبهِجُ وَيَسِّرُ القلب، فهو أعمُّ من كونها في الدور، أو في هذه الجنات.

وقوله: ﴿وَكُنُوزٌ﴾ يقول المُفسِّر: [أموال ظاهرة]، ولكن في هذا نظرٌ كونه يفسرها بالأموال الظاهرة، ولو فسرتها بالأموال التي تُكْتَنَزُ سواء كانت مكنوزة بالفعل؛ لكثرة المال ووفرتة، فهم لا يحتاجون إلى إنفاقه، وإنما يكتزونونه في الأرض ليرصدوه لما يُستقبل؛ أقول: سواء كانت مكنوزة بمعنى مدفونة أو غير مدفونة؛ لأنَّ الذهب والفضة يُسمَّى كنزاً إذا لم تؤدَّ زكاته، وهذا كنزٌ شرعيٌّ، وإذا دُفِنَ سُمِّيَ كنزاً؛ لغويًّا.

المهم أننا نقول: الكنوز هي الأموال العظيمة الكثيرة من الذهب والفضة، وسواء كانت هذه الكنوز نقوداً أو كانت حلياً يتحلون بها.

يقول: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ المقام نقول: المجلس، ويمكن أن يكون المراد به محلّ الإقامة، يعني: المراد بالمقام المسكن، فهو أعمُّ من أن يكون المجلس. والكريم: الحسن، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»^(١) يعني: أحاسنها، فصار هؤلاء ممتعين من كلِّ وجه: مقام كريم بأمنٍ وطمأنينة، وراحة، وحسن، وباللون والكيفية، وكذلك أيضاً من حيث الأموال الوفيرة التي توفرت لهم حتَّى صاروا يكتزونونها.

(١) سبق تخريجه.

فوائد الآيتين الكريمتين:

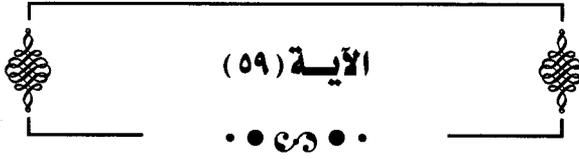
الفائدة الأولى: بيان عقوبة الله سبحانه وتعالى للطاغين، وذلك بإزالة النعم عنهم؛ إما بإخراجهم منها، وإما بإزالتها هي، وتؤخذ من قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

الفائدة الثانية: أن العقوبة بعد التنعيم أشد، ولذلك نص عليه، فما قال: فأخرجناهم من أماكنهم فقط، أو من ديارهم، ولكن بين على سبيل التعيين ما هم فيه من النعيم؛ لأن الأخذ بالعقوبة بعد النعيم يكون أشد.

الفائدة الثالثة: تحذير للطغاة من أن تزول نعمهم بسبب طغيانهم، ففي عصرنا هذا فتح الله على الناس من أنواع النعيم ما لم يكن موهوماً من قبل، وبالأولى ليس معلوماً، فيخشى أن يخرج هؤلاء من هذا النعيم إذا طغوا وعتوا عن أمر الله سبحانه وتعالى.

الفائدة الرابعة: وفي ذلك دليل على أن الإنسان قد يؤخذ من حيث يرى أنه علا وظهر؛ فإن فرعون بعث في المدائن حاشرين يدعوهم إلى قتال موسى وقومه، فخرجوا تابعين لهم على أنهم سيدركونهم، فصار في هذا الخروج حتفهم وهلاكهم ونظيره في هذه الأمة ما صنعت قريش حين خرجت إلى بدر، وكان أبو جهل يقول: والله لا ترجع حتى تقدم بدراً فنسقي فيها الخمر، وتعزف علينا القيان، ونشرب الخمر، حتى تسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً^(١). فأخذوا من حيث أتوا.

(١) مغازي الواقدي (١/٤٤).



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٩].

• • • • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ كَذَلِكَ ﴾ أَي: إِخْرَاجِنَا كَمَا وَصَفْنَا، ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾]، يَعْنِي أَنَّ ﴿ كَذَلِكَ ﴾ تَكُونُ خَبْرًا لِمَبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ، يَعْنِي: إِخْرَاجِنَا لَهُمْ كَانَ كَذَلِكَ، أَوْ يَكُونُ التَّقْدِيرُ: الْأَمْرُ كَذَلِكَ. الْمَهْمُ أَنَّ ﴿ كَذَلِكَ ﴾ خَبْرٌ لِمَبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ، فَهِيَ جُمْلَةٌ مُسْتَقَلَّةٌ عَمَّا قَبْلُهَا وَعَمَّا بَعْدَهَا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ يَعْنِي هَذِهِ الْجَنَّاتُ وَالْعَيُونُ وَالْكُنُوزُ وَالْمَقَامُ الْكَرِيمُ، أَوْرَثْنَاهَا [﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾] بَعْدَ إِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، فَصَارَتْ لَهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ إِسْرَائِيلُ: هُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَمَعْنَاهُ: عَبْدُ اللَّهِ، وَإِنَّمَا نُسِبُوا إِلَيْهِ لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّعُوا مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فِيهِ مِنَ الْإِشْكَالِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»^(١)، وَهَذَا أَوْرَثَ اللَّهُ دِيَارَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَأَمْوَالَهُمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ فِرْعَوْنَ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَحَلَّتْ لَكُمْ الْغَنَائِمُ»، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا»، رَقْمٌ (٥٢١).

والجواب: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهلك فِرْعَوْنَ فِي الْبَحْرِ بدون حرب، والغنيمة هِيَ مَا أُخِذَ مِنْ مَالِ الْكُفَّارِ بِقِتَالٍ وَمَا أُلْحِقَ بِهِ، هَذَا تَعْرِيفُهَا شَرْعًا، وَهَذَا مَا أُخِذَ بِقِتَالٍ فَهَؤُلَاءِ هَلَكُوا، فَبَقِيَتْ دِيَارُهُمْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَحَتَّى لَوْ لَمْ يَسْكُنْهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَسَكَنَهَا آخَرُونَ غَيْرُهُمْ، فَاَلْمَسْأَلَةُ هَذِهِ مَا غَنِمُوا بِأَيْدِيهِمْ، وَلَكِنهَا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِهَلَاكِ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي: كَانَ الْأَمْرُ أَنَّهُمْ لَمَّا هَلَكُوا صَارَتْ إِرْثًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: إِرْثًا قَدْرِيًّا؛ لِأَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فَهَذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ بَدْءِ الْخَلْقِ أَنَّ الْأَرْضَ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَهَذِهِ هِيَ الْقَرِينَةُ الَّتِي تَخْرُجُهَا عَنِ الْغَنَائِمِ فَلَا تَكُونُ غَنِيمَةً.

فالجواب: لا، هِيَ لَيْسَتْ أَرْضًا فَقَطْ، بَلْ جَنَاتٌ وَعَيْونَ، وَكُنُوزٌ، وَمَقَامٌ كَرِيمٌ، وَهَذِهِ الْكُنُوزُ مِمَّا يُنْقَلُ.

وإن قيل: هل كان بنو إسرائيل يسكنون معهم؟

فالجواب: ساكنون في جانبٍ من مِصْرَ، مِنْ جَانِبِ الْمَدِينَةِ، لَكِنْ أَهْمُ أَخَذُوا كُنُوزَ فِرْعَوْنَ وَآلِ فِرْعَوْنَ.

المهم أن الجواب الصحيح هو الأول، وهو أن يُقال: إن الغنيمة هِيَ مَا أُخِذَ بِقِتَالٍ وَمَا أُلْحِقَ بِهِ، وَمَا عدا ذَلِكَ لَا يُسَمَّى غَنِيمَةً شَرْعًا.

إذن نقول: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ظاهرها مُشْكِلٌ مَعَ قَوْلِهِ: «أَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ»، وَنَحْنُ نَقُولُ: أَصْلًا لَيْسَ هُنَاكَ غَنِيمَةٌ، يَعْنِي: كُونَا نَقُولُ: هَذِهِ مِنَ الْغَنَائِمِ

لَيْسَ بِصَحِيحٍ، فليستْ غنيمَةً، لكن قد يَتَبَادَرُ لِذَهْنِ أَحَدٍ عِنْدَمَا يَقْرَأُ الْآيَةَ: كيف يؤتيها الله بني إِسْرَائِيلَ وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ الْغَنَائِمَ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»؟ فجوابه أن نقول: إن هَذِهِ لَيْسَتْ مِنْ بَابِ الْغَنَائِمِ.

فنقول: إن هَذَا التَّوْرِيثَ لَيْسَ مِنْ بَابِ الْغَنِيمَةِ؛ لِأَنَّ الْغَنِيمَةَ مَا أُخِذَ مِنْ كَفَّارٍ بِقِتَالٍ، وَمَا أُلْحِقَ بِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل مُوسَى بعد إِبْرَاهِيمَ -عليهما السلام- مباشرة؟

فالجواب: لا، بينها مدة طويلة، هناك إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ، وجاء بعدهم يوسُفُ بنُ يَعْقُوبَ إِلَى أَهْلِ مِصْرَ رَسُولًا، ولهذا المؤمن قَالَ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ [غافر: ٣٤].

وإن قيل: هل بنو إِسْرَائِيلَ خرجوا كلهم من مصر؟

فالجواب: نعم، الظَّاهِرُ أَنَّهُمْ خَرَجُوا مَعَ مُوسَى كُلِّهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢]، فهذا عامٌّ. وبعد ذلك عادوا ورجعوا إِلَى مِصْرَ وصاروا فيها.



الآية (٦٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَاتَّبِعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٠].

• • • • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ فَاتَّبِعُوهُمْ ﴾ لِحَقْوِهِمْ ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ وَقْتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ. [والواو في قوله: ﴿ فَاتَّبِعُوهُمْ ﴾ تعودُ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَالْهَاءُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى جَمَلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ؛ لِأَنَّ تَوْرِيثَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ بَعْدَ أَنْ غَرِقَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ.

فِيصِيرُ ذِكْرُ ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ مَنَاسِبَةً تَقْدِيمُهَا فِي التَّرْتِيبِ عَلَى مَا بَعْدَهَا؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ ﴾ كَانَ قَائِلًا يَقُولُ: مَنْ الَّذِي حَلَّ مَحَلَّهُمْ؟ فَقَالَ: ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾، فَلَمَنَاسِبَةِ الْإِحْرَاجِ قُدِّمَتْ، وَإِلَّا كَانَ مُقْتَضَى التَّرْتِيبِ أَنْ تَكُونَ بَعْدَ ذِكْرِ إِهْلَاكِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ فَاتَّبِعُوهُمْ ﴾ لِحَقْوِهِمْ، يُقَالُ: تَبِعَهُ وَاتَّبَعَهُ وَأَتْبَعَهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، (فَاتَّبَعَهُ) يَعْنِي: تَبِعَهُ أَوْ اتَّبَعَهُ، فَكُلُّ الثَّلَاثِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، فَقَوْلُهُ: ﴿ فَاتَّبِعُوهُمْ ﴾ يَعْنِي: اتَّبِعُوهُمْ أَوْ تَبِعُوهُمْ، بِمَعْنَى: لِحَقْوِهِمْ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ وَقْتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، وَإِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ أَيْضًا، مِثْلَمَا نَقُولُ نَحْنُ: مَشْرُقٌ، يَعْنِي: نَحْوَ الْمَشْرِقِ، فَهَمْ فِي الْحَقِيقَةِ ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾

إمّا كما قال المُفسِّر: [وقت شروق الشَّمْسِ] أو مُتَّجِهِينَ نحوَ المشرقِ، وكِلَا المعنيينِ صحيحٌ، فمُشرقٌ: مُتَّجِهٌ نحوَ المشرقِ باعتبارِ المكانِ، ومُشرقٌ وقتَ الشُّروقِ باعتبارِ الزَّمانِ، والعادةُ أنَّ الخُرُوجَ أوَّلَ النَّهارِ أنشطُ للناسِ وأولى، وكان الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يخرج مبكِّراً، ولكنه يَبْقَى حَتَّى تَفِيءَ الأفياءُ، وتزولَ الشَّمْسُ، وَتَهَبَّ الرِّياحُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ خَرَجُوا فِي اللَّيْلِ وَفِرَعَوْنَ مَا خَرَجَ بَعْدَهُمْ إِلَّا بَعْدَ خُرُوجِ الشَّمْسِ؟

فالجوابُ: خرجَ مُوسَى وقومُه ليلاً اختفاءً؛ خوفاً على أنفُسِهِم من فِرَعَوْنَ فَخَرَجُوا بِاللَّيْلِ، أمّا هَذَا فما خرجَ خائفاً حَتَّى يَنْتَظِرَ قَدُومَ اللَّيْلِ، فخرجَ مُعَلِّناً أَنَّهُ ظاهراً مُنتَصِراً لِنَفْسِهِ.



الآيتان (٦١، ٦٢)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

• • • • •

قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ﴾ رَأَى كُلَّ مِنْهُمَا الْآخَرَ، وَالْمُرَادُ بِهِمَا جَمْعُ مُوسَى وَجَمْعُ فِرْعَوْنَ ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ يُدْرِكُنَا جَمْعُ فِرْعَوْنَ، وَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ.

قال: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ أَكَّدُوا الْإِدْرَاكَ بِـ(إِنَّ) وَاللَّامِ، يَعْنِي: مُدْرِكُونَ يَقِينًا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبَحْرَ أَمَامَهُمْ وَآلَ فِرْعَوْنَ خَلْفَهُمْ، فَلَا بَدَّ أَنْ يُدْرِكُوهُمْ، فَأَيْنَ يَذْهَبُونَ؟ فَلَيْسَ أَمَامَهُمْ إِلَّا الْبَحْرُ؛ إِنَّ خَاضُوا الْبَحْرَ غَرِقُوا، وَهُمْ لَنْ يَخْوضُوهُ بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِمْ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِالْأَمْرِ، فَهُمْ لَنْ يَخْوضُوا الْبَحْرَ، فَمَا بَقِيَ إِلَّا أَنْ يُدْرِكَهُمْ آلُ فِرْعَوْنَ.

ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ بِالْجُمْلَةِ الْاسْمِيَّةِ الْمُؤَكَّدَةِ بِـ(إِنَّ) وَاللَّامِ، وَلَكِنْ مُوسَى أَجَابَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا﴾ قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَي: لَنْ يُدْرِكُونَا]، قَالَ ذَلِكَ مُوسَى إِيْمَانًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَثِقَّةً بِوَعْدِهِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا أَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ إِلَّا لِيَحْمِيَهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ.

قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بِنَصْرِهِ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ طَرِيقَ النَّجَاةِ].

أولاً: ما قال: كَلَّا إِنِّي سَاهَدَى، بل قَدَّم مَعِيَّةَ اللَّهِ؛ لأنها أَقْوَى فِي تَشْيِيتِ قَوْمِهِ، قَالَ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، وكلُّ إنسانٍ يكونُ اللهُ مَعَهُ فلنَ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، ثم قال أيضاً مؤكداً أثر هَذِهِ المَعِيَّةِ: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ والسينُ تدلُّ عَلَى التَّحْقِيقِ والقُرْبِ، وَمَعْنَى ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سَيَدُلُّنِي عَلَى طَرِيقِ أَنْجُو بِهِ، ومُوسَى لم يكنْ عالماً بهذا الطَّرِيقِ حينَ ذاكِ، ولكنَّهُ واثقٌ مِنَ النِّجَاةِ، ولهذا أتى بالسينِ الدالَّةُ عَلَى التَّحْقِيقِ وَعَلَى القُرْبِ أيضاً؛ لِأَنَّ المَقَامَ يَقْتَضِي ذَلِكَ.

فهؤلاءِ أَكْدُوا أَنَّهُمْ مُدْرِكُونَ، فقبولوا بالتأكيدِ أَنَّهُمْ لَنْ يُدْرِكُوا، وتأكيدُ ذلكِ أَوْلَى بِذِكْرِ مَعِيَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، وتأكيدُهُ ثانياً بقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ لِأَنَّ السَّيْنَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِ النَّحْوِ تدلُّ عَلَى التَّحْقِيقِ والقُرْبِ، قَالَ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وَفِعْلاً حَصَلَ مَا تَيَقَّنَهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ سَيَهْدِيهِ طَرِيقَ النِّجَاةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما توجيهُ المَعِيَّةِ هِنَا فِي قولِ المُفَسِّرِ: [﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بنصره]؟

فالجواب: المرادُ بالمعِيَّةِ هِنَا المَعِيَّةُ الخاصَّةُ الَّتِي تَقْتَضِي النِّصْرَ والتأييدَ؛ فَإِنَّ قَصْدَ المُفَسِّرِ بِنَصْرِهِ أَنَّهُ تَفْسِيرٌ بِالْمَعِيَّةِ بِالْمَعْنَى العامِ فهذا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، وَإِنْ أَرَادَ بِنَصْرِهِ أَنَّهُ أَثَرٌ لِدَلِّكَ، فهذا صحيحٌ، فالمُفَسِّرُ لا يُعْتَرِضُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ احْتِمَالاً أَنَّهُ يَقُولُ: مَعِيَ بِنَصْرِهِ، بِمَعْنَى أَنَّ هَذِهِ المَعِيَّةُ سَيَكُونُ أَثَرُهَا النِّصْرُ.

فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ إِيمَانِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قولِهِ:

﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، وَوَجْهُ قُوَّةِ الإِيمَانِ أَنَّهُ فِي هَذَا المَقَامِ المُخْرَجِ الَّذِي لا يَرَى الإِنْسَانَ فِيهِ إِلا أَنَّهُ هَالِكٌ، ولهذا قال أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا يَهْدِي إِلَى الطَّرِيقِ
 الْمَعْنَوِيِّ يَهْدِي أَيْضًا إِلَى الطَّرِيقِ الْحَقِيقِيِّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، وَلَيْسَ
 الْمُرَادُ هُنَا هِدَايَةَ الْعِلْمِ وَالتَّوْفِيقَ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالْهِدَايَةِ لَطَرِيقِ النَّجَاةِ
 الَّتِي يَنْجُو بِهَا، فَهَدَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



الآية (٦٣)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣].

•••••

قال تعالى: ﴿ أَنْ أَضْرِبَ ﴾ وهذه لا يَصْلُحُ فيها: (أَنْ أَضْرِبَ)؛ لِأَنَّ (ضَرَبَ) لا يأتي رُبَاعِيًّا، ولهذا يجب كسر النون: ﴿ أَنْ أَضْرِبَ ﴾، و(أَنْ) هَذِهِ تفسيرية.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ فَضْرَبَهُ ﴿ فَانْفَلَقَ ﴾. [تقدير المُفَسِّرِ (فضربه) صحيح؛ لِأَنَّ الْبَحْرَ لم يَنْفَلِقْ بِمَجْرَدِ الْوَحْيِ، بل بِالضَّرْبِ، وفي قوله: ﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ﴾ إشارة إلى أن مُوسَى ﷺ بادرَ بِضَرْبِ الْبَحْرِ، وَأَنَّ الْبَحْرَ انْفَلَقَ حَالًا بَدُونِ تَأَخُّرٍ.

وَمَعْنَى ﴿ فَانْفَلَقَ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فانشقَّ اثني عشرَ فِرْقًا، ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ الْجبل الضخم، بينهما مسالكٌ سَلَكَوْهَا، لم يبتلَّ منها سَرَجُ الرَّاكِبِ ولا لَيْدُهُ].

يقول: ﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ وهذه العصا الَّتِي كَانَ يَحْمِلُهَا دَائِمًا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا، وَيُهَيِّسُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِهِ، وله فيها مَارِبٌ، فتكون هَذِهِ الْعَصَا فيها مِصَالِحٌ عَظِيمَةٌ، وفيها من آياتِ اللَّهِ ثلاثُ آياتٍ، هَذِهِ إِحْدَاهَا.

وَالثَّانِيَةُ: الثُّعْبَانُ، أَنَّهُ إِذَا أَلْقَاهَا صَارَتْ ثُعْبَانًا مُبِينًا.

والثالثة: إِذَا ضَرَبَ بِهَا الْحَجَرَ تَفَجَّرَ عِيُونًا.

فهذه ثلاث آيات، أما البقية: فالإتكاء عليها، والهشس بها على الغنم، ودفع الصائل، وما أشبه ذلك، فهذه ليست من الآيات، بل من الأمور المعتادة.

وقوله: ﴿الْبَحْرُ﴾ المراد به البحر الأحمر، ويُسمى بحر القلزم، هذا البحر انفلق ﴿فَكَانَ كُلُّ فَرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ كالجبل العظيم، يعني: لكبره وارتفاعه؛ لأن قاع البحر قوي عميق، فيكون كالطود العظيم للكبر وللارتفاع، وظاهره أنه عريض؛ لأن الطود العظيم يتناول الكبر والارتفاع والعرض، وهو كذلك، وهذا من آيات الله؛ لأن العصا إذا ضربت لا تتسع لمكان واسع، وهذه الأطواد - الاثنا عشر - مكانها بلا شك واسع، والطرق أيضًا ستكون واسعة.

ثم إن في هذه الضربة من آيات الله - غير انفلاق البحر - أنه صار يسسًا، يسس في الحال، قال تعالى: ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]، وهذا أيضًا من آيات الله، أن الله أزال عنهم الخوف وألقاه عنهم، وإلا فطبيعة البشر تقتضي إذا كان الماء على يمينه ويساره كالأطواد أن يخاف، ولكن الله سبحانه وتعالى ألقى عنهم الخوف، فلم يخافوا أبدًا.

وفي قوله: ﴿كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ظاهر أن الماء لم يتغير، يعني: لم يتجمد بالمعنى المعروف، فيكون أبيض جامدًا، ولكنه بقي جامدًا على طبيعته أسود، وهذا أعظم مما لو تجمد وهو على غير طبيعته لصارت فيه آية واحدة، وهي سرعة التجمد بهذه اللحظة، فكونه لا يسيل وهو جامد أمر طبيعي عادي، لكن كونه يبقى مائعًا ولكن لا يسيل، فهذا أبلغ من ذلك. ففيه آيتان: أنه لا يسيل، وأنه لا يسيل وهو على طبيعته، والله تعالى على كل شيء قدير.

وفيه أيضًا دليل على أنّ كل شيء يمثّل لأمر الله، وأن الله تعالى قادرٌ على قلب الأمور عن طبائعها، فضلًا عن تغير صفاتها، فهذه النار التي من طبيعتها الإحراق والحرارة كانت بردًا وسلامًا على إبراهيم في الحال، وهذا الماء الذي من طبيعته الإغراق والسيلان صار آمنًا وجامدًا لا يسيل بالنسبة لبني إسرائيل.

قال أهل العلم: إنه ما من آية أُعطيها أحدٌ من الأنبياء إلا وكانت للرسول عليه الصلاة والسلام، والآية المقابلة لهذا الأمر ما جرى لسعد بن أبي وقاصٍ لما أراد الغزو حيث خاض الماء^(١)، ولكن ما صار ييسًا، وهذا أبلغ؛ أنه يكون باقيا على طبيعته يجري كما هو، وهذه الخيول والإبل والمشاء يمشون عليها.

فإن قال قائل: هذه ليست بعهد النبي عليه الصلاة والسلام؟

فالجواب: كرامة أتباعه مُعجزة له.

فالحاصل أن يُقال: إن ما جرى لبني إسرائيل جرى لهذه الأمة مثله؛ وذلك لأن كرامة أتباع النبي مُعجزة له؛ إذ معنى الكرامة الشهادة بأن ما عليه هذا المكرم حق، فإذا كان أتباع النبي ﷺ جاء لهم شهادة بأن ما هم عليه حق، كان معنى ذلك أن ما جاء به الرسول ﷺ هو حق.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ اثني عشر فرقا، الاثنا عشر هذه ضرب اثنتي عشرة مرة أم ضربة واحدة فانفلق اثني عشر؟

فالجواب: لا، ضربة واحدة، فانفلق اثني عشر.

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم (١/٥٧٤، رقم ٥٢٢).

وإن قيل: كل اثني عشر ألفاً يدخلون من طريق؟

فالجواب: لا ندرى، كل اثني عشر ألفاً يدخلون من طريق أو عشرة آلاف

أو ألف

وإن قيل: كم عددهم؟

فالجواب: لا ندرى، هم على كل حال اثنتا عشرة قبيلة، فالأسباط في بني إسرائيل مثل القبائل في العرب، وهم اثنتا عشرة، لا نعرف كم عدد القبيلة؛ قد تقل أو تكثر، فيمكن كل قبيلة مثلاً خمس مئة نفر أو أكثر أو أقل.

فإن قال قائل: قوله: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ دليل على الكثرة؛ لأنه ينافي الحكمة لو أخبر الله سبحانه وتعالى أن الطريق عظيم وهم قليل؟ فالله سبحانه وتعالى جعل اثني عشر طريقاً لقبائل بني إسرائيل، وهم قليلون وينافي الحكمة، فلا بد أنهم كثيرون، وكل واحد كالتعود العظيم؟

فالجواب: كل فريق ليس معناه الطريق، فالماء الذي بينها مثل الجبال وليس نفس الطريق، ف﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: من الماء، فالماء الذي بينها مثل الجبال. وذكر بعض الذين ينقلون الإسرائيليات أنه صار بهذه الأطواد فرج ينظر بعضهم إلى بعض؛ زيادة في الأمن، ولكن الله تعالى أعلم هل هذا صحيح أو لا.

فإن قال قائل: فمن المقصودون في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ

رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]؟

فالجواب: هم الذين قالوا: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، هؤلاء المختارون.

فَإِنْ قِيلَ: كيف يكونون المختارينَ ثم يقولون: ﴿أَرَأَى اللَّهُ جَهْرَةً﴾؟!
فالجواب: نعم، لا شك أن هذا في الحقيقة مما يدلُّ على أنَّهم مهما بلغوا
بالكمالِ أئمتهم ليسوا كهذه الأمة.

فَإِنْ قِيلَ: الظاهرُ أنَّ إيمانهم ضعيفٌ؛ لأنهم وصلوا إلى حدِّ عبادة الصنم؟
قلنا: لا، هم طلبوا إلهًا، لكن مُنعوا، وقد عبدوا العجلَ بعد أن غاب عنهم
موسى. وهم على كلِّ حالٍ حتَّى لو كان إيمانهم ضعيفًا في أوَّل الأمر، ونحن لا نعلم
عن إيمانهم، لكن ظاهرُ الآياتِ أئمتهم منَّ عليهم بهذا لكمالِ إيمانهم، والإنسان إذا
توفرت لديه النعمة قد يختلف حاله، فهم خرجوا في الأوَّل وهم في قلة وفي
ضعف وفي خوف، وهم أقربُ إلى الإيمان مما إذا نُعموا بهذا النعيم؛ لأنَّ العادة أن
الإنسان إذا نُعم فإنه يَحْضُلُ منه الأشرُّ والبَطْر، هذا هي العادة.

فَإِنْ قِيلَ: هل يُمكنُ أن يُقالَ: إن هؤلاء الذين حصلَ منهم هذه الأشياءُ
أئمتهم ذرَّيتهم؟

فالجواب: الظاهرُ أئمتهم على حسبِ الأجيالِ المعروفةِ يتوالَّدون، والذين صاروا
في التَّيِّهِ وحرَّمت عليهم الأرض المقدَّسة أربعين سنةً فلاجلِ أن تتغيَّر أوضاعهم
وأحوالهم بإنشاءِ خلقٍ آخر.

المهم نَجْزِم أن إيمانهم في ذلك اليوم كان إيمانًا جيِّدًا قويًّا حينما أغرق فرعون،
ولهذا نُصروا هذا النصرَ العظيمَ على فرعون؛ لأنَّ سياقِ الآياتِ يدلُّ على هذا.

فَإِنْ قِيلَ: إن إيمانهم ضعيفٌ بقريته ما حصل؟

قلنا: ما حصل بعد، والإنسان يتغيَّر.

فَإِنْ قِيلَ: المهاجرونَ لَمَّا آمَنُوا إِيْمَانًا قَوِيًّا، والأنصار لما آمَنُوا إِيْمَانًا قَوِيًّا ما صار منهم شيءٌ مثلما حصلَ من بني إِسْرَائِيلَ؟

قلنا: لا نَقارَنُ بني إِسْرَائِيلَ بهذه الأُمَّة، فمسألة المقارنة غيرُ واردة؛ لِأَنَّهُ لا سواء، بنو إِسْرَائِيلَ ابْتَلُوا بِالْحَيْتَانِ فلم يَصْبِرُوا وتَحَمَّلُوا، وهذه الأُمَّة ابْتَلُوا بِالصَّيْدِ وهم مُحْرَمُونَ فَصَبَرُوا، وغيره، وغيره، فلا تقارن إِيْمَانَ هَذِهِ الأُمَّة بِإِيْمَانِ مَنْ سَبَقَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أنا لا أَقْصِدُ المقارنةَ، ولكن أَقْصِدُ أن الإِيْمَانَ إِذَا كَانَ جَيِّدًا فِي البَدَايَةِ فَالغالبُ أَنَّهُ تَصْرَفَ عَنْهُ مِثْلَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ الخَطِيرَةِ، وإلا فَالصغائرُ أَمْرُهَا أَقْلَ خَطَرًا.

قلنا: عَلَى كُلِّ حَالٍ هم حينذاك لا شك أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ؛ لِأَنَّهُمْ شَاهَدُوا الإِيْمَانَ وَوَرِثُوا الأَرْضَ، ولا مانع أن تطرأ لهم أحوال يتغيرون بها.

فَإِنْ قِيلَ: لو لم يكونوا مُؤْمِنِينَ لَمَّا صَبَرُوا عَلَى أَذَى فِرْعَوْنَ حينما قَطَعَ أَرْجُلَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ من خِلافٍ، وهذا دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ إِيْمَانِهِمُ العَظِيمِ.

قلنا: لا، هُوَ لَئِ السَّحَرَةُ لا شك فِي قُوَّةِ إِيْمَانِهِمُ، والسَّحَرَةُ من آلِ فِرْعَوْنَ. وهم غيرُ الَّذِينَ ذَهَبُوا مع مُوسَى، فَالكَلَامُ عَنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ غيرُ السَّحَرَةِ، فَالسَّحَرَةُ من القِبْطِ من آلِ فِرْعَوْنَ.

فَنقول: الأَصْلُ أن إِيْمَانِهِمُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ قَوِيٌّ، هَذَا هُوَ الأَصْلُ، وَإِنَّ النِّصْرَ إِنَّمَا يَسْتَحِقُّهُ المُؤْمِنُونَ، وَإِنَّمَا يَرِثُ الأَرْضَ عِبَادُ اللهِ الصَّالِحُونَ، لَكِن لا مانعَ من أن تطرأ أحوالٌ، وتَتَجَدَّدَ أَعْمَالٌ، فَيُنْصَرِّفُونَ هم أو بعضهم عن الحقِّ.

فهذا الجدُل لا فائدة فيه، نحن نقول: إن من انتصر فهو مؤمنٌ حقًا، ومن نصره الله وأورثه الديار فهو من عبادِ الله الصالحين، هذا الأصل. ثم إذا طرأت أحوالٌ نقول: الله أعلمُ كيف تطوّرت هذه الأحوال، ففي الحقيقة ليس في هذا فائدة، وليست المسألة عمليّة نُطبّقها حتّى نُحقّق كيف نعمل، فقد قصّ الله علينا في هذه المسألة أحوالاً لبني إسرائيل تدلُّ على أن هؤلاء القوم آمنوا وطرأت عليهم أحوالٌ، وبالنظر إلى أحوالهم العامّة نعرف أن إيمانهم ليس كإيمان هذه الأمة، وأن هذه الأمة أكمل في إيمانها، وأكمل عملاً.

فإن قيل: هل نستنتج من هذا أنّه من الممكن أن يكون هناك إيمان كامل في البداية ثم ينقص نقصاً شديداً إلى أن يصل إلى حدٍّ ما وصلوا إليه؟

فالجواب: هذا ممكنٌ، وليس هناك إشكال أن الإيمان حاصل، لكن الذي أشكل أنّه كيف تطورت الأحوال إلى أن يقولوا: ﴿أَجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ إِلَهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وهذا لا يمنع أن بعضهم قال هذا، أو تقلّبت بهم الأحوال، فالله أعلم.

فإن قال قائل: ما المقصود بالفرق؟

فالجواب: الفرق: الطائفة من الماء، فصار كل فريق وقطعة منه مثل الطود العظيم.

فإن قيل: ما الغرض من ذكر عهد أسلافهم؟

فالجواب: من الممكن أن الله يُذكرهم بعيوبهم السابقة لعلهم يرتدعوا، أو يُذكرهم بهذا لبيان أن هذا من عاداتهم وسجّيتهم، فهو بين أمرين:

■ إما أن يبين عيبتهم لعله يُصْلِح من أحوالهم، ويكون ما صلح من أحوال باقيهم كالهادم لما سبق.

■ وإما أن يُقال: إن هذا بيان؛ لأن هذه طبيعتهم وسجيتهم مثلاً، فيكون فيه مع التوبيخ هؤولاءِ تسليّة للرسول ﷺ وأصحابه.

فإن قيل: وماذا عن أحوالهم الآن؟

فالجواب: ما صاروا عليه أخبث؛ لأنهم صاروا كفاراً؛ لأنه بعد بعثة الرسول ﷺ، بل بعد بعثة عيسى عليه الصلاة والسلام وكفرهم به صاروا كفاراً وليس فيهم إيمان أبداً.

ولا شك أن عندهم عتواً، ومن أراد أن يعرف عن أحوالهم شيئاً فليراجع (إغاثة اللّهفان) لابن القيم، لكن الكلام عن الذين أورتوا أرض فرعون في ذلك الوقت، ما لنا في الحقيقة حق أن نقول: إيمانهم كامل، أو إيمانهم ناقص، إنما نعرف من قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، أنهم في ذلك الوقت صالحون فقط، وتغير الأحوال بعد ذلك الوقت واضح.

فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تمام قدرة الله عز وجل بفلق البحر، وتيسيره في الحال.

الفائدة الثانية: فيها دليل على أن لكل شيء سبباً، حتى الآيات التي يجعلها الله على يد الشخص لها سبب؛ فإن الله تعالى لم يفلق البحر إلا بعد أن أوحى إلى موسى أن اضرب البحر بعصاك، فضربه فانفلق.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: وفيها أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ هَذَا الْمَاءَ كَالْأَطْوَادِ - كَالْجِبَالِ الْعَظِيمَةِ - عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَشَمَائِلِهِمْ، لِيَكُونَ فِي عُبُورِهِمْ؛ حَتَّى لَا يَأْخُذَهُمُ الْعُجْبُ وَالْعُلُوُّ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَطْوَادَ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ بِمَنْزِلَةِ نَوَاقِيسِ الْإِنْدَارِ، يَخَافُونَ وَيَرْهَبُونَ إِذَا كَانَ الْمَاءُ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَشَمَائِلِهِمْ مِثْلَ الْأَطْوَادِ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ اسْتِغْنَاءً عَنِ الْخَوْفِ، فَيَكُونُونَ بَيْنَ الْخَوْفِ وَبَيْنَ الرَّجَاءِ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِيهَا أَيْضًا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ - فَوْقَ تَفْلِيْقِ الْمَاءِ - إِثْبَاتُ الْمَاءِ جَامِدًا حَتَّى لَا يَسِيلَ، وَاللَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].



الآيات (٦٤ - ٦٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَزَلَفْنَا نَمَّ الْأَخْرَيْنَ ﴿٦٤﴾ وَأَجْنَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثَمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرَيْنَ ﴾ [الشعراء: ٦٤-٦٦].

• • • • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَأَزَلَفْنَا﴾ قَرَّبْنَا ﴿نَمَّ﴾ هُنَاكَ ﴿الْأَخْرَيْنَ﴾ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ حَتَّى سَلَكُوا مَسَالِكَهُمْ، [الإزلاف: بِمَعْنَى الإِقْرَابِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠]، أَي: قَرَّبَتْ

وقوله: ﴿نَمَّ﴾ أَي: هُنَاكَ عِنْدَ الْبَحْرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿الْأَخْرَيْنَ﴾ يَعْنِي فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، قَرَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْبَحْرِ، فَرَأَوْا هَذِهِ الطَّرِيقَ مَفْتُوحَةً أَمَامَهُمْ، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ دَخَلُوهَا؛ لِأَنَّهَا طَرِيقٌ أَمَامَهُمْ رَأَوْا مُوسَى وَقَوْمَهُ قَدْ عَبَرُوا مِنْهَا، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَلَمَّا تَكَامَلَ هَؤُلَاءِ دَاخِلِينَ وَهَؤُلَاءِ خَارِجِينَ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَجْنَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ يَقُولُ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ عَلَى هَيْئَتِهِ الْمَذْكُورَةِ]، وَهَذَا إِنْجَاءٌ مِنْ أَعْظَمِ الْمَنَنِ، ﴿ثُمَّ﴾ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿أَغْرَقْنَا الْأَخْرَيْنَ﴾ يَقُولُ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِإِطْبَاقِ الْبَحْرِ عَلَيْهِمْ لَمَّا تَمَّ دُخُولُهُمْ فِي الْبَحْرِ وَخُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْهُ]، فَانْتَقَمَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَأَغْرَقَهُمُ بِالْمَاءِ الَّذِي كَانَ يَفْخَرُ بِهِ فِرْعَوْنُ مِنْ قَبْلُ، فَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِقَوْمِهِ مُفْتَحِرًا: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، فَهُوَ افْتَخَرَ عَلَى قَوْمِهِ بِأَنَّ الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ، وَهِيَ مَاءٌ، فَأَغْرَقَ بِمَا كَانَ يَفْخَرُ بِهِ.

وهذا من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَنَّ اللهَ يُغْرِقُ الْمُعْجَبِينَ؛ إِمَّا بِمَا أُعْجِبُوا بِهِ،
 وَإِمَّا بِمَا هُوَ أَهْوَنُ شَيْئًا. فَعَادُ لَمَّا قَالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، أَهْلِكُوا
 بِاللِّطْفِ الْأَشْيَاءِ، وَهِيَ الرِّيحُ.



الآية (٦٧)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٧].

• • • • •

يقول المُفسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ إغراقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿ لَآيَةً ﴾، [وتفسيرُ المُفسِّرِ لِلْمِشَارِ إِلَيْهِ فِيهِ قُصُورٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَتْ الْآيَةُ بِإِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ فَحَسَبَ، وَلَكِنْ بِفُلْقِ الْبَحْرِ، وَكَوْنِهِ يَبَسًا، وَإِنجَاءِ مُوسَى وَقَوْمِهِ، وَإِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَلَوْ قِيلَ: إِنَّ الْإِشَارَةَ تَعُودُ إِلَى كُلِّ مَا ذَكَرَ، يَعْنِي: إِنَّ فِي ذَلِكَ الْمَذْكُورِ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى ﴿ لَآيَةً ﴾ عِلَامَةً عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعَلَى نَصْرِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، فَيَكُونُ مُتَضَمَّنًا لِتَسْلِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَحْذِيرِ الْمُخَالِفِينَ لَهُ؛ لَكَانَ أَوْلَى.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ لَآيَةً ﴾ عِبْرَةٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، وَاللَّامُ لِلتَّأْكِيدِ، وَمَحَلُّهَا لَامُ الْإِبْتِدَاءِ الَّتِي تَكُونُ فِي أَوَّلِ الْجُمْلَةِ: (لِئِنَّ فِي ذَلِكَ)، لَكِنْ قَالَ التَّحْوِيلُونَ فِي تَعْلِيلِهِمْ هَذَا: إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَجْتَمِعَ مُؤَكِّدَانِ مُتَوَالِيَانِ، فَأَخْرَجُوا اللَّامَ إِلَى مَا تَأَخَّرَ مِنْ خَبَرٍ إِنَّ وَاسْمَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ هَلْ هَذَا حَقِيقَةٌ أَمْ أَنَّ الْعَرَبَ نَطَقُوا بِهَا هَكَذَا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ بِاللَّهِ، فَلَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ غَيْرَ أَسِيَّةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَحَزْقِيلَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمَ بِنْتِ نَامُوصَى، الَّتِي دَلَّتْ عَلَى عِظَامِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. [يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ يَعْنِي: أَكْثَرُ قَوْمِ مُوسَى الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أَي: أَكْثَرُ النَّاسِ

المخاطبين بهذا القرآن، يعني: هَذَا فِيهِ آيَةٌ لَكِن مَّا كَانَ أَكْثَرَ الْمَخَاطِبِينَ بِهِ مُؤْمِنِينَ بِهِ. والأولى أن يُقال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى الَّذِينَ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ، لَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَوْ آلِ فِرْعَوْنَ.

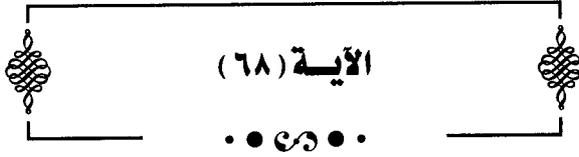
وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُ فَنَقُولُ: أَمَّا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنُ، فَصَحِيحٌ أَنَّهَا آمَنَتْ، وَأَمَّا مُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ فَصَحِيحٌ أَنَّهُ آمَنَ، لَكِن تَسْمِيَّتُهُ بِحَزَقِيلٍ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، وَالثَّلَاثَةُ مَرْيَمُ بِنْتُ نَامُوصَى، هَذِهِ لَا نَدْرِي بَعْدُ مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ؟! وَمَا سَمِعْنَا بِهَا إِلَى الْآنَ، وَقَوْلُهُ: [الَّتِي دَلَّتْ عَلَى عِظَامِ يُوسُفَ]، هُوَ ابْنُ يَعْقُوبَ، وَلَا نَدْرِي أَيْنَ عِظَامُهُ، ثُمَّ إِذَا دَلَّتْ عَلَى عِظَامِهِ فَهِيَ إِلَى الدَّمِّ أَقْرَبُ مِنَ المَدْحِ؛ لِأَنَّ العِظَامَ مُحْتَرَمَةٌ، وَالمَفْرُوضُ أَنَّهَا لَا تُنْبَسُ وَلَا يُسْأَلُ عَنْهَا، ثُمَّ إِنْ قَوْلُهُ: [عِظَامِ يُوسُفَ]، هَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّهُ تَبَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأنْبِيَاءِ^(١)، فَكَيْفَ يُقَالُ: مَا بَقِيَ إِلَّا عِظَامُهُ؟!

الحاصل أن مثل هذه الإسرائيليات يُؤسَفُ مِنَ المُفَسِّرِ وَمَنْ غَيْرِهِ أَنْ يُقْلُوهَا.

فِي أَنْ قِيلَ: بِإِمْكَانِ فِرْعَوْنَ أَنْ يَعُومَ فِي المَاءِ؟

فالجواب: هَذَا لَيْسَ مَحَلَّ العُومِ؛ لِأَنَّهُ انْطَبَقَ عَلَيْهِمُ المَاءُ فِي أعْمَاقِ البَحْرِ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ، ثُمَّ إِنْ العَذَابَ إِذَا نَزَلَ لَا تَنْفَعُ فِيهِ سَبَاحَةٌ وَلَا غَيْرُهُ، فَأَظُنُّ قَبْلَ ثَلَاثِ سِنُواتِ نَزَلَ عَلَى مَحْطَّةِ الكَهْرِبَاءِ فِي نِيُوبُورِكِ صَوَاعِقُ مَعَ أَنَّ عِنْدَهُمْ مَانِعَاتُ صَوَاعِقَ فَقَلَعَتِ الأَعْمَدَةَ، فَمَا نَفَعَهَا.

(١) أخرجه أبو داود: تفریع أبواب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة ولیلۃ الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥).



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٦٨].



قوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ هَذَا مِمَّا يُؤَيِّدُ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ؛ أَنَّ الْمُرَادَ بِأَكْثَرِهِمْ: الَّذِينَ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ، وَلِهَذَا أَضَافَ الرُّبُوبِيَّةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ ﴾؛ لِأَنَّهَا تَقْتَضِي الْعِنَايَةَ الْخَاصَّةَ بِالرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أَتَى بِاللَّامِ الدَّالَّةَ عَلَى التَّأْكِيدِ؛ لِتَكُونَ الْجُمْلَةُ مُؤَكَّدَةً بِمُؤَكِّدَيْنِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: الْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَحَالَهُ لَا يَقْتَضِي التَّأْكِيدَ؛ لِأَنَّهُ مَقْرَرٌ، وَمِنْ قَوَاعِدِ الْبَلَاغَةِ أَنَّهُ لَا يُؤَكَّدُ الْكَلَامُ إِلَّا لِلْمُتَرَدِّدِ أَوْ لِلْمُنْكَرِ؛ فَإِنْ كَانَ لِلْمُتَرَدِّدِ فَهُوَ اسْتِحْسَانٌ، وَإِنْ كَانَ لِلْمُنْكَرِ فَهُوَ وَجُوبٌ، يَعْنِي التَّأْكِيدَ، وَهَذَا أَكَّدَ بِمُؤَكِّدَيْنِ مَعَ أَنَّ الْخُطَابَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُقَرَّرٌ بِذَلِكَ؟

فَيُقَالُ: إِنَّ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ الَّتِي ذَكَرْهَا لَيْسَتْ عَلَى إِطْلَاقِهَا، بَلْ فِيهَا قُصُورٌ؛ فَإِنَّ الشَّيْءَ يُؤَكَّدُ بِاعْتِبَارِ حَالِ الْمَخَاطَبِ، وَحِينَئِذٍ نَقُولُ: إِذَا كَانَ مُتَرَدِّدًا فَيَحْسُنُ تَأْكِيدُهُ، وَإِذَا كَانَ مُنْكَرًا فَيَجِبُ تَأْكِيدُهُ، كَذَلِكَ يُؤَكَّدُ الْكَلَامُ بِاعْتِبَارِ أَهْمِيَّتِهِ، فَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ مَوْضِعَ اِهْتِمَامٍ فَإِنَّهُ يُؤَكَّدُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ الْمَخَاطَبُ مُقَرَّرًا بِهِ؛ لِيَبَانَ اِعْتِنَاءُ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ، فَهَذَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مُهِمَّةٌ جَدًّا.

ثم يُقال أيضًا: إن الآية ذكرت تسليّة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومن جهةٍ أُخرى تهديدًا للكفّار، والكفّار قد يشكّون - أو يُنكّرون - في عِزَّةِ اللهِ ورحمته، فلهذا جمع بينهما مؤكّدًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فانتقم من الكافرين بِإِعْرَاقِهِمْ، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ، فَأَنْجَاهُمْ مِنَ الْغَرَقِ، يَقْرُنُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى دَائِمًا بَيْنَ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ، وَأحيانًا فِي مِثْلِ هَذِهِ السُّورَةِ بَيْنَ الْعِزَّةِ وَالرَّحْمَةِ.

وبينَ الوصفينِ أو الاسمينِ تناسبٌ ظاهرٌ، أمّا العِزَّةُ والحِكمةُ فالتناسبُ بينهما هُوَ أَنَّ الْعَزِيزَ هُوَ الْغَالِبُ الْقَاهِرُ، وَالْغَالِبُ الْقَاهِرُ إِنْ لَمْ تَكُنْ فِي عِلْبَتِهِ حِكْمَةٌ صَارَ تَصَرَّفَهُ غَيْرَ مَحْمُودٍ؛ لِأَنَّهُ يَتَصَرَّفُ مِنْ مِصْدَرِ الْقُوَّةِ، وَإِذَا كَانَ يَتَصَرَّفُ مِنْ مِصْدَرِ الْقُوَّةِ وَلَا حِكْمَةَ عِنْدَهُ صَارَ يَبْطِشُ بَطْشًا فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَرَبِّمَا يَتْرُكُ مَا يَنْبَغِي فِيهِ الْبَطْشُ، فَجَاءَتِ الْحِكْمَةُ مُقْتَرِنَةً بِالْعِزَّةِ، وَأَمَّا هُنَا فَلَمَّا كَانَ فِي سِيَاقِ الْآيَاتِ يَتَضَمَّنُ مَا تَقْتَضِيهِ الرَّحْمَةُ وَيَتَضَمَّنُ مَا تَقْتَضِيهِ الْعِزَّةُ، فَإِهْلَاكُ فِرْعَوْنَ يَقْتَضِي أَنْ يُقَابَلَ بِالْعِزَّةِ، وَإِنْجَاءُ مُوسَى يَقْتَضِي أَنْ يُقَابَلَ بِالرَّحْمَةِ لِأَنَّهُ مِنْ مَقْتَضَاهُ؛ جَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمَا.



الآيتان (٦٩، ٧٠)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿الشعراء: ٦٩-٧٠﴾.

• • ❦ • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: كَفَّار مَكَّةَ، وَالصَّوَابُ: أَي: عَلَى النَّاسِ الَّذِينَ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِمْ. وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَلَا عَلَى النَّاسِ، حَتَّى إِنَّا نَقُولُ: هُوَ تَلَا عَلَيْهِمْ، حَتَّى فِي هَذَا الْعَصْرِ وَفِيمَا بَعْدَهُ فَقَدْ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ هَذَا النَّبَأَ.

وقوله: ﴿نَبَأٌ﴾: خبر، ولكن لا يكون النبأ إلا في الأمور الهامة، والخبر يكون فيها وفي غيرها، لكن النبأ لا يكون إلا في الأمور الهامة، وهذا النبأ هامٌ جداً؛ لِمَا يَتَّصِفُهُ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْمُنَاطَرَةِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿نَبَأٌ﴾ خَبْرٌ ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وَيُبَدَّلُ مِنْهُ، أَي: مِنْ ﴿نَبَأٌ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾، فَتَكُونُ (إِذْ) هُنَا فِي مَحَلِّ نَصْبٍ بَدَلًا مِنْ (نَبَأٌ). وَإِبْرَاهِيمَ هُوَ خَلِيلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُوَ مَعْرُوفٌ.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أبوه اسمه: آزر، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيِّهِ آازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وأما قومه فالَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يُبْعَثْ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَإِنَّمَا بُعِثَ إِلَى قَوْمِهِ كَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ.

فَإِنْ قِيلَ: ورد في بعض التفاسير أنَّ (آزر) لَقَبٌ^(١)؟

فالجواب: ليس بصحيح.

وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ (ما) للاستفهام، والمراد به الإنكار والتعجب أيضًا،

أي أنه ينكر متعجبًا.



(١) انظر تفسير القرطبي (٧/٢٢).

الآية (٧١)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَنكِيفِينَ ﴾ [الشعراء: ٧١].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾ صَرَّحُوا بِالْفِعْلِ؛ لِيَعْطِفُوا عَلَيْهِ: ﴿ فَنَنْظِلُّ لَهَا عَنكِيفِينَ ﴾، [أَصْنَامًا] جمع صنم، والمرادُ بالصنمِ كُلُّ مَا اتُّخِذَ إِلَهًا مَعَ اللَّهِ، سِوَاءَ كَانُ شَجَرًا أَوْ حَجَرًا، أَمْ غَيْرَهُمَا، وَلَكِنْ هَلْ يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا؟ الظاهرُ عدمُ اشتراطِهِ وأنه لَيْسَ شرطًا، وأنه قد لا يكونُ منصوبًا، فقد يكونُ مَبْطُوحًا وَمُضْجَعًا، وَغَيْرَ قَائِمٍ.

وقول المُفسِّر: [صَرَّحُوا بِالْفِعْلِ لِيَعْطِفُوا عَلَيْهِ] ﴿ فَنَنْظِلُّ لَهَا عَنكِيفِينَ ﴾. هَذِهِ مَنَاسِبَةٌ لَفْظِيَّةٌ قَدْ تَكُونُ مَقْصُودَةً وَقَدْ لَا تَكُونُ مَقْصُودَةً. قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: لَوْ قَالُوا: (أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ)، لَكَانَ الْمَعْنَى مُسْتَقِيمًا، وَلَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِ الْجُمْلَةِ لِيَعْطِفَ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّا نَرَى أَنَّهُ تَأْتِي أحيانًا جُمْلٌ عَطِفَ عَلَيْهَا جُمْلٌ وَهِيَ مَحذُوفَةٌ، مِثْلُ: ﴿ أَوْلَمَّ يَسِيرُوا ﴾ [الروم: ٩]، ﴿ أَوْلَمَّ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ [السجدة: ٢٦]، عَلَى أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ.

وَلَكِنْ الصَّحِيحُ أَنَّهُمْ صَرَّحُوا بِالْفِعْلِ؛ إِظْهَارًا لِفِعْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ يَفْتَخِرُونَ بِهِ، يَعْنِي: يُحَقِّقُونَ الْعِبَادَةَ وَيَفْتَخِرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ؛ لِأَنَّ التَّصْرِيحَ بِالْعِبَادَةِ لِلْمَعْبُودِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ فَخُورٌ بِهَا: قَالُوا: ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾، يَعْنِي: فَهَمُ أَظْهَرُهَا تَأْكِيدًا وَافْتِخَارًا بِهَا، هَذَا الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَأَمَّا لِأَجْلِ الْعَطْفِ فَهَذَا الْعَطْفُ نَقُولُ:

يَصِحُّ بدون ذِكْرِهِ، وهذا لَيْسَ بمقصودِهِ فيما يبدو، وإِنَّمَا المقصود هُوَ تأكيدُ هذا، والافتخارُ به، مثلما يقول لك القائل: «أنتَ تفعل كذا؟»، فتقول: «نعم أفعله»، لو قلت: «نعم» لَكَفَى، لكن: «أفعله» من بابِ تأكيدِهِ والافتخارِ به، فهم كذلك يقولون: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ مؤكِّدين لعبادتها مفتخرينَ بها.

قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿فَنَظَّلْ لَهَا عَنكِيفِينَ﴾ نقيم نهارًا على عِبَادَتِهَا، زادوه في الجوابِ افتخارًا به]، صحيح، قالوا: [﴿فَنَظَّلْ لَهَا عَنكِيفِينَ﴾ وَهُوَ مَا سَأَلَهُمْ: هل أَنْتُمْ تَدُومُونَ على عِبَادَتِهَا أم لا؟ لكنهم زادوا على هذا وقالوا: ﴿فَنَظَّلْ﴾ يعني: نَسْتَمِرُّ ﴿لَهَا عَنكِيفِينَ﴾ .

وقوله: ﴿لَهَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿عَنكِيفِينَ﴾ وتقديمُهُ عليه يفيد الحصرَ، يعني: إِنَّمَا نَعْكُفُ لَهَا لا غيرها. ويقول المفسِّر: [زادوه في الجوابِ افتخارًا به]، وَهُوَ كذلك، ثم إِصرارًا وعنادًا، يعني: لسنا نعبدها وقتًا دونَ وقتٍ، بل نعبدها ونستمرُّ على عِبَادَتِهَا.

وقول المفسِّر: [نهارًا]، أخذها من قولهم: إِنَّ (ظَلًّا) فَعَلٌ يَدُلُّ على وقوع الشيء نهارًا، وهذا هُوَ المعروفُ عندَ النَّحْوِيِّينَ، والذي يَظْهَرُ أَنَّهَا تدلُّ على وقوع الفعلِ باستمرارٍ، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، أَيَّ وقتٍ يُبَشِّرُ بها يَسْتَمِرُّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا لَيْلًا ونهارًا، فالصوابُ أَن هذا الفعلُ يُشْعِرُ بالاستمرارِ، ولا يَحْتَصِّصُ بالنَّهارِ كما قاله المفسِّر وغيره.



الآية (٧٢)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢].

• • ❁ • •

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ﴾ حِينَ ﴿تَدْعُونَ﴾]، (إِذْ) هَذِهِ ظَرْفٌ لِلْفِعْلِ (يَسْمَعُونَ)، و(هَلْ) لِلِاسْتِفْهَامِ الْمُرَادِ بِهِ الْإِنْكَارَ مَعَ التَّحْدِي، يَعْنِي: يَتَّحِدَانِ، يَقُولُ: هَذِهِ الْأَصْنَامُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا وَتَسْأَلُونَهَا الْحَوَائِجَ ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾؟ وَالْجَوَابُ: لَا.

• • ❁ • •

الآيتان (٧٣، ٧٤)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٣-٧٤].

•••••

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾] إِنْ عَبْدْتُمُوهُمْ ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ كُمْ إِنْ لَمْ تَعْبُدُوهُمْ، أَي: أَوْ يَضُرُّونَكُمْ إِنْ لَمْ تَعْبُدُوهُمْ؟ وَالْجَوَابُ: لَا.

هُمْ أَقْرَأُوا: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يَعْنِي أَنَّهَا لَا تَسْمَعُ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَإِنَّمَا فَعَلْنَا ذَلِكَ تَقْلِيدًا فَقَطْ مَحْضًا لِآبَائِنَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ فَدَرَّ الْمَفْسِّرُ الْمَفْعُولَ بِقَوْلِهِ: (يَضُرُّونَكُمْ) وَحِينَئِذٍ نَسَأَلُ: مَا الْحِكْمَةُ فِي حَذْفِ الْمَفْعُولِ؟

الْحِكْمَةُ هِيَ بِالنِّسْبَةِ لِأَخْرِ الْآيَةِ لَفْظِيَّةً، وَهِيَ مِرَاعَاةُ الْفَوَاصِلِ، وَبِالنِّسْبَةِ لِلْعُمُومِ مَعْنَوِيَّةً؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعْبُدُ الشَّيْءَ لَا يَرِيدُ أَنْ يَضُرَّهُ، بَلْ يَرِيدُ أَنْ يَنْفَعَهُ، وَهَذَا قَالَ: ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾، أَمَا أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَضُرَّهُ فَلَا، نَعَمْ يَرِيدُ أَنْ يَضُرَّ غَيْرَهُ، فَقَدْ يَعْبُدُ هَذَا الشَّيْءَ لِيَدْعُوهُ أَنْ يَضُرَّ عَدُوَّهُ، فَالْحَذْفُ هُنَا لِلْعُمُومِ، يَصِيرُ إِمَّا: أَوْ يَضُرُّونَكُمْ إِنْ لَمْ تَعْبُدُوهُمْ، أَوْ: أَوْ يَضُرُّونَ عَدُوَّكُمْ إِذَا عَبْدْتُمُوهُمْ.

وَجَوَابُ هُوَ لَا: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مَعْنَاهُ أَتَمُّوا أَنْ

تَسْمَعُهُمْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ، أو تَنْفَعُهُمْ، أو تَضُرُّهُمْ، ولكنهم وَجَدُوا آبَاءَهُمْ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، يعني: يفعلون كذلك، يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ.

والكافُ اسمٌ بِمَعْنَى (مثل)، و(ذا) اسمٌ إشارةٌ تَعُودُ إِلَى الفِعْلِ، يعني: مثل ذلك الفعل يَفْعَلُونَ. ومحلُّ الكافِ بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ النصبُ عَلَى أَتَمِّهَا مفعولٌ مُطْلَقٌ، أي: يفعلون مثلَ فِعْلِنَا، وليتَ أَنَّ المُفَسِّرَ جَعَلَ [أي مثل فعلنا]، قبل ﴿يَفْعَلُونَ﴾؛ لِأَنَّ تَأخِيرَهُ عَنِ الفِعْلِ يُؤهِمُ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ مفعولُ الفِعْلِ مَحْدُوفًا، أي: مثل فعلنا، والصوابُ أَنَّهُ موجودٌ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ﴾، فَيَحْسُنُ بِهِ أَنْ يُقَدَّمَ [مثل فعلنا]، عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يَفْعَلُونَ﴾: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل فعلنا ﴿يَفْعَلُونَ﴾. ولصار ما لهم حُجَّةٌ إِلَّا التَّقْلِيدَ الْأَعْمَى فَقَطْ، أَنَّهُمْ وَجَدُوا آبَاءَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ فَسَلَكُوهَا.



الآيات (٧٥ - ٨٦)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿٧٥﴾ قَالَ أَوْءَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٦].

قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ قَالَ أَوْءَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴿٧٦﴾ لَا أَعْبُدُهُمْ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿٧٦﴾ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ فَإِنِّي أَعْبُدُهُ، ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ إِلَى الدِّينِ، ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ ﴿ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ الْجَزَاءِ، ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴿٨٣﴾ وَعِلْمًا ﴿ وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ النَّبِيِّينَ، ﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ ﴿٨٤﴾ ثَنَاءً حَسَنًا ﴿ فِي الْآخِرِينَ ﴾ الَّذِينَ يَأْتُونَ بَعْدِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ مِمَّنْ يُعْطَاهَا، ﴿ وَأَغْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ بِأَنْ تُتُوبَ عَلَيْهِ فَتَغْفِرَ لَهُ وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ كَمَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ [اه (١)].

(١) لم يوجد تسجيل صوتي لتفسير هذه الآيات، ولهذا نُقل تفسيرها من تفسير الجلالين رحمهما الله تعالى.

الآية (٨٧)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧].

فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: في الآية إثبات البعث.

الفائدة الثانية: وفيها أيضاً أن كل إنسان مُفتقر إلى الدعاء حتى الأنبياء؛ لأنَّ

إبراهيم عليه الصلاة والسلام دعا الله سبحانه وتعالى بذلك.

الآيتان (٨٨، ٨٩)

• • ❁ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[الشعراء: ٨٨-٨٩].

• • ❁ • •

ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، فالْمَالُ وَالْبَنُونَ لَا يَنْفَعُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، وَفِي هَذَا الْإِسْتِثْنَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَدَارَ عَلَى الْقَلْبِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ سَلِيمًا، وَسَلَامَتُهُ يَقُولُ الْمُفَسِّرُ: [مِنَ الشَّرْكِ وَالتَّفَاقُ]، وَلَكِنْ هُوَ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ: سَلَامَتُهُ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ أَوْ قَوْلٍ، وَلِلْقَلْبِ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، أَمَّا قَوْلُهُ فَأِقْرَارُهُ، وَأَمَّا عَمَلُهُ فَهُوَ تَحْرُكُهُ مِنْ رَجَاءٍ، وَخَوْفٍ، وَمَحَبَّةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا تَنْفَعُ الْأَمْوَالُ وَلَا الْبَنُونَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، خِلَافَ مَا كَانَ النَّاسُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْأَمْوَالَ وَالْبَنِينَ تَنْفَعُ، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ لَا تَنْفَعُ.

الفائدة الثانية: وَفِيهَا كَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى فَضِيلَةِ الْقَلْبِ السَّلِيمِ؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ لِاسْتِفَادَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ مَالِهِ وَبَنِيهِ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ.

• • ❁ • •

الآيات (٩٠ - ٩٣)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُنْقِنِ ﴿٩٠﴾ وَبَرَزْتِ الْجَحِيمَ لِلغَاوِينِ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٠-٩٣].

•••••

قوله: ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ يقول المفسر: [أي غيره]؛ لِأَنَّ (دون) تأتي بِمَعْنَى: غير وسوى، وتأتي بِمَعْنَى: أقل، فعندما تقول: هَذَا دُونَ هَذَا، يعني: أقل منه، حَسَبَ السِّيَاقِ.

قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ ﴾ بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْكُمْ، وَالْجَوَابُ: لَا، مَعَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا تَنْفَعُهُمْ، وَلَكِنَّهَا فِي الْوَاقِعِ لَا تَنْفَعُهُمْ، بَلْ تَضُرُّهُمْ ﴿ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴾ بِدَفْعِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ؟ [لا].

فإذا كانوا لا ينصرون ولا ينتصرون، فلا خيرَ فيهم ولا في عبادتهم.

وفي قوله: ﴿ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ تُعَذِّبُ وَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ، كَمَا جَاءَ فِي الْآيَاتِ الْأُخْرَى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، لَكِنْ إِذَا كَانَ الَّذِي يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِمَّا كُتِّفَ فَإِنَّ رِضْيَ عِبَادَتِهِمْ فَهُوَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَرْضَ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، أَي: لَا يَدْخُلُونَ النَّارَ.

فإذا قيل: ما فائدة إدخال الأصنام النار وتعذيبها مع أنّها لا تفهم؟
قلنا: إهانة لعبديها؛ لأنّ هذا فيه من الإهانة وبيان أنّها لا تنفع ما هو ظاهر.

فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى والثانية: في ذلك دليل على إثبات الجنة؛ لقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾، وأن أهلها هم المتّقون، وهم الذين فعلوا ما يقيهم من عذاب الله بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

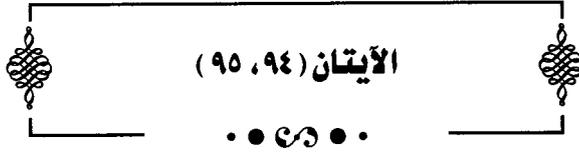
الفائدة الثالثة: وفي ذلك دليل على إثبات النار؛ لقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾.

الفائدة الرابعة: فرّق الله سبحانه وتعالى بين التعبيرين في إزلاف الجنة وإظهار النار، وهو دليل على أن الرحمة سبقت الغضب؛ لأنّ الجنة تُدنى للمؤمنين، أما أولئك فتظهر لهم فيرونها من بعيد: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]؛ لأجل أن يكونوا في خوفٍ ودُعرٍ من قبل أن يصلوا إليها.

الفائدة الخامسة: وفي ذلك دليل على أن أصحاب الجحيم: كلّ غاوٍ، والغواية ضدّ الضلال، والغواية: ضدّ الرشد، فالمراد بالغاوين هم الذين جانبوا الصراط المستقيم، جانبوه لا ضلّوا عنه، يعني: علموه ولكن جانبوه، والعياذ بالله.

الفائدة السادسة: وفي ذلك دليل على التعذيب البدني والقلبي لأصحاب النار؛ البدني: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾، والقلبي: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾.





❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْقَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودَ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾

[الشعراء: ٩٤-٩٥].

•••••

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿فَكَبِّبُوا﴾ أَلْقُوا ﴿هُمْ وَالْقَاوُونَ﴾]، (هُمْ) الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَكَبِّبُوا﴾ بِمَعْنَى: أَلْقُوا، وَلَكِنْ هَذَا التَّكَرُّرُ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى أَدَقٍّ مِنَ الْإِلْقَاءِ فَقَطْ، يَعْنِي: كَأَنَّهم يُكَبِّبُونَ فِيهَا عَلَى وُجُوهِهم، وَبِدُونِ أَيْضًا تَرْتِيبٍ، وَبِدُونِ نِظَامٍ، كَأَنَّمَا يَحْثُونَ حَثِيًّا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَيُلْقُونَ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿وَجُنُودَ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾]: أَتْبَاعُهُ وَمَنْ أَطَاعَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾]، أَعُوذُ بِاللَّهِ! جُنُودُ إِبْلِيسَ هُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ وَيُغْوُونَ النَّاسَ، فَكُلُّ مَنْ سَعَى فِي إِغْوَاءِ النَّاسِ وَالْإِفْسَادِ بَيْنَهُمْ؛ فَإِنَّهم جُنُودُ إِبْلِيسَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ جُنُودَ إِبْلِيسَ عَلَى عَكْسِ جُنُودِ الرَّحْمَنِ، فَجُنُودُ الرَّحْمَنِ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى الشَّرِّ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ نَصَرَ أَحَدًا فَهُوَ مِنْ جُنُودِهِ وَلَوْ بِالِاتِّبَاعِ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ جُنْدِهِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(١).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ عَلَامَةِ حُبِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، رَقْمٌ (٦١٦٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْبِرِّ وَالصَّلَاةِ وَالْأَدَابِ، بَابُ الْمَرْءِ مَعَ مَنْ أَحَبَّ، رَقْمٌ (٢٦٤٠).

ومن أحب شخصًا أطاعه وأتبعه.

قوله: ﴿هُمُ وَالْغَاوُونَ﴾ المراد بـ(الغاوون) هنا الغاوون الأولون الذين سبقوا، ولكن كرر ذلك الوصف، ما قال: فكبكبوا فيها هم وأولئك، كرره لإظهار ذم الغواية، ولكن قوله: ﴿وَحُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ هذا هل هو من باب عطف المتغايرين وأن الغاوي ليس من جنود إبليس، أم أنه من باب عطف المترادفين؟

نقول: الأصل في العطف: التغاير، والظاهر أن الغاوي هو الفاسد في نفسه، وأن جنود إبليس على اسمهم جنود ينصرونه ويدعون لما يدعو إليه، يقول المفسر: [أتباعه ومن أطاعه]، يقيد بمن أطاعه في إغواء الناس ودعوتهم إلى الضلالة، فيصير هنا من باب عطف الخاص على العام؛ لأن كل من دعا الناس إلى الباطل فهو غاوٍ ولا عكس.

فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: في قوله: ﴿فَكَبِكُوا فِيهَا هُمُ وَالْغَاوُونَ﴾ دليل على إغاطة هؤلاء العابدين للأصنام بإهانة أصنامهم، ويُسْتَشَى من ذلك من عبد وهو صالح، فإنه لا يككب؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢].

الفائدة الثانية: وفي هذا دليل على أن من اتبع الشيطان لم يكن من أتباعه فحسب، بل من جنوده المناصرين له؛ لقوله: ﴿وَحُنُودُ إِبْلِيسَ﴾؛ وذلك لأن المتبع للشخص مقلو له، وناصر له، وناشر لما يريد، فيكون كالجندي المسخر له.

الآيات (٩٦ - ٩٨)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٩٦﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٧﴾ تَأَلَّفَ لِنَفْسِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٨﴾ إِذْ سُوِّيَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٦-٩٨].

•••••

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿قَالُوا﴾ أَيِ الْغَاوُونَ ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ مَعَ مَعْبُودِيهِمْ ﴿تَأَلَّفَ لِنَفْسِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٩٧﴾ إِذْ سُوِّيَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾، لَكِنْ هَذَا الْإِقْرَارُ يَنْفَعُ لَوْ كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَهَمْ يَتَخَاصِمُونَ: الْعَابِدَ وَالْمَعْبُودَ، وَالتَّابِعَ وَالتَّبَوُّعَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وَكَذَلِكَ أَيْضًا: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾ [سبا: ٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، وَهَكَذَا ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

فَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى ضَلَالٍ وَعَلَى بَاطِلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وَنَحْنُ نَسْتَعْرِضُ مِثْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَنِعْظُ النَّاسَ بِهَا، وَنَقُولُ لِكُلِّ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا عَلَى فِسَادٍ: سَتُرَوُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ بَيْنَهُمْ، وَهَذِهِ الرِّابِطَةَ، وَيَتَبَرَّرُّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَنَذَكِّرُهُمْ بِهَذَا الْأَمْرِ الَّذِي فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِبَعِيدٍ، فَمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ إِلَّا أَنْ تَخْرُجَ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ

أَجْسَامِهِمْ، ثُمَّ يَجِدُونَهُ، وَخُرُوجِ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ لَيْسَ بِبَعِيدٍ، فَقَدْ يَكُونُ قَرِيبًا جَدًّا، وَكَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ^(١):

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وقد يكون غير قريب جدًّا، ولكنه مؤخر لِأَجَلٍ معدودٍ، فإذا كَانَ اللهُ تعالى يقولُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود: ١٠٤]، فكيف إذن بِأَجَلِ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ فيكون من باب أولى!

قال: ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ (١٦) تَاللهِ ﴿ (تالله) هَذَا قَسَمٌ بحرف التاء. وحروف القَسَمِ ثلاثة: الباء والواو والتاء، والأصلُ الباءُ، فهذه الحروفُ لَيْسَتْ كُلُّهَا أَصُولًا، فَكُلُّهَا يُقَسَمُ بها، لكن بعضها أَصْلٌ وبعضها غيرُ أصلٍ، مثل أن يُقال: كَانَ وَأَخَوَاتُهَا مَثَلًا.

والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْبَاءَ الْأَصْلُ أَنَّ الْبَاءَ تَأْتِي مَعَ الْقَسَمِ وَبِدُونِهِ، وَتَكُونُ فِي الضَّمِيرِ وَالظَّاهِرِ: (أُقَسِمُ بِاللَّهِ) و(أُقَسِمُ بِهِ) و(أُقَسِمُ بِكَ يَا رَبِّ).

فلهذا نقول: هِيَ الْأَصْلُ، حَتَّى مَا تَأْتِي إِلَّا مَعَ الظَّاهِرِ وَبِدُونِ فِعْلِ الْقَسَمِ، وَأَيْضًا لَيْسَتْ مَعَ كُلِّ ظَاهِرٍ، وَإِنَّمَا تَكُونُ بِاللَّهِ فَقَطْ، وَقَدْ يُقَسَمُ بِالرَّحْمَنِ، فيُقال: (تَالرَّحْمَنِ) وَقَدْ يُقَسَمُ بِرَبِّ الْكَعْبَةِ، لَكِنْ عَلَى قِلَّةٍ، وَالْوَاوُ تَدْخُلُ عَلَى كُلِّ ظَاهِرٍ، فيُقَسَمُ بِهَا بِكُلِّ اسْمِ ظَاهِرٍ، سِوَاءِ اللهِ أَوْ الرَّحْمَنِ أَوْ الْعَزِيزِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَا يُقَسَمُ بِهَا فِي الْمُضْمَرِ، وَلَا يَأْتِي مَعَهَا غَيْرُ الْقَسَمِ، وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الْأُمَّمَ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ: الْبَاءُ، ثُمَّ الْوَاوُ، ثُمَّ التَّاءُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، رقم (١٨٨٩).

قال: ﴿ تَأْتِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ كُنُوزٌ مِنْ سَحَابٍ مُثِينٍ ﴾ (إِنْ) يَقُولُ الْمُفَسِّرُ: [مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَي: إِنَّهُ]، أَي: الْفِعْلُ [﴿ كُنُوزٌ لِي فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ بَيْنَ]، كُلُّهَا بِفِعْلِ مَاضٍ، وَلَمْ يُسَلِّبْ مِنْهَا الدَّلَالَهَ عَلَى الزَّمَنِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ: كُنَّا فِي الدُّنْيَا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿ كُنُوزٌ لِي فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ بَيْنَ] ﴿ إِذْ ﴾ حَيْثُ ﴿ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فِي الْعِبَادَةِ]، وَهَذَا صَحِيحٌ، فَهَذِهِ غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ الضَّلَالِ أَنْ يُسَوَّى الْإِنْسَانُ الْمَخْلُوقَ بِالْخَالِقِ فِي الْعِبَادَةِ، وَلَيْسَتْ الْعِبَادَةُ هِيَ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ فَقَطْ، بَلْ حَتَّى مَنْ أَطَاعَ أَحَدًا فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ، أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ؛ فَإِنَّهُ عَابِدٌ لَهُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١]، قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ - يَعْنِي: مَا نَعْبُدُ أَحْبَابَنَا وَرُهْبَانَنَا، يَعْنِي: عُلَمَاءَنَا وَعِبَادَنَا - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَيْسَ يُجْرَمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتَحَرَّمُوهُ، وَيُحْلُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟». قَالَ عَدِيُّ: بَلَى. قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»^(١).

فَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يُطَبِّقُونَ أَنْظِمَةَ وَضْعِيَّةَ مَعَ مُحَالَفَتِهَا لِلشَّرْعِ، فَيَكُونُ مَا لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَؤُلَاءِ، يَعْنِي: يَتَبَرَّءُونَ مِنْهُمْ وَيُحَاصِمُونَهُمْ، وَيَقُولُونَ مُقَرِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: ﴿ تَأْتِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ كُنُوزٌ مِنْ سَحَابٍ مُثِينٍ ﴾ (١٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿.

فَمَثَلًا: الْإِنْسَانُ يَقُولُ لَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: هَذَا حَلَالٌ، فَيَقُولُ لَهُ الْحَاكِمُ: هَذَا حَرَامٌ مَمْنُوعٌ، فَيَمْنَعُهُ، وَيَرَى أَنَّهُ مُحَرَّمٌ؛ مَعَ تَحْلِيلِ اللهِ لَهُ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ اتَّخَذَ هَذَا الْحَاكِمَ إِلَهًا مَعَ اللهِ مُشْرَعًا، كَذَلِكَ يَقُولُ لَهُ مَثَلًا رَبُّهُ:

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ وَمِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ، رَقْمُ (٣٠٩٥)، وَاللَّفْظُ لِلطَّبْرَانِيِّ فِي الْكَبِيرِ (١٧/٩٢، رَقْمُ ٢١٨).

هَذَا حَرَامٌ، فَيَأْتِي هَذَا الْحَاكِمُ وَيَقُولُ: النَّظَامُ أَوْ الدُّسْتُورُ يَقْتَضِي الْحِلَّ، فَيُحِلُّهُ،
فَلَا شَكَّ أَيْضًا أَنَّهُ اتَّخَذَ هَذَا الْحَاكِمَ إِيَّاهَا مَعَ اللَّهِ، وَسَيَكُونُ مَالُهُ مَالٌ هُوَ لِأَيِّ الْقَوْمِ،
سَيُخَاصِمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَقُولُ لَهُ: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾ إِذْ سُؤِيكُمْ بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إِذَا الطَّاعَةُ
فِي الْمَعْرُوفِ»^(١)، يعني طاعة ولي الأمر في المعروف، الذي عرفه الشرع.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ أَصْحَابِ النَّارِ يَتَجَادَلُونَ حَالَ الْعَذَابِ؟

فالجواب: أحوال الآخرة لا تُقاس بأحوال الدنيا، أليست الشمسُ تُدنو من
الخلائق يوم القيامة بمقدار ميلٍ؟! لو قُرِبَتِ الشَّمْسُ بِمِقْدَارِ أَنْمَلَةٍ عَنْ مَكَانِهَا،
لَأَحْرَقَتِ الدُّنْيَا إِحْرَاقًا، وَتَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمِقْدَارِ مِيلٍ وَلَا تُحْرِقُ النَّاسَ! فَلَا يُمَكِّنُ
أَنْ تُقَاسَ أحوال الآخرة بأحوال الدنيا أبدًا، كما أَنَّ أحوال البرزخ إذا مات الإنسانُ
وَأُقْعِدَ وَسُئِلَ وَعُذِّبَ، فَلَا تُقَاسُ بِأحوال الدنيا.

الحاصلُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ هُوَ لِأَيِّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَعْبُودِينَ سِوَاهُ، سِوَاءَ كَانَتْ
عِبَادَةُ التَّذَلُّلِ، أَمْ عِبَادَةُ الْحُكْمِ، يَقُولُ لَهُمْ: إِنَّهُمْ يُكَبِّبُونَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَيُحْتَصِمُونَ
فِيهَا، وَيَقُولُ التَّابِعُونَ لِلْمَتَّبِعِينَ: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾ إِذْ سُؤِيكُمْ بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم (٧١٤٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، رقم (١٨٤٠).

فوائد الآياتِ الكريمة:

الفائدة الأولى: فيها دليلٌ على ندم أهل النارِ ندماً عظيماً، حين قالوا وهم يَحْتَصِمُونَ - يُحَاصِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا -: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٧) إِذْ سُئِيتُمْ رَبِّ، ﴿ وَهنا أَقْسَمُوا وَأَكْدُوا: ﴿ تَاللَّهِ ﴾ قَسَمَ، ﴿ إِنْ كُنَّا ﴾ إِنْ مُحْفَفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَتَفِيدُ التَّوَكِيدَ، وَاللَّامَ، وَ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ كَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ النَّحْوِينَ يُسَمِّي اللَّامَ هُنَا الْفَارِقَةَ، وَلَكِنها مَعَ كَوْنِهَا فَارِقَةً هِيَ أَيْضًا مُؤَكِّدَةٌ، وَمَعْنَى فَارِقَةٍ أَمَّا تُفَرِّقُ بَيْنَ (إِنْ) النَّافِيَةِ وَ(إِنْ) الْمُخَفَّفَةِ؛ لِأَنَّ الصُّورَةَ وَاحِدَةٌ، وَلَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الْمُرَادَ هَذِهِ أَوْ هَذِهِ إِلَّا بِوُجُودِ اللَّامِ؛ فَإِنْ عُدِمَتِ اللَّامُ امْتَنَعَ الْكَلَامُ إِلَّا إِذَا دَلَّتِ الْقَرِينَةُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ.

الفائدة الثانية: وفي قولهم: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٧) إِذْ سُئِيتُمْ اعْتِرَافٌ ضَمْنِيٌّ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا شَبِيهَ لَهُ؛ لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا وَبَيَّنُّوا أَنَّهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ حِينَ سَوَّوْا هَذِهِ الْأَصْنَامَ بِالرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِي لَا يُمِثُّهُ أَحَدٌ فِي هَذَا الْوَصْفِ؛ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ رُبُوبِيَّتَهَا، أَوْ أُلُوهِيَّتَهَا بِالْأَصْحَ، أَمَّا مُحْصَرَةٌ فِي عَابِدِيهَا، أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ فَهُوَ رَبُّ لِكُلِّ أَحَدٍ.

الفائدة الثالثة: في قوله: ﴿ إِذْ سُئِيتُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إشارةٌ إِلَى بَيَانِ الضَّلَالِ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ التَّسْوِيَةُ بَيْنَ مَنْ هَذَا وَصَفَهُ - رَبِّ الْعَالَمِينَ - بِمَنْ لَمْ يَسْتَحِقَّ مِنْ هَذَا الْوَصْفِ شَيْئًا، وَهَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَسْتَحِقُّ وَصْفًا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ إِطْلَاقًا، فَضْلًا عَنِ الرُّبُوبِيَّةِ الْعَامَّةِ لِجَمِيعِ الْعَالَمِينَ.

الفائدة الرابعة: في ذلك أيضًا اعترافهم البالغ بضلالهم: ﴿ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني: بَيِّنٌ ظَاهِرٌ، حَيْثُ سُئِيتُمْ، وَلَكِنْ هَذَا الْاِغْتِرَارُ وَهَذَا الْاِقْرَارُ بِالرَّبِّ،

وهذا التنزيه له عن المساواة في ذلك المكان لا ينفع؛ لِأَنَّهُ فَاتَ الْأَوَانَ - وقت العمل في الدنيا - أَمَّا الْآنَ فَهُوَ وَقْتُ الْجَزَاءِ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: انتفاء التَّشْبِيهِ عَنِ اللَّهِ؛ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿إِذْ نُسَوِّبُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ففي هذا نفي تشبيه المخلوق بالخالق.



(الآية ٩٩)

•• ٩٩ ••

❁ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَضَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٩].

•• ٩٩ ••

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا أَضَلْنَا﴾ عَنِ الْهُدَى ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ أَي: الشياطين]، يعني: شياطين الإنس والجنّ، هكذا يَجِبُ، والمُجْرِمُ: فاعِلُ الإِجْرَامِ، وَيُطْلَقُ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ عَلَى الْكَافِرِ، وَالْمَعْنَى: مَا أَضَلَّنَا إِلَّا أَهْلَ الْكُفْرِ وَالْإِجْرَامِ، الَّذِينَ اعْتَدَوْا عَلَيْنَا بِهَذَا الْإِضْلَالِ، وَلَكِنْ حَقِيقَةٌ هُمْ مَا اعْتَدَوْا عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ انْقَادُوا لِهَذَا الْكُفْرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجَّرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨]، وَفِي سُورَةِ سَبَأٍ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

فَالْكَفَّارُ الَّذِينَ تَبِعُوا الْمُسْتَكْبِرِينَ لَا عُذْرَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ حَتَّى وَإِنْ سَبَّوهُمْ، وَقَالُوا: إِنَّهُمْ مُجْرِمُونَ؛ فَإِنْ ذَلِكَ لَيْسَ بِعُذْرٍ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى الْعُقُولَ وَالْإِدْرَاكَ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ، فَمَا بَقِيَتْ لَهُمْ حُجَّةٌ فِي أَنْ يَحْتَجُّوا بِأَنْ هُوَ لَاءِ أَضَلُّوهُمْ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿إِلَّا الْمَجْرُمُونَ﴾] أي: الشياطين، أو الأولون الذين اقتدَيْنَا بهم]، فهذا إذا كَانَ المراد بالمجرم الضال، سواء اعتدى أو لم يعتد؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانُوا آبَاءَهُم الَّذِينَ اقْتَدَوْا بِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُضِلُّوهُمْ، وَلَمْ يُجْرِمُوا عَلَيْهِمْ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ.

وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُرَادَ بِالآيَاتِ الْمَعْنِيَانِ جَمِيعًا؛ فَإِنَّهُمْ ضَلُّوا بِأَمْرَيْنِ:

الأول: بِمَنْ يَدْعُونَهُمْ وَهُمْ أَحْيَاءٌ إِلَى الضَّلَالِ.

والثاني: بِمَنْ يُقَلِّدُونَهُمْ وَهَؤُلَاءِ مِنَ الْأَمْوَاتِ.

لكن في المسألة الأولى يكون الجرم عليهم وعلى من أضلَّهُم، وفي الثانية عليهم وخدمهم؛ لِأَنَّ أَوْلَئِكَ الْأَمْوَاتِ فِي الْحَقِيقَةِ مَا جَنَوْا عَلَيْهِمْ؛ إِذْ إِنْ الرُّسُلُ جَاءَتْهُمْ وَبَيَّنَّتْ لَهُمْ.

ويستفاد من الآية:

سَبُّ هَؤُلَاءِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾، فَهَذَا قَدْ حُجِّجَ فِيهِمْ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُمْ أَضَلُّوهُمْ، وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ.



الآية (١٠٠)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠].

قَالَ الْمَفْسَّر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ كَمَا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ].

كلمة (ما) نافية وليست استفهامية، والدليل إتيان (من) المؤكدة: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾، وأصلها: فما لنا شافعون، ولكن أتى بـ(من) للتوكيد. والشافع: هو المتوسط للغير بجلب منفعه أو دفع مضره، فشفاعة النبي ﷺ لأهل الموقف أن يقضى بينهم من باب الشفاعة؛ لدفع المضره والمشقة، وشفاعته لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة من باب جلب المنافع، فالشفاعة هي التوسط للغير بجلب منفعه أو دفع مضره، وإن شئت فقل: لدفع الضر أو جلب الخير، فهذه هي الشفاعة.

فهم ليس لهم شافعون؛ لأن من شرط الشفاعة أن يكون المشفوع له مؤمناً، والدليل ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وهو لاء لا يرتضيه الله، فهم يقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ يعني: ما لنا أحد يشفع إطلاقاً لا من الأنبياء ولا من غيرهم؛ لأن من شرط الشفاعة أن يرضى الله تبارك وتعالى عن المشفوع له، وعن الشافع من باب أولى، فإذا كان لا بد من رضا الله عن المشفوع له، فعن الشافع من باب أولى.

وَأَمَّا الْإِذْنُ فَهُوَ شَرْطٌ أَيْضًا حَتَّىٰ مَعَ رِضَا اللَّهِ عَنِ هَذَا وَهَذَا، فَلَا بَدَّ أَيْضًا
 مِنَ الْإِذْنِ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يَأْذُنُ بِالشَّفَاعَةِ إِلَّا لِمَنْ يَرْضَاهُ، فَصَارَ لَا بَدَّ مِنَ الشَّرْطَيْنِ،
 فَلَا يُقَالُ مِثْلًا: إِنَّهُ إِذَا ارْتَضَىٰ شَخْصًا فَإِنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَأْذُنَ لَهُ، فَقَدْ يَأْذُنُ وَقَدْ لَا يَأْذُنُ،
 وَلَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَأْذُنَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ، وَهَؤُلَاءِ لَا يَرْضِيهِمُ اللَّهُ.

فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: انتفاء الشفاعة عن المكذبين للرسل وأنه لا يُشفع لهم، وتؤخذ
 من قوله: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾.

الفائدة الثانية: إثبات الشفاعة للمؤمنين، ويُؤخذ من قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ
 شَافِعِينَ﴾، فنقوا أن يكونوا من الشافعين، ومفهومٌ هذا أن المؤمنين لهم شفاعة،
 كأنهم لما رأوا أن المؤمنين يشفعون بعضهم لبعض، قالوا: نحن ما لنا من شافعين
 ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠١].



الآية (١٠١)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠١].

قوله: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ معطوف على: ﴿شَفِيعِينَ﴾ باعتبار اللفظ، ولو عَطَفَتْ الآية هنا باعتبار المحل لكانت: (وَلَا صَدِيقٍ)؛ لأن: (شَفِيعِينَ) في محل مبتدأ.

قال: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الصديق: مَنْ صَدَقَكَ الْوُدَّ، يعني: الصَّاحِبِ الصَّادِقِ فِي وُدِّهِ يُسَمَّى صَدِيقًا، وَهُوَ أَحْصَى مِنَ الصَّاحِبِ، فَكُلُّ صَدِيقٍ صَاحِبٌ، وَلَيْسَ كُلُّ صَاحِبٍ صَدِيقًا، وَأَمَّا الْحَمِيمُ فَإِنَّهُ الْقَرِيبُ، أَوْ أَنَّهُ الْبَالِغُ فِي الصَّدَاقَةِ، بَحِيثٌ يَخْنُو عَلَيْكَ كَمَا يَخْنُو الْقَرِيبُ.

والمفسر يقول: [﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ يُهْمُهُ أَمْرُنَا]؛ لِأَنَّ الصَّدِيقَ الْحَمِيمَ الْحَانِي الْعَاطِفَ أَوْ الْقَرِيبَ يُهْمُهُ أَمْرُ صَاحِبِهِ وَصَدِيقِهِ، وَهَلْ هَذِهِ الصِّفَةُ -حَمِيمٌ- صِفَةُ كَاشِفَةٍ أَمْ صِفَةُ مَقِيدَةٍ؟

هي صفة كاشفة، إذا قلنا: ما من صديقٍ إلا وهو حميمٌ، فهي صفة كاشفة، وإذا قلنا: قد يكون صديقًا لكنه ليس بحميم، فهذه تكون صفة مقيدة، بشرط أن نجعل الحميم هنا بمعنى القريب؛ لأنه قد يكون صديقًا وليس قريبًا، فإذا جعلنا الحميم بمعنى الحاني الذي يكون كالقريب بخنوه وعطفه، فهي صفة كاشفة، لكن إذا قلنا: حميم قريب، صارت مقيدة؛ لأنه ما كل صديق يكون قريبًا.

الآية (١٠٢)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٢].

•••••

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ﴾ رَجَعَةٌ إِلَى الدُّنْيَا ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (لو) هنا للتمني، و(نكون) جَوَابُهُ، يعني: لَيْتَ لَنَا كَرَّةً، أَي رَجَعَةٌ إِلَى الدُّنْيَا، (فَنَكُونُ) الفَاءُ لِلسَّبَبِيَّةِ، و(نكون) مَنْصُوبَةٌ بِأَنَّ مُضْمَرَةً بَعْدَ فَاءِ السَّبَبِيَّةِ بِتَقْدِيمِ التَّمْنِيِّ، وَهَذَا يَقُولُ: [(لو) هنا للتمني و(نكون) جَوَابُهُ].

قال: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ﴾ يعني: لَيْتَ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقولوا: (لَيْتَ)؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامٌ تَذَلُّلٍ وَخُضُوعٍ، و(لو) للتمني أَقْلٌ مِنَ (لَيْتَ)؛ لِأَنَّ (لَيْتَ) صَرِيحَةٌ الطَّلَبِ، و(لو) فِيهَا نَوْعٌ مِنَ اللَّيْنِ وَالعَرَضِ، مِثْلَمَا تَقُولُ لِلإِنْسَانِ الَّذِي تَتَمَنَّى أَنْ يَزُورَكَ: (لو أَنَّكَ تَزُورُنَا)؛ فَإِنَّ (لو) هَذِهِ لِلتَّمْنِيِّ بِلا شَكِّ، لَكِنِهَا تَمَنُّ بِلَيْنٍ وَعَرَضٍ وَلُطْفٍ، وَالْمَقَامُ هُنَا يَقْتَضِيهِ؛ لِأَنَّهُمْ فِي مَقَامِ دُلٍّ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَخُضُوعٍ، فَلَمْ يَقُولُوا: لَيْتِنَا نَرْجِعُ، وَلَكِنِهم يَقُولُونَ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

عَلَى أَنَّهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ يَقُولُونَ: ﴿يَلَيِّنُنَا نُرْدُ وَلَا نُكَذِّبُ بِبَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، فيقال: الجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ لَهُمَ حَالَاتٍ، فَأَحْيَانًا يَقُولُونَ بِهَذَا وَأَحْيَانًا يَقُولُونَ بِهَذَا، لَكِنِ أَيْهَنُ أَوَّلُ؟ لَيْتَ أَمْ لَوْ؟

الظَّاهِر (ليت) هِيَ الْأُولَى، يعني: كأنه يكونُ بِالْأَوَّلِ بِعَزْمٍ عَلَى التَّمَنِّي، ثم إذا لم يَحْضُلْ لَهُمْ رَجَعُوا إِلَى الْخُضُوعِ وَالخُنُوعِ وَالعَرَضِ.
ولو أَنَّهُمْ رُدُّوا هل يَرِجَعُونَ؟

يقول الله تعالى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، هَذَا الْخَبْرُ الصَّادِقُ، يعني: لَيْسَ قَوْلُهُمْ: إِنَّا إِذَا رَجَعْنَا نَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَهَذَا خَبْرٌ كَاذِبٌ، وَالْخَبْرُ الصَّادِقُ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

فَإِنْ قِيلَ: فِي نَفْسِ الْمَقَامِ يَسْتَشْعِرُونَ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ أَمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ؟

فَالْجَوَابُ: الظَّاهِرُ أَنَّهُ فِي عِلْمِ اللَّهِ، فَيُمْكِنُ أَنَّهُمْ حِينَمَا يَقُولُونَهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ يَقُولُونَهُ صِدْقًا، وَلَكِنْ اللَّهُ أَخْبَرَ بِأَنَّهُمْ إِذَا رَجَعُوا فَسَيَعُودُونَ إِلَى الْكُفْرِ.

قال: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: مِنَ الْمَصْدِقِينَ الْمُقْرَبِينَ الْمُتَزِمِينَ بِالْعَمَلِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ وَحْدَهُ لَا يَنْفَعُ، فَإِذَا لَمْ يَسْتَلْزِمِ الْعَمَلُ فَلَيْسَ بِإِيمَانٍ، وَهَذَا نَقُولُ: إِنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ أَتَتْهُمُ آيَاتُ اللَّهِ كَانَ بَيْنَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿وَحَدِّدُوا بِهَا وَأَسْتَقِنْتَهَا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، وَلَكِنْ لِكُونِهِمْ لَا يَتَقَادُونَ لَمْ يَتَّفَعُوا بِإِيمَانِهِمْ، فَيَابِلَيْسُ بِمَعْنَى التَّصَدِيقِ مُؤْمِنٌ، لَكِنَّهُ مُسْتَكْبِرٌ، فَلَمْ يَنْفَعَهُ إِيمَانُهُ.

وَأَذْكَرُ أَنَّهُ حِينَمَا صَعِدَ أَوَّلَ رَجُلٍ إِلَى الْفُضَاءِ مِنَ الرُّوسِ وَشَاهَدَ الْكُفُونَ أَعْلَنَ أَنَّ هَذَا الْكُفُونَ لَهُ مَدْبَّرٌ، فَجَاءَ أَصْحَابُهُ الرُّوسِ وَقَالُوا: مَا تَقُولُ؟!

فإذا لم يَنْقِدِ الإنسانُ فليسَ بمؤمنٍ، ولهذا نقولُ: إِنَّ الإِيَانَ هُوَ التَّصَدِيقُ الْمَسْتَلَزِمُ لِلْقَبُولِ وللانقيادِ: قَبُولِ الْحَقِّ وَالانقيادِ لِلأَمْرِ وَالنَّهْيِ، هَذَا هُوَ الإِيَانُ. وَأَمَّا مُجَرَّدُ أَنَّ الإِنْسَانَ يَقُولُ: أَنَا مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ، وَأَنَا أَعْتَرَفْتُ بِأَنَّ اللَّهَ مُوجُودٌ، وَأَنَّ لَهُ رُسُلًا، لَكِنَّهُ لَا يَعْمَلُ، فَلَا يَنْفَعُهُ هَذَا الإِيَانُ.

فالإِيَانُ الَّذِي يَنْفَعُ هُوَ مَا ذَكَرْتُ، وَقَدْ يُطَلَّقُ الإِيَانُ لُغَةً عَلَى مُجَرَّدِ التَّصَدِيقِ، وَيُقَالُ: هَذَا مُؤْمِنٌ بِشَيْءٍ، لَكِنَّهُ كَافِرٌ بِأَشْيَاءٍ، فَهَذَا لَيْسَ الإِيَانُ الشَّرْعِيُّ.

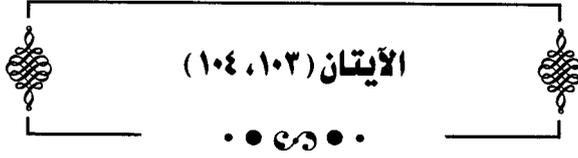
وَكُلُّ مَنْ كَانَ مُسْتَكْبِرًا فَهُوَ أَشَدُّ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَتَّبِعُ لَهُ الْحَقُّ وَيَسْتَكْبِرُ عَنْهُ، يَكُونُ كُفْرُهُ كُفْرَ عِنَادٍ، وَالَّذِي لَا يَعْرِفُ الْحَقَّ وَهُوَ الْآنَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْكُفْرِ، هَذَا كُفْرُهُ كُفْرٌ جَهْلِيٌّ.

فَالنَّصَارَى فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَبْلَ بَعْتِهِ يُعْتَبِرُونَ ضَالِّينَ، وَبَعْدَ أَنْ بُعِثَ وَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ يَكُونُونَ مَغْضُوبًا عَلَيْهِمْ؛ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَهُودِ، فَكُلُّ مِنْهُمْ بُشْرٌ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي وَصْفِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، مَعْرُوفٌ، وَكُفْرُهُمْ عَلَى حَدِّ سِوَاهِ، وَهَذَا لَا يَصْلُحُ أَنْ نَقُولَ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيٌّ﴾ [المائدة: ٨٢]، فَهَذِهِ لَا تَنْطَبِقُ عَلَى زَمَانِنَا هَذَا، وَلَا عَلَى مَا قَبْلَهُ بِأَزْمِنَةٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَبَيِّنُ هَذِهِ الْعِلَّةَ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣]، الْآنَ مِنْهُمْ قِسِيَسُونَ وَرُهْبَانٌ مُسْتَكْبِرُونَ عَنِ الْحَقِّ، دَاعُونَ إِلَى الضَّلَالِ - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - فَلَا يُمَكِّنُ

أَنْ يَنْطَبِقَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْوَصْفُ، وَعَدَاوَتُهُمْ الْآنَ لِلْمُسْلِمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَيْضًا، خَاصَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا لَا لِلْمُسْلِمِينَ فَقَطْ، ظَاهِرَةٌ، وَهُمْ لَا يَنْسَوْنَ أَبَدًا غَزَوَاتِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ، وَلَا يَنْسَوْنَ أَبَدًا الْحُرُوبَ الصَّلِيبِيَّةَ، وَلَا يَنْسَوْنَ الْإِفْتِتَاحَ الْعَظِيمَ الَّذِي حَصَلَ فِي دَارِهِمْ؛ فَإِنَّ بِلَادَ الرُّومِ كُلَّهَا أُخِذَتْ، وَالرُّومُ كُلُّهُمْ نَصَارَى، فَأَخَذَتْ عَلَى أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ.

وفي الآية الكريمة دليلٌ على النَّدَمِ الْبَالِغِ الَّذِي يُصِيبُ هُؤُلَاءِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَتَمَنِّيهِمْ لَوْ أَنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَى الدُّنْيَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَهَذَا التَّمَنِّيُّ لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ فَإِنَّهُمْ لَوْ رَجَعُوا لَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ؛ وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٠٣-١٠٤].



قال المفسر رحمه الله: [﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من قصة إبراهيم وقومه].

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المشار إليه هو المذكور من قصة إبراهيم عليه السلام وقومه ﴿لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وقد سبق الكلام عليها.

لكن يجب علينا أن نعرف أن الله تعالى إذا قال عن شيء: إِنَّ فِيهِ آيَةٌ، يجب ألا نأخذَه مأخذَ الظاهرِ فقط، بل يجب أن نتأمل ما هذه الآيات.

وقوله: ﴿فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ هل المراد بذلك جملة القصة، أم في كل جزء من

القصة؟

فنقول: إِنَّ الإشارةَ إلى المجموع بلا شك، ففي كل قطعة منها آية، وفي اجتماع هذه القطع بعضها إلى بعض أيضاً آية، فتكون الآية موزعة على كل قطعة، ويكون أيضاً اجتماع هذه الأشياء جميعاً فيه آية.

وإنما المهم أن الله تعالى إذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ يجب عليك أن تتأمل

وتتفكر وتعتبر؛ لِتُظْهِرَ لَكَ هذه الآية.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الضمير في قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ الراجح أنه يعودُ إلى مَنْ كانوا في عهدِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و(ما) فيها قولان:

الأول: أنها حِجَازِيَّةٌ على الصَّوابِ، وليست هي العاملة، بل الصَّوابُ أنَّ الَّذِي عَمَلَ (كان)؛ لأنك إذا جعلتَ (ما) هي العاملة صارت (كان) زائدةً، والأصلُ عَدَمُ الزيادة.

والثاني: أنها نافيةٌ، فيكون قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي: لم يكنْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنًا.



الآية (١٠٥)

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥].

قال المُفسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ لِإِشْتِرَاكِهِمْ فِي الْمَجِيءِ بِالتَّوْحِيدِ، أَوْ لِأَنَّهُ لَطُولِ لُبْنِهِ فِيهِمْ كَأَنَّهُ رُسُلٌ، وَتَأْنِيثُ (قَوْمٌ) بِإِعْتِبَارِ مَعْنَاهُ وَتَذَكِيرِهِ بِإِعْتِبَارِ لَفْظِهِ].

قَوْلُهُ: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ﴾ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُ جَوَابًا عَلَى تَأْنِيثِ الْفِعْلِ مَعَ أَنَّ الْفَاعِلَ مَذْكَرٌ. قَوْلُهُ: ﴿نُّوحٌ﴾ نُوْحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، أَمَا آدَمُ فَهُوَ أَوَّلُ نَبِيٍّ نُبِّيٌّ؛ فَإِنَّهُ كَانَ نَبِيًّا بِلَا شَكٍّ، وَنُوْحٌ كَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ، وَإِنَّمَا كَانَ آدَمُ نَبِيًّا لِلضَّرُورَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَتَعَبَّدَ لِلَّهِ، وَلَا عِبَادَةَ لِلَّهِ إِلَّا بِمَا شَرَعَ، وَلَا شَرَعَ إِلَّا بِوَحْيٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يَرْسَلْ؛ لِعَدَمِ دَعَاءِ الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ؛ إِذِ النَّاسُ كَانُوا مُتَّفِقِينَ، فَلَمَّا ائْتَلَفُوا بَعَثَ اللَّهُ الرَّسُلَ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، فِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاسْتَلَفُوا»^(١)، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ لَا دَاعِيَ لَهَا؛ لِأَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٥٩٦، رقم ٤٠٠٩).

فعلى كُلِّ حالٍ، في عهد آدم لم يكن حاجةً إلى الرِّسَالَةِ، إِنَّمَا النُّبُوَّةُ فقط، وهو يتعبَّد لله وأبناؤه، بل أولاده يتبعونه في ذلك على وجه الاتفاق بينهم.

ولمَّا كَثُرَتِ الأُمَّةُ وانتشرت في الأرض اختلفوا، فصارت الحاجةُ والضرورةُ داعيةً إلى إرسالِ الرُّسُلِ، فبعث اللهُ تعالى نوحًا، وهو أوَّلُ رَسُولٍ أرسلَهُ اللهُ إلى الأرضِ، كما يُشيرُ إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وكما هو صحيحٌ صريحٌ في حديثِ الشَّفَاعَةِ: «وَلَكِنْ اتُّوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ»^(١).

وإذا قلنا: إنه أوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إلى أَهْلِ الأَرْضِ، فهل نقولُ: إنه أرسلَ إلى النَّاسِ كافَّةً، فيحتاج حينئذٍ أن نجمعَ بينه وبين قولِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً»^(٢)؟

قلنا: هو أوَّلُ رَسُولٍ؛ لأنه لو شاركه غيره ما كان هو الأوَّلُ، لكان هو وغيره هو الأوَّلُ. وقد يقول قائلٌ: لعلَّ أحدًا بعثَ في حياة نوح، لكن في غير مكانه، وقد نقولُ بظاهر الأوَّلُ، وإنه إنما بعثَ إلى النَّاسِ لأن النَّاسَ كانوا في ذلك الوقتِ أُمَّةً واحدةً قليلين، لم ينتشروا كثيرًا في الأرضِ، فكان هؤلاء النَّاسَ بمنزلةِ القومِ في الرُّسُلِ الَّذِينَ بَعَدَهُمْ، وعلى هذا الطريق نَسَلِمُ مِنَ الإِشْكَالِ الآخِرِ، وهو أن اللهُ تعالى أغرقَ جميعَ أَهْلِ الأَرْضِ في عهدِ نوح، إلا مَنْ آمَنَ معه، إذ يُقالُ: كيف يُغرقون ولم يبعثَ إليهم رسولًا؟ فلولا أن نوحًا كان رسولًا إليهم ما أغرقوا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

جميعًا، وإن كان من الجائز أن يُقال: لعلهم أيضًا -الذين بُعث إليهم في زمنه- كذبوا رُسُلَه، لكن ظاهرُ الآياتِ أنَّ الذين غرِقوا إنما غرِقوا بسؤالِ نوحٍ. وعلى كُلِّ حالٍ، هذا إشكالٌ دائرٌ بين العلماءِ من قديمٍ، وقد أجابوا عن ذلك بأن نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانت رسالته إلى الناسِ كافةً في ذلك الوقت؛ عرضًا لا أصلًا.

وفرقٌ بين ما يأتي إلى أُمَّمٍ مُخْتَلِفَةٍ أُرْسِلَ إلى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ، ثم يُقال لهؤلاءِ الأُممِ كلُّهم: يجب أن تتبّعوا هذا الرَّسُولَ، لتكونَ الأُمَّةُ واحدةً، وبين مَنْ لم يُبعثْ إلَّا في قومه فقط؛ في أُمَّةٍ واحدةٍ فقط، فإنَّ كونه مبعوثًا إليهم جميعًا على سبيلِ الاتِّفَاقِ والعُرْفِ لا على سبيلِ القصدِ، وبهذا تَظْهَرُ المِيزَةُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وبين نوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَنَسْلَمُ مِنَ الإِشْكَالِ.

فنقول: نوح أُرْسِلَ إلى قومه وليس هناك أُمَّمٌ مُخْتَلِفَةٌ يجبُ أن يتوحدوا على رَسُولٍ كما كان في عهدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وكونه مُرْسَلًا إلى جميعِ النَّاسِ في ذلك الوقتِ ليس من بابِ القصدِ، بل هو من بابِ الاتِّفَاقِ والعَرْضِ، أي أَنَّهُ اتَّفَقَ أن النَّاسَ كلَّهم انْحَصَرُوا في قومِ نوحٍ، فهنا ما قصدَ من رسالته أن تكونَ شاملةً لجميعِ الأُمَّمِ، بخلافِ رسالةِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ قصدَ أن تكونَ شاملةً، وأن يتوحدَ اليَهُودُ والنَّصَارَى والمَجُوسُ والوثنيون، كلهم يتوحدون في أُمَّةٍ واحدةٍ، بفرق بين العُمومين: العُموم القصدِي والعُموم الاتِّفَاقِي.

فهذا نوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول لهم: إن قومه كذبوا المرسلين، ونحن نعلمُ أنَّهم ما كذبوا إلا رَسولًا واحدًا، فليس قبل نوحٍ أحد حتى نقول: كذبوا هذا وهذا.

وكيف نَجْمَعُ بَيْنَ ما جاء في حديثِ الشَّفَاعَةِ: «فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ»^(١)، وبين قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، مع أنه أَوَّلُ الرُّسُلِ؟

يقول المفسِّرُ في الجوابِ عن هذا: [بِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ لِاشْتِرَاكِهِمْ - أي: المرسلين - في المَجِيءِ بِالتَّوْحِيدِ]؛ إذ اشتركوا كلُّهم في المَجِيءِ بِتَوْحِيدِ اللهِ عَزَّجَلَّ والقيام بطاعته، فصاروا جنسًا واحدًا، وتكذيبُ واحدٍ من الجنسِ تكذيبٌ للجميعِ؛ إذ إنهم لم يُكذِّبوا نوحًا لأنه نوحٌ، لكن كذَّبوه لأنه جاء بالتوحيد، فلو جاء كلُّ نبيٍّ بالتوحيد لكَذَّبوه، وعلى هذا فإذا جاءهم هُوْدٌ كذَّبوه، إذ لا فرق، وإذا جاءهم صالحٌ كذَّبوه، وإذا جاءهم موسى كذَّبوه، وإذا جاءهم مُحَمَّدٌ كذَّبوه؛ لأنَّهم كذَّبوا الجنسَ لا الشخصَ؛ لأنه أتى بما يُخالفُ ما هم عليه فكذَّبوه، لذلك يكونون مَكْذِبِينَ لِجَمِيعِ الرُّسُلِ.

ولهذا نقولُ للنَّصارى الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِعِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إنكم كافرون به، مكذبون له؛ لأنَّهم كذَّبوا مُحَمَّدًا ﷺ، لا سِيَّما وأن رسولهم عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَشَّرَهُمْ به كما حَكَى عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِيْ اِسْرَائِيْلَ اِنِّي رَسُولُ اللهِ اِلَيْكُمْ مُّصَدِّقا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرِسُوْلِ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اِسْمُهُ اَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، ولا شك أنه لن يُبَشِّرَهُمْ بِمَنْ لَيْسَ لَهُمْ.

أرأيتَ لو أن مولودًا لفلانٍ وُلِدَ فهل آتَى إِيْلِكَ وأقول: أَبَشِّرُ بِمولودِ فلانٍ وليس بينك وبينه ارتباطٌ؟!!

(١) سبق تخريجه.

ولو أن إنسانًا قدم ليوزَّع جوائزَ على آلِ فلانٍ، فهل أُبشِّرُكَ بقُدومِهِ؟! ولو حدثَ هذا لكانَ سَفَهًا.

إذن لم يُبشِّرْهُمُ عيسى إلا لأنه رَسولٌ إليهم، ولهذا قال: ﴿وَمُبَشِّرًا رِسُولًا يَأْتِي مِنَ بَدْيِ أَسْمُهُمْ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، يَعْنِي: عَيْنَهُ بِالْأَسْمِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهِ إِشْكَالٌ فِيهَا بَعْدُ، وَلَكِنْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - هُمْ كَفَرُوا، وَكَفَرُوا بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَكُونُونَ كَافِرِينَ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ.

وكذلك اليهودُ كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَفَرِ بِمُوسَى وَبِالتَّوْرَةِ الَّتِي وَجِدَ فِيهَا رَسولُ اللَّهِ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ: ﴿يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، مِثْلًا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْرِفُ ابْنَهُ فَهَمْ يَعْرِفُونَ مُحَمَّدًا ﷺ بِوصفه، وَلَكِنَّهُ الْإِسْتِكْبَارُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

فإن سألَ سائلٌ: إن كانَ نوحٌ نُبِيًّا ولم يُرْسَلْ بِرِسَالَةٍ، فَكَيْفَ اتَّبَعَهُ أَوْلَادُهُ؟ فَالجَوابُ: رَأَوْا مَا يَفْعَلُ فَفَعَلُوا؛ لِأَنَّهُ عَادَةٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُقَلِّدُ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مَوَانِعُ وَفَوَارِقُ تَمْنَعُهُمْ وَتَصْرِفُهُمْ عَنِ تَقْلِيدِهِ.

فإن كانَ في عِبَادَتِهِ أَشْيَاءٌ قَوْلِيَّةٌ مَحْتَاجٌ إِلَى تَفْسِيرٍ، فَإِنَّهُ سَيَفْهَمُهُمْ مِنْ فِعْلِهِ وَمِنْ قَوْلِهِ، لَكِنْ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ صَارَ رِسولًا؛ لِأَنَّ الْمُرْسَلَّ هُوَ الْمَبْلُغُ الْمَكْلُفُ، أَمَّا هَذَا فَلَيْسَ بِمَكْلُفٍ، وَهَذَا نَقولُ مِثْلًا: إن الجَنِّ لم يَنْتَفِعُوا بِرِسَالَةِ نُوحٍ؛ إِذِ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ لم يُرْسَلْ إِلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ مَا أُرْسِلَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْجَنِّ إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ، مَعَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿يَلْقَوْنَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُنْتَفِعِينَ بِكِتَابِ مُوسَى.

فَإِنْ قِيلَ: وَمَا دَلِيلُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ السَّابِقِينَ لَمْ يُرْسَلُوا إِلَى الْجِنِّ مَا دَامَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؟
قلنا: هم يقولون: إِنَّ النَّبِيَّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَقَوْمُهُ قَبِيلَتُهُ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِمْ،
وَالجِنُّ لَيْسُوا مِنْ جِنْسِهِ حَتَّى يَكُونُوا مِنْ قَوْمِهِ.

لكن رسالة النبي ﷺ إلى الجنِّ لا تدلُّ على عُمومِ رسالته إلى الجنِّ؛ لأنَّ الجنِّ ليسوا مِنَ النَّاسِ، لكن في كونِ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَجْتَمِعُ بِهِمْ وَيُوَاعِدُهُمْ، وَيَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، وَيُخَبِّرُهُمْ بِمَا فِيهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ.

فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]،
هَلْ يَعْني أَنَّ الْجِنَّ يَعْْبُدُونَ بِشَرْعٍ؟

قلنا: الْأَصْلُ أَنَّ مَنْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّجَلَّ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ بِالشَّرْعِ، فَهَمْ يَتَعَبَّدُونَ
بِالشَّرْعِ بِلَا شَكٍّ.

وهل منهم رُسلٌ أو ليسَ منهم رسلٌ؟

هذه المسألة موضع نزاع بين العلماء؛ فمنهم من قال: منهم رُسلٌ؛ لقَوْلِهِ: ﴿يَمْعَشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ [الأنعام: ١٣٠]،
فقال: ﴿رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾، والرُّسُولُ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسٍ مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؛ لقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، ولا
يمكن أن يرسل إلى الجنِّ بشرٌ.

ومنهم من قال: إن قَوْلُهُ: ﴿مِّنْكُمْ﴾ يعود إلى المخاطبين باعتبارِ المجموعِ:
﴿يَمْعَشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ يخاطب اثنين، والضميرُ في: ﴿مِّنْكُمْ﴾ يعود إلى أحد الاثنين،

مثلاً قالوا - على زعمهم -: ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرَّحْمَنُ: ١٩-٢٢]، وَزَعَمُوا أَنَّ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ لَا يَخْرُجَانِ إِلَّا مِنَ الْمَالِحِ.

وعلى كُلِّ حالٍ فإنَّ عَوْدَ الضَّمِيرِ على واحدٍ من المجموعِ إذا خُوِطِبَ الجميعُ شائعٌ في اللُّغة.

وبعضهم يقول: إنَّ المرادَ بالرُّسُلِ هنا النُّذُرَ، فقلنا: رُسلٌ؛ لِمْشَابَهَتِهِمْ له، والنُّذُرُ لا شكَّ أنَّهم يأتونَ إلى الجنِّ كما يأتونَ إلى الإنسِ.

والراجعُ أنه ليسَ منهم رَسُولٌ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩]، والجنُّ ليسوا من (رجالاً).

والنَّبِيُّ غيرُ الرَّسُولِ، فالنَّبِيُّ مَنْ أُوحِيَ إليه؛ لأنَّ الوحيَ الَّذِي يُشَبَّهُ بوحيِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو مِنْ نوحٍ فأقلُّ فما دُونُهُ، فالوحيُّ المشبَّهُ بوحيِ اللهِ إلى رسوله مُحَمَّدٍ ﷺ هو ما كَانَ إلى نوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ؛ لأنه وحيٌّ مَقْرُونٌ بالإرسالِ.

ونقول: إنَّ اللهَ تَعَالَى بَشَّرَ النَّصَارَى على لسانِ عِيسَى نَبِيِّكُمْ بِمُحَمَّدٍ، فالذي لا يَعْتَقِدُ إِلَّا أنه مُحْجَرٌ بأنه سوفَ يُبْعَثُ رَسولًا؛ فإنَّ هذا من ضلالِ قومه الَّذينَ أَضَلُّوهُ، وإلَّا ما عندنا شكُّ أن عِيسَى بَشَّرَ قومه بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتَّى يَتَّبِعُوهُ، وإلَّا ما الفائدةُ من البشارة؟!!

وَمَنْ كَذَّبَ أَيَّ رَسولٍ فهو منكَرٌ لله، أو واصفٌ اللهَ بها لا يَسْتَحِقُّ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى يُوَيِّدُ الرَّسولَ بِالآيَاتِ، فإذا كَانَ كاذبًا لَزِمَ أَنْ يكونَ اللهُ تَعَالَى غيرَ موجودٍ، أو أنه تَعَالَى -والعياذُ بالله- خائنٌ أو ما أشبهَ ذلك.

فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن التكذيب بالحق من شخصٍ تكذيبٌ به من جميع الأشخاص؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾، مع أنهم ما كذبوا إلا واحداً، لكن في الحقيقة هم كذبوا الحق، سواء جاء به نوح أو غيره، ولهذا صاروا مُكذِّبِينَ لِحَمِيعِ الرُّسُلِ.

الفائدة الثانية: فيها دليلٌ على أن نوحاً أرسلَ إلى جميع الناس في وقته؛ لقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾، وجه الدلالة أنهم قد كذبوا عامّة المرسلين، ونوح هو أول الرُّسُلِ، وليس من رسولٍ قبله.

وقد تقدّم أن هذا لا يُنافي عمومَ رسالة الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن في ذلك الوقت لم يكن في الأرض إلا قومه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾ [الصفات: ٧٧]، وهذا أمرٌ ليس قصداً، وإنما هو وقع اتفاقاً، ومعنى وقع اتفاقاً أن الله تعالى لمَّا أرسله لم يكن في الأرض سوى قومه. أمّا الرُّسُولُ ﷺ فإن الأقوام كثيرون: بنو إسرائيل، والعرب، والأجناس الأخرى، ومع ذلك فإنه مبعوثٌ إليهم جميعاً.



(الآيات ١٠٦ - ١١٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿١٠٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْفُونَ ﴿١٠٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء: ١٠٦-١١٠].

• • • • •

قال المفسر رحمه الله: [﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ ﴾ نَسَبًا ﴿ نُوحٌ أَلَا نَنْفُونَ ﴾ اللَّهُ، ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ عَلَى تَبْلِيغِ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ عَلَى تَبْلِيغِهِ ﴿ مِنْ أَجْرٍ إِنْ ﴾ مَا ﴿ أَجْرِيَ ﴾ أَيُّ ثَوَابِي ﴿ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا]].

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا﴾: فِي الْأَصْلِ تَكُونُ لِلْعَرْضِ، وَهُوَ الطَّلَبُ بِرَفْقٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]، وَلَكِنْ الْمُرَادُ بِهِ هُنَا التَّحْضِيضُ، وَهُوَ الطَّلَبُ بَحَثٌ.

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا نَنْفُونَ﴾ أَيُّ: أَلَا تَنْفُونَ اللَّهُ، يَعْنِي أَنَّهُ يُحِثُّهُمْ عَلَى أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ عَزَّجَلَّ وَيَتَّخِذُوا وَقَايَةً مِنْ عَذَابِهِ بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا قَامَ بِهِذِهِ الْمَوْعِظَةِ لِأَنَّهُ رَسُولٌ أَمِينٌ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، فَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ يَعْنِي: لَا لِغَيْرِكُمْ، وَالْخِطَابُ لِقَوْمِهِ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي رَسُولٌ، حَظُّهُمْ عَلَى قَبُولِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ رَسُولًا مُطْلَقًا قَدْ يَقُولُونَ: إِنَّكَ لَمْ

تُرْسَلُ إِلَيْنَا، فَإِذَا قَالَ: ﴿لَكُمْ﴾ تَعَيَّنَ.

ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا قَالَ: ﴿لَكُمْ﴾ يُشْعِرُهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اعْتَنَى بِهِمْ، حَيْثُ بَعَثَ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولَ، فَيَكُونُ فِيهِ هُنَا حَمْلٌ عَلَى أَنْ يَقْبَلُوا رِسَالَاتِهِ.

وقول: ﴿رَسُولٌ﴾ أي: من الله، وهذا معروفٌ من سياق هذه الآيات، ومن غيرها من الآيات الأخرى.

وقوله: ﴿أَمِينٌ﴾ الأمين: هو مَنْ كَانَ مَحَلَّ أَمَانَةٍ، وَالرُّسُلُ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كُلُّهُمْ مَحَلُّ أَمَانَةٍ لِرِسَالَتِهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: [على تَبْلِيغِ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ]، وَاضِحٌ، فَالَّذِي اتَّيَمَّنَهُ عَلَى ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إِظْهَارٌ لِيَوْضُفِهِ الْخَاصَّ الْمُنَاسِبَ لِلْمَقَامِ، وَهِيَ الرِّسَالَةُ، بِأَمَانَةٍ لَا خِيَانَةَ فِيهَا، لَا بزيادةٍ وَلَا بِنَقْصٍ.

وقد يقول قائل: أَيُّ فَائِدَةٍ لِيَوْضُفِهِ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وَهُوَ يُحَاطَبُ قَوْمًا قَدْ أَنْكَرُوهُ، فَإِذَا كَانُوا قَدْ أَنْكَرُوا رِسَالَاتَهُ فَبِالْأَوْلَى يُنْكِرُونَ أَمَانَتَهُ؟

والجواب: أَنَّهُ لَمْ يَدَّعِ أَنَّهُ رَسُولٌ أَمِينٌ فَقَطْ، وَلَكِنَّهُ جَاءَهُمْ بِآيَاتٍ، فَ«مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»^(١)؛ لِأَنَّ اللَّهَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، رقم (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٢).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرْسَلَ أَحَدًا إِلَىٰ أَقْوَامٍ فَيَسْفَهُ أَحْلَامَهُمْ، وَيُفْسِدَ أَدْيَانَهُمْ، إِلَّا وَمَعَهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُونَ عَلَىٰ مِثْلِهِ لَوْ لَمْ يَسْتَكْبِرُوا.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿﴾ هذا في المعنى مُكْرَّرٌ مع ما قبله، لكنّه في الأسلوب أشدُّ من الأوّل، فالأوّل حُضُّ بِصِفَةِ الْعَرَضِ: ﴿أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿﴾، وهنا أمر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿﴾، وفي هذا دليلٌ على قوّة جانبِ الْأَنْبِيَاءِ -عليهم الصلاة والسلام- بحيثُ تَوَصَّلُوا إِلَىٰ أَنْ يَأْمُرُوا أَقْوَامَهُمْ، مع أنّهم في الواقع يَتَحَدَّثُونَ من مصدرِ الْمُتَمَسِّسِ، لكن هم بأنفسِهِمْ أَعَزَّاء، وقد يكونُ أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ من مصدرِ القوّة، أمّا هم بالنسبة لإخوانهم فإنَّ أَقْوَامَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ عنهم، ليسوا مُبَالِغِينَ بِهِمْ.

قوله تعالى: ﴿وَاطِيعُونَ ﴿﴾، وهم إذا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَطَاعُوا رَسُولَهُ، فقد حَقَّقُوا شهادةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ، وهو أمرهم بهذا، ولا يَتِمُّ الْإِسْلَامُ في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ إِلَّا بِذَلِكَ -شهادة أن لا إله إلا الله، وأن هذا رسول الله- أمّا بعدَ بَعَثَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَتَعَيَّنَ: وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

قال المفسّر: [فيما أَمَرَكُم بِهِ]، أي: من توحيدِ اللَّهِ وطاعته. وفي أمرهم بهذا إشارة إلى أنه أُرْسِلَ بِذَلِكَ، أي: أُرْسِلَ بَأَنَّ يَأْمُرُهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿﴾، والفاءُ لِتَرْتِيبِ ما بعدها على ما قبلها، يعنِي: هذه الرِّسَالَةُ الَّتِي أُرْسِلْتُ بِهَا تَتَضَمَّنُ التَّقْوَى، وطاعة الرَّسُولِ؛ لِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ طَاعَةٌ لِلْمُرْسَلِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿﴾.

قوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴿﴾ أي: على ما قلتُ، أي: على تبليغِ الرِّسَالَةِ، و(من): زائدةٌ، و(أَجْرِي): اسمٌ منصوبٌ على أنه مفعول ثانٍ ل(أَسْأَلُكُمْ)، وهو منصوبٌ بفتحةٍ مُقَدَّرَةٍ على آخِرِهِ، منع من ظُهُورِهَا اشْتِغَالُ الْمَحَلِّ بِحَرَكَةِ حَرْفِ الْجَرِّ الزَائِدِ.

وأنت (من) هنا في سياق النفي داخله على نكرة؛ للتنصيص على العموم، يعني: من أجر قليل أو كثير، والمراد بالأجر هنا أجر الدنيا، وهو المعاوضة، يعني: ما قلت لكم: أعطوني أجراً، ولو أمرتكم بهذا لقيال: هذا رجل يريد أن يستجدي بما يدعيه من الرسالة.

وهناك أناس يتكلمون في المساجد، ويعظون الناس ويوجهونهم؛ فإذا انتهوا مدّوا أيديهم يسألون الناس، وهؤلاء حاهم خلاف حال الرسل، ولهذا تجدون الناس لو كانوا قد تأثروا بموعظتهم الأولى، فإذا مدّوا أيديهم بعد أن وعظوا ذهب كل ما كان في نفوسهم من هذا التأثير؛ لأن الإنسان إذا طلب الدنيا بما يراد به الآخرة، فسد أمره، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٥-١٦].

ويستفاد من هذا: أن من طلب العلم الذي جاءت به الرسل لينال به أمراً من الدنيا، فليس طريقه طريق الرسل؛ لأن الرسل إنما يأمرون الناس وينهونهم؛ لما يرجونه من ثواب الله لا لما ينالونه من الأجر، ففي هذا دليل على وجوب تصليح النية لمن قام مقام الرسل بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

يقول المفسر: [﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِي﴾]، ففسر (إن) ب (ما)، فهي نافية، وفسر ﴿أَجْرِي﴾ بقوله: [﴿ثَوَابِي﴾]، فالمعنى: ليس أجري عليكم ولا على غيركم من الخلق، وإنما هو: ﴿عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهو الله سبحانه وتعالى، وفي هذا إخلاص المرء لله عز وجل وأنه لا يريد ثواباً من أحدٍ ولا منالاً إلا من الله، وفيه أيضاً دليل على أن عمل الإنسان لينال الثواب ليس أمراً ممقوتاً، بل هو طريق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: مَالِكِهِمُ الْمَدْبِرِ لَهُمْ بِمَا يَشَاءُ، وَأَصْلُ الْمَالِكِ: الْمُتَصَرِّفُ فِي الشَّيْءِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ رَبُّ الْبَيْتِ، وَرَبُّ الْبَهِيمَةِ، وَرَبُّ كَذَا، وَيُطْلَقُ بِمَعْنَى (صَاحِبِ) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، وَرَبُّ الْعِزَّةِ يَعْنِي: صَاحِبَ الْعِزَّةِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ الرَّبُّ هُنَا مِثْلَ الرَّبِّ فِي قَوْلِ: رَبِّكُمْ؛ لِأَنَّ الْعِزَّةَ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، وَلَا تَكُونُ مَخْلُوقَةً.

فَهُنَا: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: خَالِقِهِمْ وَمَالِكِهِمْ وَمَدْبِرُ أَمْرِهِمْ بِمَا يَشَاءُ، وَ(الْعَالَمِينَ) مَعْنَاهَا: كُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ كُرِّرَ تَأْسِيسًا؛ لِأَنَّهُ بِنَاؤُهُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يَعْنِي: فَإِذَا انْتَفَى ذَلِكَ فَأَنْتُمْ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي، فَيَكُونُ هَذَا تَأْسِيسًا، وَلَا يُسْتَفَادُ الْمَعْنَى الْمَقْصُودُ مِنْهُ لَوْ حُذِفَ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ التَّأْكِيدِ وَالتَّأْسِيسِ: أَنَّ التَّأْكِيدَ لَوْ حُذِفَ لاسْتُفِيدَ الْمَعْنَى مِنْهُ مِمَّا بَقِيَ دُونَ التَّأْكِيدِ، أَي أَنَّ الْمُؤَكَّدَ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ سِوَى التَّأْكِيدِ، فَلَا يَحْمِلُ مَعْنَى جَدِيدًا، أَمَّا التَّأْسِيسُ فَيَحْمِلُ مَعْنَى جَدِيدًا، وَهُوَ: وَعَلَى أَنْي لَا أُرِيدُ الْأَجْرَ، وَإِنَّمَا أَلْتَمَسُ الثَّوَابَ مِنَ اللَّهِ، فَيَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ وَتُطِيعُونِي.

وَيُسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أَنَّ التَّقْوَى لَا تُضَافُ إِلَى الْمَخْلُوقِ، بِخِلَافِ الطَّاعَةِ، فَلَا بَأْسَ أَنْ أَقُولَ: أَنَا أَطَعْتُ فَلَانًا، لَكِنْ لَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: اتَّقِ فَلَانًا، بِمَعْنَى التَّقْوَى الْمُسْتَلْزِمَةَ لِلتَّذَلُّلِ.



الآيات (١١١ - ١١٥)



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٥].



قال المفسر رحمه الله: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ﴾ نُصَدِّقُ ﴿لَكَ﴾ لِقَوْلِكَ ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: «وَاتَّبَاعَكَ»^(١) جَمَعَ تَابِعٌ مُبْتَدَأُ ﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ السَّفَلَةُ كَالْحَاكَةِ وَالْأَسَاكِفَةُ، ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي﴾ أَيِّ عِلْمٍ لِي ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ إِنْ ﴿مَا﴾ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ﴿فِيَجَازِيَهُمْ ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ مَا عِبْتُمُوهُمْ، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ إِنْ ﴿مَا﴾ ﴿أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بَيْنَ الْإِنذَارِ].

قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ﴾ إجابةٌ صريحةٌ قبيحةٌ في الواقع؛ لأنَّ الاستفهام هنا من إنكارٍ، وإتيانُ الاستفهامِ من الإنكارِ والنفيِ أبلغُ من النفيِ المجردِ، يعنِي: كيف نُؤْمِنُ لَكَ، ولا يُمكنُ أَنْ نُؤْمِنَ لَكَ؟ وقوله: ﴿لَكَ﴾ ما قال: بِكَ، وقولُ المفسرِ: (لِقَوْلِكَ) فيه نظرٌ؛ لأنَّهم يُريدونَ الاستكبارَ لا نفيَ مجردِ التصديقِ، فيكونُ قولُهم: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ﴾ ضَمَّنَ مَعْنَى (ننقاد).

قوله: ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾ حاليَّةٌ على تقدير (قد)، يعنِي: وقد اتَّبَعَكَ الأَرذَلُونَ، يعنِي:

(١) النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٣٥).

لا يُمكن أن نُؤمنَ لك.

قوله: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ أي الأنقصون من الخلق، وقوله: ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾ فيها قراءتان: (وأتباعك) جمع: تابع، مبتدأ، و(الأرذُلُونَ) خبره، أمّا على قراءة ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾ ف(الأرذُلُونَ) فاعل.

والمعنى: أئتمّ قالوا: لو كان أتباعك الملاء والأشراف لا تبتعنّاك، لكن أتباعك أرذل الناس، من الفقراء والسوقة، والذين لا يُقدّرون الأمور ولا يعرفونها؛ فهم أرذلهم من حيث المال -على زعمهم- ويُمكن أن نقول: إنهم أرذلهم من حيث الثقافة أيضًا والجاه والشرف، فهم أرذل الأراذل عندهم.

وهل هذا مانع، فهو يوجه الخطاب إليكم أيها الأكملون، فكيف تقولون: لا نُؤمن واتبعتك الأرذُلون؟ فالخطابُ موجّه لكم؛ لأنكم لو آمنتم ما احتجج إلى توجيه الخطاب والأمر لكم بتقوى الله، وطاعته، ولكنكم مُعاندون.

وهنا قالوا: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ على سبيل الإطلاق بدون إضافة إلى أحد، وفي سورة هود قالوا: ﴿وَمَا زِلْنَا بِأَنْ نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]، فكانت العبارة هناك أهون من هذه من جهتين:

أولاً: لأنهم أضافوا الأمر إليهم، وهنا أطلقوا.

ثانياً: أئتمّ هناك قالوا: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ يعني: ولعلّه عند التأمل لا يكون الأراذل هم الأتباع، وهنا أطلقوا فما قالوا: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ولا آخر الرأي، فإمّا أن تكون هذه الآية قبل تلك أو تلك قبل هذه.

ويحتمل أن هذا قول طائفة، وهذا قالته طائفة أخرى، لكن حملة على حالين

أحسن من حملِهِ على طائفتين، فأوَّل التبليغِ يكونُ الإنكارُ أشدَّ، و﴿الْأَرذَلُونَ﴾ على العموم، ثم قالوا: ﴿أَرَادْنَا﴾ للتخصيص.

قال المفسر رحمه الله: [﴿وَمَا عَلِمِي﴾ أي علم لي ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾]، فقد يُقال في بادئ الأمر: إن اعتذارهم منه يعني: كونهم آمنوا وهم على زعمكم ﴿الْأَرذَلُونَ﴾ أنا لا أدري أنهم الأردلون؟ يعني: فأنا ما قصدتهم حتى آمنوا لعلم بهم، ولكن هكذا جرت الدعوة، فاتبعها هؤلاء، فهذا ما يتبادر إلى الذهن في أوَّل الأمر.

ولكن الظاهر - والله أعلم - أن نفيه العلم هنا نفي للتبعية، يعني: أي شيء يكون عليّ وأي شيء يلحقني بعملهم؟ فلو كانوا هم الأراذل على زعمكم، فأنا لا يضُرُّني ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلِمِي﴾ أي: ما حسابي، وما التبعة التي تلحقوني بها فيما كانوا يعملون؟

وقال المفسر: [﴿وَمَا عَلِمِي﴾ أي علم لي ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾]، أي أنهم يدعون أنهم إنما تابَعوه لِيَنَالُوا بذلك جاهًا ومالًا، فيكونون غير مخلصين في إيمانهم، فالمعنى: بما كانوا يعملونه من أعمال القلوب، على أن هذا ليس بظاهر، ولكن هذا خلاف الظاهر فيما يبدو.

بل إن المعنى: إن عملهم هذا ليس عليّ فيه تبعة مهما عملوا، ولو كانوا في زعمكم الأراذل؛ فإن ذلك لا يلحقني بشيء ما دامت رسالتي قائمة، وآياتي بيّنة، فالحجة عليكم قائمة، أمّا هم حتى وإن كانوا الأراذل عندكم، فحسابهم على ربّي.

و﴿إِنْ﴾ بِمَعْنَى (مَا): فَمَا حِسَابُهُمْ - كما قال المفسر - ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ فَيَجَازِيهِمْ، وَأَمَّا أَنَا فَمَا عَلَيَّ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، كما أنه ليس عليّ أيضًا من حسابكم من شيءٍ.

أَمَا كُونَ عَمَلٍ هَؤُلَاءِ بِالْقُلُوبِ فَلَيْسَ بظَاهِرٍ؛ يَعْنِي: حِسَابِهِمْ عَلَىٰ رَبِّي حَتَّىٰ لَوْ عَمِلُوا هَذِهِ الْأَعْمَالَ؛ لِأَنَّ أَعْمَالَ الْبُؤَاتِنِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَدِّحُوا بِهَا، وَلَوْ قُدِّحُوا بِهِمْ مَا قُبِلَ، فيقول: حِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ لَيْسَ عَلَيَّ، وَأَنَا مَا عَلَيَّ إِلَّا تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ الشُّعُورُ هُنَا بِمَعْنَى: الْعِلْمُ، قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [مَا عِبْتُمُوهُمْ]، يَعْنِي: مَا قَدِّحْتُمْ فِيهِمْ، يَعْنِي: لَوْ أَنَّكُمْ تَشْعُرُونَ بِالْأَمْرِ وَتَعْلَمُونَهُ مَا عِبْتُمُوهُمْ بِقَوْلِكُمْ: أَرَادِلُنَا، وَلَكِنْ عَيْبُهُمْ إِيَّاهُمْ فِي الْوَاقِعِ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِنُوحٍ، فَهَمْ أَرَادِلُ عِنْدَهُمْ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَنْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ حَقٍّ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ مَنْ لَيْسَ بِحَقٍّ فَهُوَ مِنْ أَرَادِلِ النَّاسِ مَعْنَى، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَرَادِلِهِمْ حِسًّا، فَالَّذِي يَتَّبِعُ مَنْ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةُ، فَهُوَ مِنْ أَرَادِلِ النَّاسِ مَعْنَى، وَإِنْ كَانَ فِيهَا بَيْنَ النَّاسِ قَدْ يَكُونُ لَهُ جَاهٌ، وَيَكُونُ عَزِيزًا.

فَالْمَعْنَى: لَوْ تَشْعُرُونَ بِالْأَمْرِ عَلَى حَقِيقَتِهِ لَعَرَفْتُمْ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَرَادِلٍ، وَأَنْ حِسَابَهُمْ لَيْسَ عَلَيَّ، وَأَنْ عَلَيَّ وَاجِبًا وَعَلَيْهِمْ وَاجِبٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا يُشْعِرُ بِأَنَّهُ عَلِيمٌ إِخْلَاصَهُمْ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا قَالُوا: ﴿وَأَتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ تَلْمِيحًا لِطَرْدِهِمْ بِلَا شَكٍّ، فَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: نَحْنُ نَأْتِفُ أَنْ نَكُونَ مَعَكَ وَمَعَكَ هَؤُلَاءِ الْأَرْدَلُونَ، فَنَكُونُ نَحْنُ عَلَى الْيَمِينِ وَهُمْ عَلَى الْيَسَارِ، أَوْ عَلَى الْيَسَارِ وَهُمْ عَلَى الْيَمِينِ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَطْرُدَهُمْ لِنُؤْمِنَ،

فقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فأكد قوله بالباء، يعنى: لا يمكن أن أطردهم أبداً؛ لأنني أنا دعوتهم إلى الإيمان فآمنوا، فكان حَقَّهم عليَّ الإكرام.

وهذا الذي قاله قوم نوح، وهو أول الرُّسل، قاله قوم مُحَمَّدٍ ﷺ وهو آخر الرُّسل، فقال الله تعالى له: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِسَى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِسَى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، فهذا دأبُ المكذِّبين للرُّسل، ما عندهم شيءٌ يعتمدون عليه سوى التَّمويه والتضليل وزخارف القول، التي لا تنطلي إلا على العميان.

قال المفسر رحمه الله: ﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. والنذير هو المخبر بما يخوف، يعنى الإعلام المقررون بالتخويف.

وقوله تعالى: ﴿مُبِينٌ﴾ قال المفسر رحمه الله: [بين الإندار]، فجعله المفسر من (أبان) اللّازم، مع أنه يتحمل أنه من (أبان) المتعدي، فتكون بمعنى: مظهر، يعنى: إني مظهرٌ لهما حيثُ به، فأنا نذير مبين للناس.

فوائد الآياتِ الكريمة:

الفائدة الأولى: وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دليلٌ على أنه ينبغي للإنسان أن يقربَ منه كلُّ مؤمنٍ، وأن يختارَ لنفسه أصلح الأصحاب، كما جاء في السنة في الحثِّ عليه، فهذا اختيارُ الجليسِ الصَّالح.

الفائدة الثانية: وفيه أيضاً دليلٌ على أنه ينبغي موالاةُ المؤمنين، والقرب منهم، وأن هذا دأبُ الأنبياء؛ لقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الفائدة الثالثة: وفيه أيضًا الصبرُ على ما يجِدُ من المؤمن من الجفاء، ومن دناءة المهنة، وغير ذلك؛ لقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ..

الفائدة الرابعة: وفيه أيضًا التواضعُ للمؤمنين، وعدمُ إبعادهم ولو كانوا من كانوا فيما بين الناس؛ لقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أشرفُ الخلقِ جاهًا عندَ الله، وأعظمهم منزلةً، عاتبه الله في رجل أعمى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾﴾ [عبس: ١-٤].



الآيات (١١٦ - ١١٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّا قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٨﴾ فَافْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيَ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦-١١٨].

• • • • •

قال المفسر رحمه الله: ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَنْتُحِ ﴾ عَمَّا تَقُولُ لَنَا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ بِالْحِجَارَةِ أَوْ بِالسُّتَمِ، ﴿ قَالَ نُوحٌ: ﴿ رَبِّ إِنَّا قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ فَافْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ أَيِ احْكُمِ، ﴿ وَنَجَّيَ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١].

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا ﴾ يَعْنِي: لَمَّا رَأَوْا تَصْمِيمَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَنَّهُ لَنْ يَطْرُدَ الْمُؤْمِنِينَ لِقَوْلِهِمْ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَرَادِلُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَإِنَّمَا حِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ، فَلَجَّئُوا إِلَى الْقُوَّةِ، فَقَالُوا: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَنْتُحِ ﴾ قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [عَمَّا تَقُولُ لَنَا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ بِالْحِجَارَةِ أَوْ بِالسُّتَمِ].

وقوله: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ ﴾ فِي الْآيَةِ إِشْكَالٌ مِنْ حَيْثُ الْإِعْرَابِ؛ لِأَنَّ فِيهَا قَسَمًا وَشَرْطًا، وَكِلَاهُمَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ، فَأَيْنَ جَوَابُ الشَّرْطِ؟ وَأَيْنَ جَوَابُ الْقَسَمِ؟

والجواب: أَنْ ﴿ لَتَكُونَنَّ ﴾ جَوَابُ الْقَسَمِ، وَابْنُ مَالِكٍ يَقُولُ (١):

وَاحْدِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمٍ جَوَابَ مَا أَخْرَجَتْ فَهَو مُلْتَزِمٌ

(١) ألفية ابن مالك - عوامل الجزم، (ص: ٥٩) ط. دار التعاون.

وأيضاً: ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ لا تصلح جواب شرط؛ لأن اللام لا يمكن أن تقترن بجواب الشرط، إنما تقترن بجواب القسم.

والقاعدة عند أهل العلم في النحو يقولون: إنه إذا اجتمع شرط وقسم، فاحذف جواب المتأخر، فإذا قلت: «إن قمت والله صربتك»، جاز أن تقول: «لأضربنك»؛ لأن الشرط متقدم، ولكن لو قلت: «والله إن قمت صربتك» فلا يجوز أن تقول: «لأضربنك».

وقولهم: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْحُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أكدوا فيه -والعياد بالله- ما أرادوا من رجمه بثلاثة مؤكّدات: القسم، واللام، ونون التوكيد، ثم أوغّلوا في الوعيد والتهديد، حيث قالوا: ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ولم يقولوا: لَنَرَجُمَنَّكَ، كأنهم يقولون: هناك من سبقك فرجم، فنحن نرجمك معهم، فهذا أبلغ من لو أنهم قالوا: (لَنَرَجُمَنَّكَ)؛ لأن فيه تخويفاً؛ حيث إنه ليس أوّل من يرجم، بل هناك من رجم قبله.

وهل يقصدون أنهم يرجمونه بالحجارة أو بالقول؟

الظاهر والأقرب أنهم يقصدون رجمه بالحجارة؛ لأن الرجم بالقول قليل الاستعمال، ثم إن التهديد به من هؤلاء الذين يرون أنهم يتكلمون من مصدر القوة ليس بلائق في المقام، فالصواب أنهم يهدّدونه بالرجم بالحجارة، والله أعلم.

حينئذ لجأ إلى الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ١١٧ فأفتح بيني وبينهم، وهذا الدعاء جمع بين أسباب الإجابة الثلاثة، وهي:

الأول: دعاء الله تعالى باسم الربوبية: ﴿رَبِّ﴾.

الثاني: ذِكرِ الحَالِ الداعيةِ المُقتضيةِ في الدُّعاءِ: ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونَ﴾.

الثالث: الطَّلَبُ، ﴿فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَبِحَبْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أولاً: قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾، والرَّبوبِيَّةُ تَنقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: عامَّةٍ وخاصَّةٍ، وهذه من الرَّبوبِيَّةِ الخاصَّةِ، بل هي من أَحْصَى الرَّبُوبِيَّاتِ؛ لِأَنَّهَا رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي رُسُلِهِ.

ثانيًا: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونَ﴾ إظهارٌ للأضعفِ، يَعْنِي: لما هو أضعفٌ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ قَوْمِي﴾ كَانَ مُقْتَضِي الحَالِ أَنْ يَكُونُوا مُصَدِّقِينَ لَهُ؛ لِأَنَّهم قَوْمَهُ، وَلَكِنْهم -والعياذُ بِاللَّهِ- صاروا مُكذِّبِينَ لَهُ، فَصارتْ حَالُهُ تَقْتَضِي رَأْفَةً أَكْثَرَ، حَيْثُ إِنَّ قَوْمَهُ هُمُ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ، ثُمَّ إِنَّهُ يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ النِّكَايَةُ فِيهِمْ أَعْظَمَ أَيْضًا؛ لِأَنَّهم قَوْمُهُ.

وهذه الإضافةُ فيها فائدتان:

الفائدةُ الأولى: بيانُ أَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لِلرَّأْفَةِ أَكْثَرَ؛ لِأَنَّ قَوْمَهُ هُمُ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ.

الفائدةُ الثانيةُ: أَنَّ قَوْمَهُ مُسْتَحَقِّونَ لِلتَّنْكِيلِ بِهِمْ أَكْثَرَ؛ لِأَنَّهم قَوْمُهُ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُصَدِّقُوهُ وَيَمْنَعُوهُ، يَعْنِي: مَنْ أَنْ يُؤذِيَ، فَكَيْفَ يَكُونُونَ هُمُ الَّذِينَ يُؤذُونَهُ؟!!

وهذا كقولهِ تَعَالَى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١-٢]،

ولم يقل: «ما ضلَّ النَّبِيُّ أَوْ الرَّسُولُ»، بل قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، يَعْنِي: الَّذِي تَعْرِفُونَهُ، وَتَعْرِفُونَ رَجَاحَةَ عَقْلِهِ، وَتَعْرِفُونَ أَمَانَتَهُ، فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ المِعْرَاجِ؟!!

قال: ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُون﴾ يَعْنِي: نَسَبُونِي إِلَى الْكَذِبِ، وَقَالُوا: كَذَّبَهُ، وَكَذَّبَهُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنْ (كَذَّبَهُ) أَخْبَرَهُ بِخِلَافِ الْوَاقِعِ، وَ(كَذَّبَهُ) أَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْ مَا جَاءَ بِهِ.

ثَالِثًا: الْفَاءُ لِلْسَبِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾، وَهَذَا الْقَوْلُ ظَاهِرُهُ الْأَمْرُ، لَكِنَّهُ فِي جَانِبٍ لَهُ يُسَمَّى دُعَاءً؛ إِذِ الْأَمْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَنْ يَسْتَعْلِي عَلَى الْمَأْمُورِ، وَلَيْسَ الطَّالِبُ بِمُسْتَعْلٍ عَلَى مَطْلُوبِهِ، ثُمَّ إِنْ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

وقوله: ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أَي: أَحْكَمَ، وَسُمِّيَ الْحُكْمُ فَتْحًا؛ لِأَنَّهُ يَنْفَتِحُ بِهِ الْأَمْرُ وَيَتَبَيَّنُ، فَيَنْفَصِلُ هَذَا عَنِ هَذَا، وَهَذَا الْفَتْحُ بِأَنْ يُنَجِّيه وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُهْلِكُهُمْ، أَمَّا نَجَاتُهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَصْرَحٌ بِهَا، وَأَمَّا إِهْلَاكُهُمْ فَلَا نَجَاةَ إِلَّا مِنْ هَلَكَةٍ، هَذَا هُوَ الْفَتْحُ الَّذِي سَأَلَهُ نُوحٌ أَنْ يُهْلِكَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْمَهُ وَأَنْ يُنَجِّيه هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وقد قال تعالى عنه في سورة نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦١﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْتَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

وقد يقول قائل: هل يُخْبِرُ نُوحٌ اللَّهَ تَعَالَى بِالْوَاقِعِ؟ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى عَالِمًا بِهِ؟

فالجواب: بلى، هو عالمٌ به، لكن قَصْدُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِيَانِ الْحَامِلِ لَهُ عَلَى هَذَا الدُّعَاءِ أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ إِذَا أَبْقَاهُمْ لَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا، وَإِلَّا فَاللَّهُ تَعَالَى عَلِيمٌ بِهِ، فَيَكُونُ هَذَا كَالِاعْتِزَالِ عَنِ هَذَا السُّؤَالِ الْعَامِّ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

قوله: ﴿وَيَجْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذِهِ الْمَعِيَّةُ لَيْسَتْ مَعِيَّةَ اخْتِلَاطٍ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ، بَلْ هِيَ مَعِيَّةُ اشْتِرَاكِ فِي عَمَلٍ وَعَقِيدَةٍ؛ فَإِنَّ الَّذِي مَعَ نُوحٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

كانوا مشاركين له في العقيدة والعمل، وهذا مما يدلُّ على أنَّ المعية ليست كما فهمه المحرِّفون في معية الله سبحانه وتعالى وأنها تقتضي المشاركة في المكان، أو الاختلاط، فهذا ليس بلازم.

وقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لبيان المُبْهَمِ فيمن معي؛ لأن (من) اسمٌ موصولٌ، والاسمُ الموصولُ يحتاجُ إلى بيانٍ، وبيانه إمَّا من صلته وإمَّا من غيرها.

ويُستفادُ منه أنه عند اليأسِ يجوزُ أن يدعو الإنسانُ على المكذِّبين والمعاندين.

وهل أقرَّ شرُّنا هذا أم خالفه؟

الجواب: إنَّ شرُّنا أقره، لكنَّه فضلَ عدمَ الدعاءِ، إلَّا إذا كان ثبتَ أثمُّه لا يستقيمون، ولا يؤمنون، فيُشرعُ الدعاءُ، والدليلُ على ذلك أن الله رأى النبي ﷺ عندما نادى عليه عليه جبريلُ وقال له ملكُ الجبالِ: إن شئتَ أن أُطبِقَ عليهمُ الأحشبيين. فقال: «بل أَرَجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهُ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(١). لكنه لم يمنع أحدًا.

ودليلٌ أصرحُ منه أن النبي ﷺ لَمَّا دعا عليهم في الصلاة قال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ، واجعلها سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ... اللَّهُمَّ الْعَنَ فُلَانًا وَفُلَانًا» لأحياءٍ من العرب؛ نزل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨]^(٢) فكفَّ عن هذا، فشرُّنا أمرٌ بالصبرِ، وعدمِ الدعاءِ عليهم.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٥).

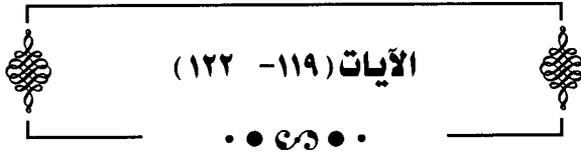
(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾،

ولكن قد يُقال: إن نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَرِيعَتَهُ تَخَالَفَ شَرِيعَتَنَا، ولا مانعَ من أن تختلفَ الشرائعُ بمثل هذا، وأيضًا فإن نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مكثَ في قومِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وكلَّمَا دَعَاهُمْ ازدادوا إصرارًا واستكبارًا، فما كانَ للصبرِ عليهم فائدةً، لكنَّهُ لم يهاجرَ منهم كما فعل يونسُ، بل بَقِيَ فيهم، حتى عَذَّبَهُمُ اللهُ.

وهل كون الرسول ﷺ دعا على الملأ من قُريشٍ، يدلُّ هذا على جوازِ الدعاءِ؟

نقول: نعم، لكنَّهُ مُنِعَ منه في آخِرِ الأمرِ، وهو دعا على الملأ من قريشٍ في مكَّة قبل أن يُهاجرَ، ففي الأخيرِ مُنِعَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿﴾ [الشعراء: ١١٩-١٢٢].



قال المفسر رحمه الله: [﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿المملوء من الناس والحيوان والطير﴾، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بعد إنجائهم ﴿الْبَاقِينَ﴾ مِنْ قَوْمِهِ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿﴾].

قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ الفاء للسببية، أي: فبسبب دعائه أنجيناها، وهي مع إفادتها السببية تفيد أيضاً التّعقيب، ﴿وَمَنْ مَعَهُ﴾ مع أن دعاءه: ﴿وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]، فكلمة: ﴿وَمَنْ مَعَهُ﴾ أعم.

فما هي الحكمة في ذلك؟

ذلك لأنه صحب معه بعض الحيوانات والمخلوقات، وأخذ من كل زوجين، فهذه لا تلتصق في الإيمان أو عدمه.

وقد نقول: لعله ما قصدتها أيضاً من نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي دُعَائِهِ، فَمَا كَانَ -فِيهَا يَظْهَرُ- يَدُورُ فِي ذَهْنِهِ أَنَّ اللَّهَ يُنْجِي هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْأُخْرَى، بَلْ قَالَ: ﴿وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد نقول: إن قَوْلَهُ: ﴿وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من بابِ التَّغْلِيْبِ؛ لأنه هو أيضًا إِنَّمَا دَعَا مَنْ مَعَهُ، فَكَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَلَبَ جَانِبَ الْعُقَلَاءِ؛ لأنه هو إِنَّمَا دَعَا بِإِنجَائِهِمْ، فَصَارَ هَذَا أَنْسَبَ لِمَطَابَقَةِ الْإِجَابَةِ لِلطَّلَبِ.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾، الْفُلُكُ الَّذِي بَنَاهُ أَوْ صَنَعَهُ نُوْحٌ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وَّدُسْرٍ﴾ [القمر: ١٣]، وَهَذَا قَالَ: ﴿فِي الْفَلَكَ﴾.

وَأَيُّهَا أَخْطَرُ؛ قَوْلُهُ: ﴿ذَاتِ أَلْوَجٍ وَّدُسْرٍ﴾، أَمْ قَوْلُهُ: ﴿فِي الْفَلَكَ﴾؟

الْفُلُكُ بِلَا شَكٍّ أَخْطَرُ مِنْ: ﴿ذَاتِ أَلْوَجٍ وَّدُسْرٍ﴾، لَكِنْ فِي السُّورَةِ: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي تَوَاصُلِ آيَاتِهَا وَمَقَاطِعِهَا وَجُمَلِ الْآيَاتِ الْمُنَاسِبَةِ لَهَا: ﴿ذَاتِ أَلْوَجٍ وَّدُسْرٍ﴾.

كَمَا أَنَّ فِيهِ فَائِدَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، وَهِيَ بَيَانُ مَوَادِّ هَذِهِ السَّفِينَةِ، أَنَّهَا مِنَ الْأَلْوِاحِ وَالْمَسَامِيرِ، لِيَكُونَ فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ، وَأَلْجَلِ أَنْ يَتَعَلَّمَ صِنَاعَةَ السُّفُنِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ، وَالصِّنَاعَةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَا تَطَوَّرَتْ إِلَى هَذَا التَّطَوُّرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الْمَشْحُونِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [المملوء من النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ وَالطَّيْرِ]، فَهُوَ مَشْحُونٌ مَمْلُوءٌ مِنَ الْحَيَوَانِ، وَمِنَ النَّاسِ، وَالطَّيْرِ، وَالطَّيْرُ مِنَ الْحَيَوَانِ، لَكِنْ عَطَفَهُ عَلَيْهِ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، وَكَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنَّ الْحَيَوَانَ هُوَ مَا يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ، وَالطَّيْرُ مَا يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ، وَإِلَّا لَوْ قَالَ: الْحَيَوَانَ لَكَفَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿الْفَلَكَ﴾ اسْمٌ جِنْسٍ يَشْمَلُ بِلَفْظِهِ الْوَاحِدَ وَالْجَمْعَ، يَعْنِي هَذَا اللَّفْظُ صَالِحٌ لِلْجَمْعِ وَالْمُفْرَدِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحِ

طَبَّيَّةٌ ﴿ [يونس: ٢٢]، فقال: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ هنا أراد بالفلك الجمع، وقال في موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ [لقمان: ٣١]، فهنا أراد المفرد، ولو كان بالجمع لقال: تَجْرِينَ.

فإن قيل: وهل هذا الفلك يشمل الطائرات والسيارات؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس: ٤١]، ولم يقل: أنا حملناهم؟

قلنا: الذي يمنع من هذا هو قوله: ﴿وَأَيُّهُ لَمَّا أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، والذرية تأتي بعد، فكيف تكون آية لهم وهم سابقون عليها، ولذلك أكثر المفسرين على خلاف هذا الرأي، يقول: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يعني ذرية أبيهم، أي نوح عليه الصلاة والسلام، وبعضهم قال: إن الذرية هنا بمعنى الآباء، لكن استعمال الذرية بمعنى الآباء بعيد في اللغة العربية، لكن استعمالها بمعنى الذرية التي نشئوا منها، ليس في الإضافة للذرية التي نشأت منهم، وهي ذرية أبيهم نوح، وهذا أنسب؛ لأن الحقيقة أننا لو جعلنا: ﴿وَأَيُّهُ لَمَّا أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لذرية ما بعد جاءت تكون آية لمن قد مات، فهذا بعيد.

لكنها ربما تطلق على الطائرات وغيرها من وسائل النقل الحديثة؛ لأن الفلك هو كل مركوب مخلوق، ولهذا حصر الله سبحانه وتعالى المركوبات في هذا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، فالفلك ما نصنعه نحن، والأنعام ما يخلقها الله.

لكن الكلام هنا على كون هذه الوسائل آية لهم، وهم موجودون، والذرية ما بعد أتت، فنفس الآيات الموجودة في عهده إذا حملناها نحن على الطائرات والسيارات ووسائل المراكب، لا يكون آية لهؤلاء.

ثم إن كلمة: ﴿حَمَلْنَا﴾ يُتَاجَإُ إِلَى تَأْوِيلِهَا إِلَى: سَنَحْمِلُ، وَحِينَئِذٍ إِذَا كَانَتْ سَنَحْمِلُ لَا تَصِيرُ آيَةً لَهُمْ إِلَّا بِاعْتِبَارِهَا وَعَدًّا مِنَ اللَّهِ لَيْسَ مَشَاهِدًا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَخَاطَبُ هَؤُلَاءِ الْمَعَانِدِينَ بِمَا يَقْتَضِيهِ وَعَدَهُ فَقَطُّ، وَإِنَّمَا يُخَاطَبُهُمْ بِآيَاتٍ يُشَاهِدُونَهَا، أَوْ تَكُونُ مَعْلُومَةً لَدَيْهِمْ، بِحَيْثُ لَا يُتِمَكَّنُ مِنَ الْإِنكَارِ.

فَالْقَوْلُ بِأَنَّ الْفُلُكَ الْمَشْحُونَ هُنَا يُرَادُ بِهِ الطَّائِرَاتُ وَغَيْرُهُ لَيْسَ لَهُ وَجْهُ، وَالصَّوَابُ أَنْ نَقُولَ: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]، يَعْنِي الذُّرِّيَّةَ الَّتِي كَانُوا مِنْهَا، فَالِإِضَافَةُ - كَمَا يَقُولُ النُّحَوِيُّونَ - لِأَدْنَى مُلَابَسَةٍ، فَأَبَاؤُهُمْ بِالنِّسْبَةِ لِنَوْحِ ذُرِّيَّةٍ، وَأَمَّا عَادَةُ الْإِطْلَاقِ أَنَّ الذَّرِيَّةَ تَأْتِي بِالْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّ لِلْآبَاءِ.

قَالَ الْمُسَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ﴾ أَي: بَعْدَ إِنْجَائِهِمْ ﴿الْبَاقِينَ﴾ مِنْ قَوْمِهِ]، وَالَّذِينَ هُمْ نَجَوْا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وَابْنُهُ - أَحَدُ أَبْنَائِهِ - مَا نَجَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ كَافِرًا، وَهُوَ قَدْ سَأَلَ: ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨].

وَفِي الْآيَاتِ الْأُخْرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لَهُ: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ ثُمَّ اسْتَشَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، وَلَكِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعَا اللَّهَ تَعَالَى مُشْفِقًا وَرَاجِيًا رَحْمَتَهُ: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، وَالْجَوَابُ هُنَا فِيهِ إِشْكَالٌ، إِنَّهَا قَالَتْ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُقْتَضَى مَا سَبَقَ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ؛ لِأَنَّهُ اسْتَشَى قَبْلًا: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾.

لَكِنْ لَوْ قِيلَ كَذَلِكَ - لِأَنَّهُ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ - لَقَالُوا: وَمَاذَا سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ؟

فذكر النتيجة الأخيرة، وهو أنه: ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ إلى آخره، ولها توجيهان:

التوجيه الأول: أنه، أي: سؤالك ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾؛ لأنك سألت ما لا يجوز في علم الله.

التوجيه الثاني: أنه، أي: الولد ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ من باب المبالغة، يعنى: عاملٌ غير صالح، فأطلق عليه المصدر كما يُقال: فلانٌ عدلٌ، وفلانٌ رِضًا، بمعنى ذي عدلٍ وريضا، فالمعنى أنه ذو عملٍ غير صالح، ويؤيد هذا الاحتمال قراءة: (إنه عمَلٌ غير صالح) (١).

فإن قيل: هؤلاء الذين نجوا هل هم الذين بقوا من أهل الأرض؟

قلنا: لا، ليسوا هم، بل ذرية نوح هم الذين بقوا، وأما من كان معه من المؤمنين فإنهم فنوا، وما بقي لهم نسل، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

ولهذا يقال: إن نوحًا عليه الصلاة والسلام هو الأب الثاني للإنسان؛ فالأب الأول آدم، ونوح هو الأب الثاني؛ لأن جميع بني الإنسان ماتوا، وما بقيت إلا ذريته: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، و﴿هُمُ﴾ ضميرٌ فصلٍ يفيد الحصر والاختصار، فهم الذين بقوا.

ويقول المؤرخون: إنهم ثلاثة: سام، وحام، ويافث، والله أعلم إن كانت هذه أسماءهم أم لا؟ وهل هم ثلاثة أم أكثر أو أقل؟ إنما هذا كلام المؤرخين.

(١) الحجة في القراءات السبع (ص: ١٨٧).

والمهم أن المتيقن أنه ما بقي أحدٌ من أهل الأرض إلا ذرية نوح عليه السلام، فيكون هو الأب الثاني.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ أي أن إغراقهم آية عظيمة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١]، وفيها ﴿فَفَتَحْنَا﴾، و﴿فَفَتَحْنَا﴾^(١): قراءتان سبعيتان، و﴿فَفَتَحْنَا﴾ أبلغ من ﴿فَفَتَحْنَا﴾. ففتح الله أبواب السماء بماء منهمر، يعني: نازل بقوة وشدة وكثرة.

قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]، المعربون يقولون: إن الأصل: (فجرنا عيون الأرض)، وإنما تمييزٌ محوِّلة عن مفعول، وفي الحقيقة أن ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أبلغ وأعظم، يعني: كأن الأرض كلها صارت عُيُونًا، فهو أبلغ من: (فجرنا عيون الأرض)، فعيون الأرض نقرض أنها عشر عُيُونٍ، فلا تفيد لو كانت: (فجرنا عيون الأرض)، لكن ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ كلها، حتى إن التنور بدأ يفور من الماء، والتنور أبعد ما يكون عن الماء؛ لأنه محلُّ تفجير النار، ومحلُّ تفجير النار يكون يابساً يئوساً بالغاً، ولكن مع ذلك صار ياذن الله يفور.

قال تعالى: ﴿فَأَلْفَقَى الْوَأْتِ الْوَأْتِ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدِ فُذِرَ﴾ [القمر: ١٢]، حتى بلغ قِممَ الجبال، وغرق الناس كلهم إلا من في هذه السفينة، وحينئذ صدق قول نوح لقومه: ﴿إِن تَسْحَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْحَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْحَرُونَ﴾ (٢٨) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨-٣٩]، فصارت السخرية السخرية الحقيقية لهؤلاء

(١) حجة القراءات (ص: ٦٨٩).

الَّذِينَ عَلَى السَّفِينَةِ، وَكَأَنِّي بِهِمْ يَطَّلِعُونَ إِلَيْهِمْ مِنْ نَوَافِذِهَا، وَهُمْ يَعْمُونَ فِي هَذَا الْمَاءِ وَيَغْرُقُونَ، وَهُؤُلَاءِ فِي مَنجَاةٍ مِنْهُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ على رأي المُفسِّر المراد أكثر قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَام، ولكن الأصح: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِم الرُّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، (ما) نافية، و(كان) أصلية، فالعمل لـ(كان)؛ لأن الأصل عدم الزيادة، وإذا جعلت العمل لـ(ما) لزم أن تجعل (كان) زائدة، وإذا جعلت العمل لـ(كان) بقيت (ما) نافية على ما هي عليه.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الجامع بين العزة الغالبة القاهرة والرحمة البالغة، لكنه سبحانه وتعالى لجمعِهِ بين العزِّ والرحمة صارت الرحمة تكون في مواضعها، والعزُّ يكون في مواضعِهِ.

وأقسامُ العِزَّةِ الَّتِي يَتَّصِفُ اللهُ بِهَا ثَلَاثَةٌ: عِزَّةُ قَدْرٍ، وَعِزَّةُ قَهْرٍ، وَعِزَّةُ امْتِنَاعٍ. وعِزَّةُ الْقَدْرِ: هِيَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ الْقَدْرُ الْعَالِي، وَهُوَ الَّذِي لَا يُشْبِهُهُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا صَارَ عَزِيزَ الْقَدْرِ يَعْنِي أَنَّ قَدْرَهُ لَا نَظِيرَ لَهُ، مِثْلَ أَنْ تَقُولَ: هَذَا عَزِيزٌ، يَعْنِي: لَا يَوْجَدُ لَهُ مِثْلٌ.

وعِزَّةُ الْقَهْرِ: هِيَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَاهِرٌ لِمَنْ سِوَاهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَغَالِبٌ لَهُ.

وعِزَّةُ الْاِمْتِنَاعِ: هِيَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَيْهِ، يَعْنِي: يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ دُونَ سُوءٍ أَوْ نَقْصٍ.

وقالوا في المعنى الأخير: منه قولهم: أرض عزاز، يعنى: صلبة قوية ممتنعة، ليست رخوة ليّنة.

وأما الرَّحِيمُ فمعناه: ذو الرحمة الواصلة إلى خلقه؛ لأن: (الرَّحِيم) غيرُ (الرَّحْمَن)، وأهل السنّة والجماعة يُثبِتُونَ الرحمةَ لله حقيقةً، وغيرهم يُؤوِّهها بأنَّ المرادُ بها الإحسان، أو إرادة الإحسان، يعنى أنَّهم يُثبِتونها إلى لازِمها؛ لأن الرحمة هي الرِّقَّة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْزَهُ عَنِ الرِّقَّةِ! فيقال: مَنْ قال لكم: إنَّ اللهَ مَنْزَهُ عَنِ رِقَّةِ الرحمة؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْحَمُ عَبْدَهُ، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَعْطِفُ عَلَيْهِ، وَأَيُّ مَانِعٍ يَمْنَعُ اللهُ مِنَ الْعَطْفِ؟! فالقاسي ليس بمحمودٍ، أمَّا اللَّيِّنُ فهو المحمودُ لا شكَّ.

ثم إننا نقول: إِنَّ لِيْنَ الْإِنْسَانَ غَيْرُ لِيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ لِيْنَ الْإِنْسَانَ سَبَبُهُ الضَّعْفُ أحيانًا، وعدمُ القُدْرَةِ، ولهذا يَرْحَمُ الْإِنْسَانُ أحيانًا مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الرحمة؛ لأنه ما عنده إلا مجرد العاطفة؛ عاطفة اللَّيِّنِ، التي سببها الضعفُ، أمَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ رَحْمَتَهُ قُوَّةٌ، ورحمة حِكْمَةٌ، ولهذا يُعَذِّبُ أَهْلَ النَّارِ ذَلِكَ الْعَذَابَ الْعَظِيمَ، وهو أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

فإن الأدلة على رحمة الخالق ليست كرحمة المخلوق.

فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنجى مَنْ معه من المؤمنين بناءً على دعائه، وأنجى غيرهم أيضًا مما يحتاجون إلى وجوده ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ﴾ [هود: ٤٠].

الفائدة الثانية: الإشادة بهذا الفلك، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ

الْمَشْحُونِ﴾، وهذا من وجوه:

أولاً: وَصَفَهُ بِالْمُشْحُونِ، وَكَوْنَهُ مَشْحُونًا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى قُوَّتِهِ؛ لِأَنَّ مَا لَيْسَ بِقَوِيٍّ لَوْ سُحِنَ لَغَرِقَ.

ثانيًا: تَعْرِيفُ (الْفُلْكِ) بِ(أَل) التَّعْرِيفِ الدَّالَّةُ عَلَى الْكَمَالِ.

ثالثًا: وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ يَعْنِي: كَانَ مِنْ عَلَى مَتْنِهِ كَثِيرِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ اسْتِقَامَ، وَأَنْجَى اللَّهُ فِيهِ مَنْ مَعَهُ.



الآيات (١٢٣ - ١٢٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفُونَ ﴿١٢٤﴾
 إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَانْفَعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
 عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٨].

• • • • •

قال المفسر رحمه الله: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ مكانٍ مُرْتَفِعٍ ﴿ آيَةً ﴾ بِنَاءً عَلِيمًا لِلْمَارَةِ ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾
 بِمَنْ يَمْرُ بِكُمْ وَتَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ صَمِيرٍ (تَبْنُونَ).

قوله: ﴿ كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ عاد هم قوم هود، ولهذا قال: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ
 هُودٌ أَلَا نُنْفُونَ ﴾، ومحل هؤلاء القوم في الربع الخالي في الأحقاف، قال تعالى: ﴿ وَأَذْكَرَ
 أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾ [الأحقاف: ٢١]، فهؤلاء القوم معروفون بالقوة
 والشدة إلى حد أنهم قالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]؛ فإنهم مُسَيِّطِرُونَ.

وأما المبالغة التي يذكرها المفسرون والمؤرخون في كبر أجسادهم وقوتهم،
 فالله أعلم بها، ولكنهم بلا شك قوم أقوياء، وعُتاة، يعني: جفاة القلوب، أقوياء
 الأبدان، فهم معروفون بالقوة، ولكن الله تعالى أراد أن يوبخهم ويقيم الحجة
 عليهم في قوله: ﴿ أَوْلَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ ﴾ [فصلت: ١٥]، جعلهم يطمئنون،
 يعني: يُخَفِّضُونَ رُءُوسَهُمْ، ﴿ الَّذِي خَلَقَهُمْ ﴾ فهم مخلوقون، وهو خالق، فلا بُدَّ ضرورة

أن يكون الخالقُ أعلى من المخلوق، وأن يكون المخلوقُ في قبضته، وهذه هي الحكمةُ في قوله: ﴿أَبَ اللّٰهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾، ولم يقل: إنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، مع أن ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، لكن لأجلِ أن يُخَفِّضَ رُءُوسَهُمْ أَكْثَرَ ﴿خَلَقَهُمْ﴾، فهم بأنفسهم مخلوقون مَرْبُوبُونَ ذَلِيلُونَ.

وكلُّ من القومينِ كَذَّبَ نبيَّهُ، كذب قومُ نوحٍ نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكذَّبَ قومُ هودٍ هودًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مع أَنَّهُ نَصَحَهُمْ هذه النصيحة: ﴿أَلَا نَنْفُونَ﴾، وهذا الاستفهامُ إمَّا للتحضيضِ، أو أنه استفهامٌ بِمَعْنَى التوبيخِ، يَعْنِي: يُوبِّخُهُمْ عَلَى عَدَمِ التَّقْوَى.

وقوله: ﴿أَلَا نَنْفُونَ﴾ أي الله؛ لأن هذه الجملة مُخْتَصِرَةٌ، ومَعْرُوفٌ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُهُمْ وَيَقُولُ: ﴿فَأَنْفُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يُوَيِّدُ أَنْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، لَيْسَ الْمَقْصُودُ أَنَّهُ أَرْسَلَ لِلنَّاسِ كَافَّةً.

قوله: ﴿إِنِّي لَكُرُّ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، أي: مُرْسَلٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَتَقْدِيمُ ﴿لَكُرُّ﴾ يَدُلُّ عَلَى الْاِخْتِصَاصِ، أي: مُرْسَلٌ لَكُمْ خَاصَّةً؛ لِأَنَّ كُلَّ رَسُولٍ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ فَقَطْ.

وقوله: ﴿أَمِينٌ﴾ أي: ذُو أَمَانَةٍ، ائْتَمَنِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى رِسَالَتِهِ.

فإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذَانِ الْوَصْفَانِ: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ بِمَجْرَدِ دَعْوَى، وَهَمْ يَنْكُرُونَ أَنَّ يَكُونُ رَسُولًا أَمِينًا، بَلْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ كَاذِبٌ خَائِنٌ، فَهَلْ بِمَجْرَدِ الدَّعْوَى تَقَوْمٌ عَلَيْهِمُ الْحِجَّةُ؟

فالجواب: لا، لكن هذه الدَّعْوَى مؤيَّدة من آيات من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»^(١)، فهي ليست مجرد دَعْوَى؛ لأنها لو كانت مجرد دعوى لكان سهلاً رفضها، لكنها دَعْوَى مؤيَّدة ومدعَّمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِآيَاتٍ بَيِّنَةٍ، يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهَا الْبَشَرُ.

وفي قوله لهم هذا القول، جازماً به، دليلٌ على قوَّة آياته، وأنَّ معه من الآيات ما جعله يعبرٌ هذا التعبيرَ الجازمَ: ﴿إِنِّي لَكُرُّ رَسُولٍ أَمِينٌ﴾، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الرِّسَالَةَ أكبرُ دليلاً على أمانةِ الشخصِ؛ لأنه لولا أنه أمينٌ ما ائتمنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الوحيِّ، الَّذِي فِيهِ الْحُكْمُ عَلَى النَّاسِ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ، بل الحكم عليهم باستباحةِ أموالهم، واستباحةِ نساءهم، واستباحةِ دِمَائِهِمْ.

فلولا أنَّ الرُّسُلَ -عليهم الصلاة والسلام- هم أعظمُ النَّاسِ أمانةً ما ائتمنهم اللهُ على هذا الوحيِّ العظيمِ.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ﴾ هذا عودٌ في المعنى على قوله: ﴿أَلَا نُنْفِقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤]، يعنِي: فلأني رَسُولٌ أَمِينٌ افْعَلُوا مَا أَمَرَكُم بِهِ مِنَ التَّقْوَى، وَأَحْضُكُم عَلَيْهِ.

وإنَّما قال: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ﴾، وما قال: (واتقوني)؛ لأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، لا هو ولا غيره، فوظيفة النَّاسِ بالنِّسْبَةِ لِلرُّسُلِ لَيْسَتْ تَقْوَى الرَّسُولِ، بل طاعة الرَّسُولِ، ولهذا ما جاء على لسانِ أيِّ واحدٍ مِنَ الرَّسُلِ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: (اتقوني)، بل يأمرونهم بالطَّاعةِ، وأما التَّقْوَى والخشية والخوفُ فهي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) سبق تحريجه.

والتَّقْوَى هي اتِّخَاذُ وِقَايَةٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَهَذَا أَجْمَعُ مَا قِيلَ فِي التَّقْوَى، وَلَهُمْ فِيهَا عِبَارَاتٌ كَثِيرَةٌ.

أَمَّا الطَّاعَةُ فَأَصْلُهَا الْإِنْقِيَادُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: هَذِهِ النَّاقَةُ طَوَّعُ صَاحِبِهَا، أَي: مُنْقَادَةٌ لَهُ وَذَلِيلَةٌ، وَتَفْسَّرُ بِأَنَّهَا مُوَافِقَةُ الْأَمْرِ تَذَلُّلاً لِلْأَمْرِ؛ لِأَنَّ مُوَافِقَةَ الْأَمْرِ قَدْ تَكُونُ تَذَلُّلاً لِلْأَمْرِ، وَقَدْ تَكُونُ كَالْإِكْرَاهِ، وَالتِّي تَكُونُ كَالْإِكْرَاهِ لَا تَكُونُ طَاعَةً.

وَيُسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ﴾ وَجُوبُ تَقْوَى اللَّهِ، وَوَجُوبُ طَاعَةِ رَسُولِهِ؛ لِأَنَّ طَاعَةَ رَسُولِهِ مِنْ طَاعَتِهِ؛ ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النِّسَاءُ: ٨٠].

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: أَي: عَلَى مَا أَقُولُهُ لَكُمْ، أَوْ: عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ، يَعْنِي: أَنَا لَسْتُ أَقُولُ: أَعْطُونِي شَيْئًا، وَإِنَّمَا أَمُرُّكُمْ بِمَا فِيهِ خَيْرٌكُمْ، لَوْ كُنْتُ أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا عَلَى ذَلِكَ لَكَانَ لَكُمْ الْحُجَّةُ فِي أَنْ تُرَدُّوْا، لَكِنِّي لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، يَعْنِي ثَوَابًا وَعَوَاضًا.

قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِي﴾ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾]، وَفِي هَذَا كِهَالِ الْإِخْلَاصِ، يَعْنِي: أَنَا لَا أُرِيدُ الْأَجْرَ إِلَّا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ (عَلَى) تَفِيدُ الْوَجُوبَ؛ لِأَنَّهُ مَا قَالَ: إِنَّ أَجْرِي إِلَّا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بَلْ قَالَ: ﴿عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وَهَلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ؟

الجواب: أَمَّا أَنْ تُوجِبَ عَلَيْهِ فِلا، وَأَمَّا أَنْ يُوجِبَ عَلَيْهِ تَكْرُمًا، فَهَذَا

لا مانع منه.

قال ابن القيم^(١):

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ
كَلًّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ إِنْ كَانَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نَعَّمُوا فَبِفَضْلِهِ، وَالْفَضْلُ لِلْمَنَانِ

قيد بقوله: «إِنْ كَانَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ»، والإحسان هو المتابعة، أمّا إذا لم يكن بالإخلاص والإحسان فيضيع: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» [الكهف: ١١٠].

قال المفسر رحمه الله: [«أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رَيْعٍ» مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ «مَائَةً» بِنَاءً عَلَمًا لِلْمَارَةِ «تَعْبَثُونَ» بِمَنْ يَمُرُّ بِكُمْ وَتَسْخَرُونَ مِنْهُمْ]، ففسر هنا الآية بأنها العلامة، لكنها تحتمل أن تكون علامة على الطريق كما قال المفسر، مع أن السياق لا يؤيده، لكنه كذلك لا يمتنع.

وكذلك قد يكون المراد آية أي: علامة على قوتكم ومقدرتكم، وهذا هو الأقرب، ولهذا قال: «بِكُلِّ رَيْعٍ» يَعْنِي أَنَّكُمْ تَرِيدُونَ مِنْ هَذِهِ الْبِنَايَاتِ أَنْ تَكُونَ آيَةً وَدَلِيلًا وَبُرْهَانًا عَلَى قَوْلِكُمْ.

وقوله: «تَعْبَثُونَ» تَتَّخِذُونَ ذَلِكَ عَبَثًا؛ لأنه لا مصلحة لكم فيه إلا مجرد العبث، وإظهار العظمة، وإظهار القوة، وهذا بلا شك كون الإنسان يُظهِر قُوَّتَهُ أَنَّهُ عَبَثٌ وَفَسَادٌ.

(١) نونية ابن القيم الكافية الشافية (ص: ٢٠٨-٢٠٩) ط. مكتبة ابن تيمية.

وعلى هذا يتبين لنا أن هؤلاء الذين يحاولون أن يصلوا إلى الكواكب، ويطلقوا هذه الأقمار التي لا يستفيدون منها في الأرض مثل قوم عادٍ تمامًا، يعني: الطريقة هي الطريقة، وإن كان الأسلوب مختلفًا، يعني: يفعلون هذه الأشياء آيةً وعبثًا؛ إذ لا يستفيدون منها فيما خلق لهم: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وليس الذي في السماء، لكن الذي في الأرض هو الذي مخلوق لنا، فانتفعوا به مباشرة، أما الذي في السماء فمُسَخَّرٌ لمصالحنا، ولكننا لا ننتفع به مباشرة، فالذي يُنتفع به مباشرة هو ما في الأرض.

ولهذا يقول بعض الناس: لماذا تحاولون أن تصلوا للسماء وأنتم عاجزون عن حل مشاكلكم في الأرض؟ وهذا صحيح، لكنهم يعملون هذا لمجرد العبث والفخر، وأتيم أقوياء، مع أن قوم هود، وهؤلاء القوم أيضًا المعاصرون يُخسرون على هذه الأمور خسائر باهظة، فصارت عبثًا؛ لأن كل شيء يُتعب الإنسان فيه جسمه وماله وفكره بدون فائدة، فهو عبث، ولا فائدة منه.

بل إنه إذا أراد ما وراءه من إظهار العظمة والكبرياء على الخلق، صار أيضًا فسادًا، فصار إيجابيًا لا سلبياً فقط، إيجابياً لأنه فساد، وهو ينكر عليهم هذا الأمر: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾.

وأما ما سلكه المفسر رحمه الله من أنهم يجعلون علامات للمارة لأجل إذا مروا بهم يسخرون منهم؛ فهذا بعيد عن السياق، وإن كان السياق لا يمنعه لكنه لا يؤيده، فالصواب في هذه الآية أنهم يبنون بنايات عظيمة، تدل على قوتهم وقدرتهم عبثًا؛ لأنهم لا يستفيدون منها سوى إظهار العظمة فقط، وهذا لا شك أنه عبث.

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْإِنْسَانَ الْأَوَّلَ هُوَ الْإِنْسَانُ الْأَخِيرُ، أَوِ الْإِنْسَانُ الْأَخِيرُ هُوَ الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ، لَكِنْ يَخْتَلِفُ الْأَسْلُوبُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَصْحَكُونَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢]، وهذه الأمور إذا طبَّقناها في الوقت الحاضر فهي موجودة.

فقولهم: ﴿لضالون﴾ قديماً، يُساويه قولهم الآن: رَجِعِيونَ! أو مُحَافِظُونَ! أو ما أشبه ذلك، وهو نفس الشيء، فالفكر هو هو، لكن الأسلوب يَختلف مُسَايرَةً لِلزَمَنِ.

وهل صَحِيحٌ قَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ: إِنْ الْحَيَوَانَاتِ فِي زَمَنِ نُوحٍ كَانَتْ أَقَلَّ أَنْوَاعًا مِنْ هَذَا الزَّمَنِ، وَسَبَبُ كَثْرَتِهَا بِسَبَبِ نَزُولِ بَعْضِهَا عَلَى شَكْلِ آخَرَ، فَتَوَلَّدَتْ مِنْهَا أَشْكَالٌ؟

أَمَّا الْآيَةُ فَلَا تُصَرِّحُ، لَكِنَّ الَّذِي وَرَدَ أَنَّهُ حَمَلَ مَعَهُ ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]، يَعْنِي: مِنْ كُلِّ الْمَوْجُودَاتِ، لَكِنَّ لَا شَكَّ أَنَّهُ مَا وُجِدَ أَصْلٌ جَدِيدٌ أَبَدًا، لَكِنَّ رَبِّمَا صَارَتْ زِيَادَةُ الْأَنْوَاعِ بِالتَّوَالُدِ، أَوْ بِنَزُولِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَاخْتَلَفَتْ، مَعَ أَنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ مَا حَصَلَ مِنْ تَوَالِدٍ مِنْ نَزْوِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ أَنَّهُ لَا يَتَوَالَدُ، وَالْحَاصِلُ بِالتَّوَالِدِ لَا يَتَوَالَدُ، كُلُّ شَيْءٍ نَشَأَ مِنَ التَّوَالِدِ لَا يَتَوَالَدُ، فَهَذَا مَعْرُوفٌ عِنْدَهُمْ، وَلِهَذَا الْبَغْلُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصِيرَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ أَبَدًا.

فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿إِنِّي لَكُرُّ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ جَوَازُ وَصْفِ الْإِنْسَانِ بِالثَّنَاءِ عَلَى نَفْسِهِ لِلْمَصْلَحَةِ، وَهَذَا أَيْضًا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ

قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ»^(١)، ووردَ أيضًا عنِ الصَّحَابَةِ مثلَ هذا المَدْحِ في قولِ ابنِ مسعودٍ: «لَوْ أَعْلَمَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ، تُبَلِّغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»^(٢)، لكنْ بِشَرَطِ أَنْ يَكُونَ غَرَضَ الْإِنْسَانِ مِنْ ذَلِكَ الْمَصْلَحَةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هذا دليلٌ على إخلاصِ الرُّسُلِ لله في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: وفيها أيضًا الاحتسابُ؛ احتسابُ الْإِنْسَانِ عَمَلَهُ على الله، فليس هذا للإدلالِ على الله بهذا العملِ والمِنَّةِ عليه به، ولكن الاحتسابُ به عليه لرجاءِ ثوابِهِ؛ لقَوْلُهُ: ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفي هذا دليلٌ على جَبَرُوتِ عادٍ، ومَحَبَّتِهِمُ لِلْكِبْرِيَاءِ والعظمةِ فيما أنكره عليهم نبيُّهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً﴾.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: وفيها دليلٌ على أنه يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ غَرَضُهُ مِنْ عَمَلِهِ، لا سِيَّما العملِ الْجَبَّارِ العظيمِ، أن يكونَ غَرَضُهُ غَرَضًا صَحِيحًا، لا عِبثًا ومُبَاهَاةً؛ لقَوْلِهِ: ﴿تَعْبَثُونَ﴾، وهذا هو مَحَطُّ الانتقادِ، ليس بأن يَبْنُوا ﴿بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً﴾، ولكن كونَ ذلك عِبثًا هو مَحَلُّ الانتقادِ ومَحَطُّ اللَّوْمِ.



(١) أخرجه الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم (٣١٤٨)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم (٤٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٥٠٠٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٦٣).

الآيتان (١٢٩، ١٣٠)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢٩-١٣٠].

•••••

قال المفسر رحمه الله: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ لِلْمَاءِ تَحْتَ الْأَرْضِ ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ كَأَنَّكُمْ ﴿ تَخْلُدُونَ ﴾ فِيهَا لَا تَمُوتُونَ، ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ ﴾ بِضَرْبٍ أَوْ قَتْلِ ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ مِنْ غَيْرِ رَأْفَةٍ.

ثم قال الله تعالى في سياق ما قاله هود لقومه: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾: جمع مَصْنَع، وهو محل الماء، كما قال المفسر، فالمصانع عبارة عن الخزانات التي تحت الأرض يتخذونها لعلهم يخلدونها، يعني: كأنهم خالدون في هذه الدنيا غير ميتين. وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ ذكر المفسر رحمه الله أنه أتى بها للتشبيه: [كأنكم]، ولكن ما رأينا أحدا ذكر أنها تأتي للتشبيه، بل إنما قال: إنها تأتي للإشفاق والتعليل والترجي، هذا هو المعروف من معاني (لعل).

وأى هذه المعاني الثلاثة هو أولى بها؟

الأولى أنها للترجي، يعني: يترجون أن يخلدوا في ذلك، وقد تُفيد التوقع، أي أنهم يتوقعون الخلود، لكنها للترجي أقرب. يعني أنهم يتخذون هذه المساكن لأجل أن يبقوا فيها، كأنها يخلدونها فيها.

وقَوْلُ الْمُفَسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿مَصَانِعٌ﴾ لِلْمَاءِ تَحْتَ الْأَرْضِ]، قَدْ يُنَازَعُ فِيهَا أَيْضًا،
بأن يُقَالُ: إن المراد بالمصانع مكان الصناعة، يَعْنِي أَنَّهُمْ أَيْضًا اتَّخَذُوا مَصَانِعَ كَثِيرَةً،
كما تَدُلُّ عَلَيْهِ صِيغَةُ مُنْتَهَى الْجُمُوعِ (مَفَاعِلِ)، ثم إنها قَوِيَّةٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ
تَتَّخِذُونَ﴾؛ لأنه لا أَحَدَ يَبْنِي شَيْئًا لِلْبَقَاءِ الْكَثِيرِ إِلَّا وَيُحْكِمُهُ وَيُتَّقِنُهُ.

فيكون هودٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنبِيَهُمْ فِي أَمْرَيْنِ:

الأمرُ الأوَّلُ: اتَّخَاذِ الْآيَاتِ - الْأَبْنِيَةِ الْقَوِيَّةِ الْعَظِيمَةِ - عِبْنًا وَإِظْهَارًا لِلْقُوَّةِ
وَالْفَخْرِ.

الأمر الثاني: هذه المصانع العظيمة الَّتِي اتَّخَذُوهَا لِأَجْلِ أَنْ يُخَلِّدُوا وَيَبْقُوا
فَيَصْنَعُوا فِيهَا، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾
الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ [الفجر: ٦-٨]، وهذه العِمَادُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا
فِي الْبِلَادِ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ نَاتِجَةً عَنْ مَصَانِعٍ قَوِيَّةٍ لِتُوَلِّدَ هَذِهِ الْمَوَادَّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَخَلِّدُونَ﴾.

ثم قال: من جبروتهم أيضًا العدواني ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾؛ لأنَّ
الأوَّلَ جَبْرُوتٌ مِعْمَارِيَّةٌ، والثَّانِي مَصْنَعِيَّةٌ، والثالثُ الجَبْرُوتُ العُدَوَانِيَّةُ.

وقس هذه الأشياء على وَقْتِنَا الْحَاضِرِ، فَتَجِدْهَا مُنْطَبِقَةً تَمَامًا، فَهناك مَنْ
يَتَّخِذُونَ مِنْ هَذِهِ الْقُوَّةِ آيَةً لِلْفَخْرِ وَالْعَبَثِ، ثم هذه المصانع أيضًا الَّتِي يَتَّخِذُونَهَا -
مصانع القنابل الذرّية والنووية وغيرها- لِأَجْلِ أَنْ يُخَلِّدُوا؛ حَتَّى لَا يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ
أَحَدٌ، وَحَتَّى تَكُونَ لَدَيْهِمُ السَّيْطَرَةُ فِي هَذِهِ الْمَصَانِعِ.

وكذلك الثالث، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ يَعْنِي:

إنكم تَبَطِّشُونَ، فهو موجودٌ كذلك.

وإنما قلت: إنكم تبطشون؛ لأن (إذا) تُفيد تحقق وقوع الشرط، بخلاف (إن)، فإذا قلت: (إن قام زيد فقم)، لا تدل على تحقق وقوع الشرط، لكن إذا قلت: (إذا قام زيد فقم)، فهذا معناه كأنه سيقوم، ولكن ليكن وقت قيامك وقت قيامه.

فقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ يعني: وأنتم تبطشون، قال المفسر رحمه الله: [﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ بضرب أو قتل] ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ من غير رافة، فهذا الوصف الثالث -والعياذُ بالله- العدوَّان، والذي حملهم على هذا العدوَّان -الإنسان بشر- لما رآوا أنفسهم أقوياء في البناء والصناعة، قالوا: ليس أحدٌ فوقنا، فبطشوا -والعياذُ بالله- بدون رافة؛ لأن الإنسان بطبيعته كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].



الآيات (١٣١ - ١٣٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِينَ آمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ آمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَنْتِ وَعِيُونَ ﴿١٣٤﴾. [الشعراء: ١٣١-١٣٤].

• • • • •

قال المفسر رحمه الله: [﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ذلك، ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمرتكم به، ﴿وَاتَّقُوا الَّذِينَ آمَدَّكُمْ﴾ أنعم عليكم، ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ آمدكم بأنعمٍ وبين ﴿١٣٣﴾ وَحَنَنْتِ ﴿١٣٤﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعِيُونَ﴾ أنهاراً].

قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ذلك ﴿وَأَطِيعُوا﴾ كرره تأسيساً، إذا كان يعود على ما بعد قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، وإذا كان لا يعود عليه، وأنه قال ذلك إبلاغاً للرسالة، فإنه يكون مع الأول تأكيداً.

وفي الحقيقة أن المقام يقتضي التأكيد، وأن المقام أيضاً في الأمور الثلاثة التي وبخهم عليها يقتضي أن يُخصَّص بزيادة العناية في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

ثم قال لهم: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِينَ﴾، هنا أتى بالوصف لأن ﴿الَّذِينَ آمَدَّكُمْ﴾ الاسم الموصول وصلته بمنزلة الاسم المشتق، يعني: واتقوا الماد لكم، والاسم المشتق أو اسم الفاعل وصف.

وهنا انتقل من وصف الألوهية إلى وصف الربوبية الخاصة، الذي ناله منه، وهو: ﴿الَّذِينَ آمَدَّكُمْ﴾؛ لأن إمداد الله سبحانه وتعالى بالنعم من مقتضى الربوبية.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أتى بهذا الوصف أيضًا إقامة للحجة عليهم؛ لأنَّ مَنْ أَمَدَكَ بهذه النعم كان أولى بأن تتقيّه.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ مُبْهَمٌ؛ لأنَّ (ما) اسم موصول، والاسم الموصول مُبْهَمٌ وعام، ثم فصله بقوله: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ﴾. والتفصيل بعد الإجمال، أو البيان بعد الإبهام، له فوائد، منها:

١- تبيين السامع أو القارئ؛ فإذا كان مثلاً يقرأ: ﴿الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٣١) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ يشعر براحة ثم بتبنيه؛ لأن السياق تغير، فمن المُبْهَم إلى المخاطبين بين وواضح، فهذا فيه تبيين.

٢- التشويق؛ لأن الإنسان يحب الاستطلاع، فإذا أُبْهِم إليه الأمر ووضّح، اشتاق إليه ورسخ في ذهنه؛ ترسيخ الكلام في الذهن؛ لأنه إذا جاء مُبْهَمًا تشوق له الذهن، فإذا بين له بعد ذلك ترسخ فيه.

٣- العناية؛ لأن كونه يُبْهِمُهُ ثم يُبَيِّنُهُ أو يُجْمِلُهُ ثم يُفَصِّلُهُ؛ لأجل أن الإنسان يتشوق إليه ويرتقي من معناه أنه أمر يُعْتَنَى به، كما أن فيه أيضًا تأكيدًا؛ لأنه ذُكِرَ مرتين: مرّة مُبْهَمًا، ومرّة مُفَصَّلًا أو مُبَيَّنًا.

٤- تأكيده؛ بذكره مرتين: مرّة مُجْمَلًا، ومرّة مُفَصَّلًا، أو مُبْهَمًا ثم مُبَيَّنًا.

قَوْلُهُ: ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ما قال: (أمدكم بأنعام وبنين)، بالنسبة لهذه الآية بالذات، فبين لهم أن الله أمدّهم بأمر لا يُمكنُهم إنكاره؛ لأنهم يعلمون، فقدّم: ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ على ذكر النعم به بإقامة الحجة عليهم، حيث إن هذه نعم مفهومة ومعلومة لهم، فلا يُمكنُهم إنكارها.

قَوْلُهُ: ﴿بِأَنْعَامٍ﴾ الْأَنْعَامُ: جَمْعُ نَعَمٍ، يَعْنِي الْإِبِلَ، وَإِذَا قُلْتَ: إِنَّ نِعْمَةَ جَمَعُهَا نِعَمٌ، وَجَمَعَ نِعَمٌ: أَنْعَامٌ، صَارَ الْمُرَادُ بِالْأَنْعَامِ مَا هُوَ أَعْمٌ مِنَ الْإِبِلِ، يَعْنِي: كَأَنَّهُ يَقُولُ: بِنِعَمٍ كَثِيرَةٍ، وَالْمَعْرُوفُ أَنَّهَا لِلْإِبِلِ فَقَطْ، لَكِنْ إِذَا قِيلَ: بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ، فَتَشْمَلُ الثَّلَاثَةَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «خَيْرٌ لَكَ مِنْ مُحْرِ النَّعَمِ»^(١).

وقَوْلُهُ: ﴿وَبَنِينَ﴾ الذَّكَوْرُ مِنَ الْأَوْلَادِ، وَخَصَّ الْبَنِينَ؛ لِأَنَّهُمْ أَبْلَغُ فِي شَرَفِ الْإِنْسَانِ، وَلِأَنَّ أَوْلَادَهُمْ يُكُونُونَ قَبِيلَةً، لَكِنْ أَوْلَادُ الْبَنَاتِ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَلَا يَكُونُونَ قَبِيلَةً وَلَا يَكُونُونَ أُسْرَةً.

وقَوْلُهُ: ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونٍ﴾ أَنْهَارٍ، وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الرَّبْعَ الْخَالِي الْآنَ مِنَ الْمَاءِ أَنَّهُ كَانَ فِيهِ بَسَاتِينُ، وَكَانَ فِيهِ أَنْهَارٌ، وَلَعَلَّ هَذَا يُوحِي بِهِ أَيْضًا قَوْلُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا»^(٢)، فَإِنَّ قَوْلَهُ: «حَتَّى تَعُودَ» الْعُودَ بَعْدَ الْبَدءِ، فَهَذِهِ الْجَنَّاتُ لَيْسَتْ مَجْرَدَ بَسَاتِينَ فَقَطْ؛ لِأَنَّهُ لَا يُسَمَّى الْبَسْتَانُ جَنَّةً إِلَّا إِذَا كَانَ كَثِيرَ الْأَشْجَارِ وَالزُّرُوعِ، حَيْثُ يُجِنُّ مَنْ فِيهِ وَيَسْتُرُّهُ، وَالْعُيُونُ جَمْعُ عَيْنٍ.

وقول المفسر رَحْمَةُ اللَّهِ: إِنَّهَا أَنْهَارٌ فَباعتبارِ جَرِيَانِهَا، وَإِلَّا فَالْعُيُونُ هِيَ الَّتِي تَتَّبَعُ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْأَنْهَارُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ لَا تَتَّبَعُ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِنَّمَا تَأْتِي مِنَ الْأَمْطَارِ وَالسِّيُولِ وَغَيْرِهَا.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسَّيْرِ، بَابُ دَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالنَّبُوَّةِ، وَأَنْ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، رَقْمٌ (٢٩٤٢).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الزَّكَاةِ، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي الصَّدَقَةِ قَبْلَ أَنْ لَا يَوْجَدَ مِنْ يَقْبَلُهَا، رَقْمٌ (١٥٧).

فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الداعية ينبغي له أن يذكر المدعو بنعم الله عليه، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَّتِ وَعْيُونِ ﴿١﴾، والحكمة من تذكيره بالنعم أن النعم تستوجب الشكر وطاعة الرحمن، وتضمن ذلك عقلاً؛ لأن من أحسن إليك؛ فإنه من المستحسن عقلاً أن تُطيعه بما يأمرُك به.

الفائدة الثانية: أن هذه النعم التي يمد الله بها العبد تستوجب أن يقوم بتقوى الله؛ لأن قوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ في التعليل للأمر بالتقوى، فتكون النعم مستوجبة لتقوى العبد لربه تبارك وتعالى لا للأشْر والبطر والبعد عن الله؛ لقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ ﴿١٣٢﴾ حيث عدل عن قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ إلى ما ذكر؛ إشارة إلى أن هذا السبب كبيرٌ لوجوب التقوى.



الآيات (١٣٥ - ١٣٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوْعِظَتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿الشعراء: ١٣٥-١٣٨﴾.]

• • • • •

قال المفسر رحمه الله: [﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنَّ عَصَيْتُمْوَنِي، ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴿مُسْتَوٍ عِنْدَنَا ﴿أُوْعِظَتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿أَصْلًا، أَي لَا نَرْعَوِي لَوَاعِظِكَ، ﴿إِنْ ﴿مَا ﴿هَذَا﴾ الَّذِي خَوَّفْتَنَا بِهِ ﴿إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ^(١) اخْتِلَافُهُمْ وَكَذِبُهُمْ، وَفِي قِرَاءَةِ بِضَمِّ الْحَاءِ وَاللَّامِ، أَي مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ إنْكَارِ اللَّبْعِثِ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ، أَي طَبِيعَتُهُمْ وَعَادَتُهُمْ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾.]

قول المفسر رحمه الله: [﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنَّ عَصَيْتُمْوَنِي]، يَعْنِي: إِنَّ اسْتَمْرَرْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِهَذِهِ النُّعْمِ الْعَظِيمَةِ؛ فَأَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ هَذَا الْيَوْمِ.

وقوله: ﴿عَظِيمٍ﴾ صفة لليوم، لكن يقول: [في الدنيا والآخرة]، ووصف هذا العذاب بالعظيم في الدنيا باعتبار ما عداه، وأمَّا وصفه بالعظيم في الآخرة فظاهر؛

(١) الحجة في القراءات السبع (ص: ٢٦٨).

لأنه عظيمٌ أعظم ما يكون في الآخرة.

وإن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ألا يدلُّ هذا

على أنه يوم القيامة خاصة؟

قلنا: لا، فإنَّ اليومَ الَّذِي يقع عليه العذابُ بالدنيا يُوصَفُ أيضًا بأنه يَوْمُ

عَظِيمٍ؛ وهو أيضًا لم يُعَيَّن يوماً.

﴿قَالُوا﴾ في الجوابِ بعد هذا التذكيرِ بالنَّعم، وبعد هذا الوَعظِ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا

أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَعِظِينَ﴾ أعوذُ بالله! فهذا كبرياء عظيم! و﴿سَوَاءٌ﴾ بمعنى

مستوي، وهي خبرٌ مُقَدَّم، و﴿أَوْعَظْتَ﴾ الجملةُ الاستفهاميةُ هذه في تأويلِ مَصْدَرٍ

لمبتدأ مؤخَّرٍ، يَعْنِي: وَعَظُّكَ وَعَدَمُهُ سَوَاءٌ.

وهذا من المواضع التي تكون مؤولة بالمصدرِ بدون حرفِ مصدرِيٍّ؛ مع أنَّ

الَّذِي دخلَ عليها أداة الاستفهام، لكن بعد (سَوَاءٌ) هكذا تؤول وما بعدها

بالمصدر، كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾

[المنافقون: ٦]، أي: استغفارُكَ وعدمُهُ، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ

ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، أي: إنذارُكَ وعدمُهُ.

فهم قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَعِظِينَ﴾ أي: لا نرَعوي

لِوَعْظِكَ، وهذا مِنَ الْجَبْرُوتِ ﴿أَوْعَظْتَ﴾ بالفعلِ ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَعِظِينَ﴾ لم

يَكُنْ وَصَفَكَ الوَعْظُ، ﴿سَوَاءٌ﴾ تركتِ الوَعْظَ أم لم تتركه؛ لأنَّهم ما قالوا: سواء

علينا أو عظت أم لم تعظ بل ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَعِظِينَ﴾.

فالمقصودُ من هذا أنه لا يُهْمُهُمْ أن يكونَ وَعِظًا، أو غيرَ واعِظٍ، ولا أن يعظهم

بالفعلِ أو لا يَعِظُهُمْ، كُلُّ الْأَمْرِ عِنْدَهُمْ سِوَاءٍ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ لَا يَكْتَرِثُ بِالْوَعِظِ لِكُونِهِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَقَدْ لَا يَكْتَرِثُ بِهِ عِنَادًا، وَهُؤُلَاءِ لَمَّا قَالُوا: ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ مُعَانِدُونَ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْوَعِظِ، أَوْ وَعِظْتَ وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْوَعِظِ، وَفِي هَذَا مِنْ بِلَاغَةِ الْقُرْآنِ مَا هُوَ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوْعِظْتَ﴾ أَمْ لَمْ تَعْظُ، لَكِنْ رَبَّنَا يَقُولُونَ: إِنَّهُ قَدْ يَعِظُ وَلَيْسَ أَهْلًا لِلْوَعِظِ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ يَعْنِي: لَمْ تَكُنْ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يُوصَفُوا بِهَذَا الْوَصْفِ.

فِيؤْخَذُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ حُذِفَ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مَا يُقَابَلُهَا؛ اخْتِصَارًا لِلْوَضُوحِ، فَيَصِيرُ التَّقْدِيرُ عَلَى هَذَا: (أَوْعِظْتَ أَمْ لَمْ تَعْظُ، أَوْ أَكُنْتَ وَاعِظًا تَسْتَحِقُّ أَنْ يَنْصَرِفَ النَّاسُ لَكَ، وَيَأْخُذُوا مِنْكَ، أَمْ لَمْ تَكُنْ وَاعِظًا)، وَهَذِهِ غَايَةٌ مَا يَكُونُ مِنْ بِلَاغَةِ الْقُرْآنِ، وَبِالنِّسْبَةِ لَهُمْ غَايَةٌ مَا يَكُونُ مِنَ الْإِسْتِكْبَارِ، وَعَدَمِ الْإِكْتِرَافِ بِوَعِظِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ﴾ فَسَرَّهَا الْمَفْسَّرُ بِ[مَا]، يَعْنِي نَافِيَةً، قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [هَذَا] الَّذِي خَوْفُنَا بِهِ ﴿إِلَّا خَلَقَ الْأَوَّلِينَ﴾ اخْتِلَافُهُمْ وَكَذِبُهُمْ]، يَعْنِي: إِنَّكَ أَنْتَ يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا إِلَّا بِأَمْرِ اخْتَلَقَهُ مَنْ قَبْلَكَ، فَكَذَّبُوهُ هُوَ وَمَنْ قَبْلَهُ أَيْضًا، وَقَالُوا: هَذَا خَلَقَ الْأَوَّلِينَ، خَلَقَهُمْ أَي: اخْتِلَافَهُمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَتَخَلَّفُونَ وَإِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، يَعْنِي: تَخْتَلِفُونَهُ وَتُزَوِّرُونَهُ.

قَالَ: [وَفِي قِرَاءَةِ بَضْمِ الْخَاءِ وَاللَّامِ: ﴿خُلِقُ﴾]، وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ سَبْعِيَّةٌ بِنَاءً عَلَى قَاعِدَةِ الْمَفْسَّرِ، فَإِذَا قَالَ: «قُرِئَ» فَهِيَ لَيْسَتْ سَبْعِيَّةً، وَإِذَا قَالَ: «فِيهِ قِرَاءَةٌ» فَيُرِيدُ أَنَّهَا سَبْعِيَّةٌ، قَالَ: [أَيُّ مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ إِنْكَارٍ لِلْبَعْثِ إِلَّا خُلِقَ الْأَوَّلِينَ، أَيُّ طَبِيعَتِهِمْ وَعَادَتِهِمْ].

والمفسر - على القراءة الثانية - يرى أن اسم الإشارة يعود إلى ما كانوا عليه، وعلى قراءة: (خَلَقَ) فهو عائد على قول هودٍ، وسياق الآية يدل على أنه راجع إلى قول هودٍ، سواءً بضمّ الخاء أو بفتحها، أمّا فتحها فظاهر: (إن هذا إلا خلق الأولين)، وأما ضمّها فهو أيضًا ظاهر كأنّهم يقولون: إن ما جئت به هو خلق الأولين من قبلك - يعني بعضهم - الذي كانوا عليه، يعني الأنبياء السابقين، فعلى هذا يكون مرجع الإشارة واحدًا.

أمّا على رأي المفسر: (إن هذا إلا خلق الأولين) فيريد أنّهم يحتجون به، كأنّهم يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وهذا ما عليه آباؤنا، فسنبقى عليه، والآية محتملة، ولكنها في الأول أظهر:

أولاً: لأن القراءتين يفسر بعضها بعضًا.

ثانيًا: إنهم يريدون أن يردّوا على قوله هو، لا أن يبرّروا فعلهم.

قوله: ﴿إِن هَذَا إِلَّا خُلِقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿ هذا إنكار لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ كأنّهم يقولون: ما تخوّفت ليس له أصل، فما نحن بمُعذِّبين.

وتأمل هذا التعبير الذي أتى مؤكّدًا بالباء في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ لم يقولوا: «وما نحن معذبون»، وكذلك أتوا بالوصف: ﴿بِمُعَذِّبِينَ﴾ في الجملة الاسميّة؛ للدلالة على انتفاء هذا أبدًا؛ لأن الجملة الاسميّة تدل على ثبوت مدلولها، فعليه يكونون قد أنكروا أن يُعذّبوا، وادّعوا أنّهم لن يعذبوا أبدًا، ولكن هذا كما قال النبي عليه الصلوة والسلام: «العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»^(١)، فهو لاء

(١) سبق تحريجه.

-والعبادُ بالله- أتبعوا أنفسهم هواها، وتمنّوا على الله الأمانى إن كانوا مصدّقين بالبعث، ولا ندرى ربما يكونون مكذّبين به، وأنه لا بعث ولا جزاء ولا عذاب.

فوائد الآياتِ الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان أنه ينبغي للداعية مع القرن بذكر النعم أن تقرن الدعوة بالتخويف، وتؤخذ من قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

الفائدة الثانية: أنه ينبغي إذا كان المقام أنسب أن يكون غير مُصرّح بذلك؛ لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ ولم يقل: إنكم ستصابون بيومٍ عظيم، فالتوقع له غير الجازم به؛ لأن المقام يقتضي ذلك، ولكلِّ مقام مقال.

الفائدة الثالثة: وفي الآيات دليل على أن الله سبحانه وتعالى قد يطبع على قلب العبد فلا يستفيد بموعظة؛ لقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾، هذا إذا لم يكن هذا القول منه كذباً.

فإن كان كذباً فلا شاهد فيه لذلك، يعني: إن كان الأمر حقاً كما يقولون أنهم سواء وعظوا أم لم يُوعظوا؛ فإنه يدل على أن العبد -والعبادُ بالله- إذا ران على قلبه ما يعمل، لم يستفد من موعظة، أما إن كان كذباً فإنه يدل على عتوه هؤلاء القوم، وشدة استكبارهم عن الحق.

الفائدة الرابعة: وفي التعبير بقوله: ﴿أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ دليل على بلاغة القرآن، حيث الجمع في جملة واحدة بين أربعة معانٍ: وعظت أم لم تعظ.. كنت من الواعظين أم لم تكن. وذلك في كلمتين؛ لأنه حذف من كل كلمة ما يقابلها في دلالة الأخرى عليها.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: وفي الآيات دليلٌ على أنه لا حُجَّةَ لِلْمُعَانِدِ لِلرُّسُلِ سِوَى التَّمَسُّكِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَسْلَافُهُمْ، تُؤَخِّدُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾ هذا على حَسَبِ مَا فَسَّرَهُ الْمُفَسِّرُ، وَعَلَى حَسَبِ مَا صَارَ عَلَيْهِ.

أما على القِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ: «إِلَّا خَلَقَ الْأَوَّلِينَ»؛ فَإِنَّهُ يُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى تَكْذِيبِ نَبِيِّهِمْ، بَلْ تَعَدَّوْا إِلَى تَكْذِيبِ غَيْرِهِ أَيْضًا، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُطَالَبُوا بِهِ، فَلَمْ تُطَالِبْهُمْ الرُّسُلُ السَّابِقُونَ بِذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُمْ بَعَادِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ كَذَّبُوا حَتَّى السَّابِقِينَ، وَلَأَجْلِ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْمَجْرَّبِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ دَابُّ مَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ.



الآيتان (١٣٩، ١٤٠)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٣٩-١٤٠].

•••••

قال المفسر رحمه الله: [﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالرَّيْحِ،
﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾].

قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ يعني: فبهذا القول الذي صدر منهم يصدق
عليهم هذا الوصف، أنهم كذبوا هودًا، فيكونون مُسْتَحِقِّينَ للعذاب، ولهذا أتى
بالفاء ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾.

قال المفسر: [﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالرَّيْحِ]، أهلكهم الله تعالى بالريح،
ومن العجائب أن الله - سبحانه وبحمده - أهلكهم على حين تشوق منهم للرحمة؛
لأنهم أصيبوا بالجدب والقحط، وبقوا مدة، وصاروا ينتظرون الفرج بالمطر، فلما
أرسل الله هذه الريح ﴿ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرُنَا ﴾ [الأحقاف: ٢٤]،
استفرحوا بذلك وظنوا أن الفرج قريب، ولكنه كان فرجًا هودٍ ونقمة عليهم.

قال الله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ
بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥]، وهذه الريح التي بعثها الله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى عَادٍ فِيهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ هُوَ لَاءِ الْقَوْمِ الْأَشْدَاءِ الْأَقْوِيَاءِ

الفخورين بَقُوَّتِهِمْ على غيرهم أهلَكوا بألطف الأشياء، وهي الرِّيح.
ثم إنهم أهلَكوا في حالِ الرجاء؛ لأنَّ النِّقْمَةَ إذا أتتْ الإنسانَ يتَوَقَّعُ النِّعْمَةَ،
فتكون أشدَّ، وكذلك إذا أتتِ النِّقْمَةُ والإنسانُ في نعمةٍ تكون أيضًا أشدَّ وأنكى،
والعياذُ باللهِ.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَهُمْ﴾ إلى آخره موعظةٌ لنا لِمَا نَسْمَعُهُ أحيانًا من هذه
الأعاصيرِ المدمِّرةِ الَّتِي تُفْلِعُ الأشجارَ، وتُحْرِبُ الدِّيَارَ، وتُهْلِكُ الثَّمارَ، وتهلك
الإعمارَ أيضًا، ولكن -مع الأسفِ- فإنَّ الكثيرَ مِنَّا يَصْدُقُ عليهم قولُ الله تعالى:
﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]، فهذا أمرٌ طبيعيٌّ.

والتَّاسُ الآنَ يَسْمَعُونَ بالزلازلِ، وَيَسْمَعُونَ بالأعاصيرِ، وَيَسْمَعُونَ
بالفَيْضاناتِ العظيمةِ، ولكنَّهُمْ لا يرونها أنها غَضِبَ من الله عَزَّجَلَّ، ولكن يرون
أنها أمرٌ طبيعيٌّ، ولهذا لا يتأثر الإنسانُ بها إطلاقًا، وكأَنَّها لا شيءٌ، بينما ونحنُ
صِغارُ كَنَّا إذا سَمِعْنَا أَنَّ الأَرْضَ زُلزَلتْ في أَحَدٍ نَرْتَجِفُ ونحنُ في بِيوتنا آمِنونَ؛
لأنه ما كان أحدٌ يقولُ لنا: إنه هذا أمرٌ طبيعيٌّ، وهذا أمرٌ لا يُهَمُّ، وهذا أمرٌ كائنٌ
لا محالةً.

ومثل ذلك الكسوفُ، كان النَّاسُ في الماضي إذا كَسَفَ القَمَرُ تَحْضِلُ منهم
رَهْبَةٌ عظيمةٌ، ويحْضِرُ منهم خوفٌ، ويحْضِرُونَ بأعدادٍ كبيرةٍ إلى المساجدِ من
رجالٍ ونساءٍ، وتحْضِلُ صلاةً، وبكاءً، وخوفٌ، وقد رأيتُ هذا، أما الآنَ فلا ترى
شيئًا من هذا، بل تجد هذا يشاهدُ في التِّلْفَازِ أغنيةً، وهذا يسمعُ أغنيةً من الراديو!
ويُستفادُ من الآيةِ أَنَّهُمْ قد عَصَوْا وكذَّبوا برسالةِ هودٍ، فهذه الآيةُ فيها العِنادُ،

وفي آياتٍ أُخْرَى ثَبَّتَ أَنَّهُمْ لَمْ يُصَدِّقُوا يَهُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩]، رسل الله، ولم يصدقوا عنادًا.

وإن سأل سائل: ما الحكمة في كون بعض الرُّسُلِ أو بعض الأمم تَكَرَّرَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا، وبعض الرُّسُلِ لم يأتِ له ذِكْرٌ قَطُّ؟

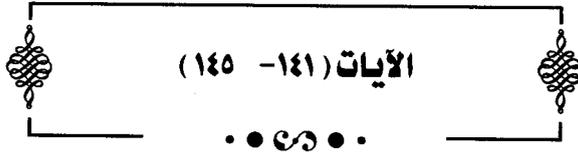
فالجواب: ما ذَكَرَ إِلَّا الرُّسُلَ الْمُحِيطِينَ بِالْعَرَبِ، الَّذِينَ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنْبَاءَهُمْ، فَيَكُونُ هَذَا أَقْوَى، لَكِنَّ الَّذِي يَكُونُ بَعِيدًا عَنِ الْعَرَبِ مَا ذَكَرَ، لَكِنَّ نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، لَكِنَّ مَا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا مَا كَانَ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ.

وَلَا يَدُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّ الَّذِينَ ذَكَرُوا فِي الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُمْ مَا ذَكَرُوا؛ فَلَا نَعْرِفُ عَنْهُمْ شَيْئًا، إِنَّمَا أُولُو الْعِزْمِ الْخَمْسَةُ هَؤُلَاءِ لَا شَكَّ أَنََّّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ.

حَتَّى الْأَمَاكِنِ وَالْقُرَى الَّتِي مَا اكْتَشَفُوهَا إِلَّا حَدِيثًا، لَكِنَّ هِيَ مُوجُودَةٌ مِنْ قَبْلُ، فَهِيَ مُوجُودَةٌ مِنْ زَمَانٍ بَلَا شَكَّ، وَمَوْجُودٌ فِيهَا أَنْسَاءٌ، وَيُذَكَّرُ أَنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ تَكَلَّمَ عَنْ هَذَا، وَقَالَ: لَا بُدَّ أَنْ هُنَاكَ أَحَدًا فِي الْمَقَابِلِ لَوَجْهِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ هُنَاكَ أَنْسَاءٌ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُتْرَكَ الْأَرْضُ بِدُونِ عِمَارَةٍ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّكْذِيبَ سَبَبٌ لِلْإِهْلَاكِ، فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي يَعْتَبِرُ بِقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ أَنْ يَحْتَذَرَ مِنْ هَذَا - أَيْ: مِنَ التَّكْذِيبِ - لِأَنَّهُ إِنْ فَعَلَ أَهْلِكَ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تُنْقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٥].



قال المفسر رحمه الله: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ ﴾ مَا ﴿ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾، وهذه هي القصة الثالثة التي يذكرها الله تبارك وتعالى دائماً عند ذكر قصص الأنبياء، فهم يكونون في الترتيب بعد قوم هود: يكون هود قبل صالح، وصالح بعده.

وتمود هي القبيلة المعروفة مساكنهم في شمال المملكة العربية السعودية، وتسمى الآن (مدائن صالح)، وهي تسمى في الأصل (الحجج)، هؤلاء القوم أعطاهم الله تبارك وتعالى قوة وقدرته وإبداعاً في الصنع، ولهذا أوتوا بآية تناسب حالهم، وهي الناقة؛ كما سيذكر إن شاء الله.

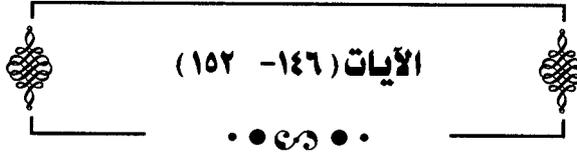
قال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهم إنما كذبوا رسولا واحداً لكن سبق أن قلنا: إن المرسلين جاءوا بدعوة واحدة، وتكذيب الواحد منهم تكذيب للجنس عموماً؛ لأن هؤلاء الذين يكذبون رسولا لم يكذبوه لعينه وشخصه، ولكن كذبوه

لدعوته، وهذه الدعوة التي جاء بها هذا الرسول المعين هي دعوة لجميع الرسل، فكأنهم كذبوا جنس هذه الرسالة، فصدق عليهم أنهم مكذبون لجميع الرسل.

قوله: ﴿إِذْ﴾ هذه إما للتعليل أو ظرف للتكذيب، يعني: إن التكذيب حصل بهذه القصة، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا نُنْقُونَ﴾، وسماه أخاهم مع بعد ما بين المؤمن والكافر؛ لأخوة النسب، لا لأخوة الدين.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا نُنْقُونَ﴾ ﴿١٤٢﴾ إني لكم رسول أمين ﴿١٤٣﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿١٤٤﴾، كل هذه الجمل تقدم الكلام عليها، وذكر الإيرادات على قوله: ﴿إني لكم رسول أمين﴾ والجواب عنها.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كُنْ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٥٢].



قَالَ الْمَفْسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ أَلَمْ تَرَ كُنْ فِي مَا هَاهُنَا ﴾ مِنَ الْحَيَاتِ ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿ لَطِيفٌ لَيْنٌ، ﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿ بَطْرِينِ، وَفِي قِرَاءَةِ: (فَارِهِينَ) ^(١) حَاذِقِينَ، ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ فِيمَا أَمَرْتَكُمْ بِهِ، ﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْمَعَاصِي ﴾ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ بِطَاعَةِ اللَّهِ].

قَوْلُهُ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كُنْ فِي مَا هَاهُنَا ﴾ (فِي مَا): أَي فِي الَّذِي (هَاهُنَا): الْإِشَارَةُ إِلَى مَكَانِهِمْ؛ لِأَنَّ مَكَانَهُمْ كَمَا وَصَفَهُ صَالِحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾.

وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كُنْ ﴾ لِلتَّحْذِيرِ، يَعْنِي: أَتَظُنُّونَ أَنْ تُتْرَكُوا؟ لَا، فَلَنْ تُتْرَكُوا، فَهُوَ لِلنَّفْيِ الْمُتَضَمِّنِ لِلتَّحْذِيرِ.

(١) الحجّة في القراءات السبع (ص: ٢٦٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَتَتْرَكُونَ﴾ مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ لِلْعَلْمِ بِالْفَاعِلِ، وَالْفَاعِلُ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ،
يَعْنِي: أَيَتْرُكُكُمْ اللَّهُ ﴿فِي مَا هَهُنَا﴾؟

وَقَوْلُهُ: ﴿فِي مَا هَهُنَا ءَامِنِينَ﴾ إِلَى آخِرِهِ، تَذْكَيرٌ بِنِعْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ،
وَأَتَمُّهُمْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُتْرَكَوا فِي هَذَا الْحَالِ بِدُونِ أَمْرٍ وَلَا نَهْيٍ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ
الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لِآلِنَا
لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿فِي مَا هَهُنَا ءَامِنِينَ﴾ حَالٌ مِنَ الْوَاوِ فِي: ﴿أَتَتْرَكُونَ﴾، يَعْنِي حَالٌ
كُونِكُمْ آمِنِينَ، وَالْآمِنُ هُوَ الَّذِي آمِنَ مِنَ الْخَوْفِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِقْرَارِهِمْ فِي
أَوْطَانِهِمْ، وَأَمْنِهِمْ، وَالْآمِنُ مَعَ الرِّزْقِ الْوَاسِعِ هُمَا غَايَةُ النِّعْمَةِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

قَوْلُهُ: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وَالْجَنَّاتُ جَمْعُ جَنَّةٍ، وَهِيَ الْبَسَاتِينُ الْكَثِيرَةُ الْأَشْجَارِ؛
لَأَنَّهَا تَسْتُرُ مَنْ فِيهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَعُيُونٍ﴾ جَمْعُ عَيْنٍ، وَهِيَ الْمِيَاهُ الْجَارِيَةُ بِدُونِ دَوَالٍ
وَلَا نَوَاضِحٍ.

قَوْلُهُ: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ عَطْفٌ مَا ذَكَرَ عَلَى الْجَنَّاتِ مِنْ بَابِ
الْعَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ؛ لِلْعَنَايَةِ بِهِ، وَإِلَّا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْجَنَّاتِ؛ فَإِنَّ الزُّرُوعَ مِنْهَا
وَالنَّخِيلَ كَذَلِكَ.

وَالطَّلَعُ يَعْنِي: مَا تَطْلَعُهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿هَضِيمٌ﴾: يَقُولُ: [لَطِيفٌ لَيْنٌ]، وَالْأَمْرُ
كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ طَلْعَ النَّخِيلِ مِنَ الْإِنِّ مَا يَكُونُ وَالطَّفْهُ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْهَضِيمَ بِمَعْنَى النَّضِيدِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَمَّا طَلَعَ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا
لِلْعِبَادِ﴾ [ق: ١٠-١١]، يَعْنِي أَنَّهُ مَنْضُودٌ لَيْسَ مَتَفَرِّقًا لِأَجْلِ أَنْ يَسْهَلَ أَخْذُهُ وَجَنِيهِ.

وإنما نصَّ على الطَّلَعِ دونَ غيره من الفوائدِ معَ كثرةِ فوائدِ النخيلِ؛ لأنه غاية ما يُتَنَفَعُ به منها، وإلا ففيها منافعٌ كثيرةٌ، ولهذا شبهَ النبيُّ ﷺ المؤمنَ بها؛ لكثرةِ خيراته وفوائده، هذا من حيثِ الزُّرُوعِ والتنمية.

أما من حيثِ البناءِ والمساكنِ فقال: ﴿وَتَنَحِتُونَ مِنْ أَلْجَبَالِ بِيُوتًا فَرَاهِينَ﴾، قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [بَطْرِين، وفي قِرَاءة: (فَارَاهِينَ) حاذقين].

قَوْلُهُ: ﴿وَتَنَحِتُونَ مِنْ أَلْجَبَالِ بِيُوتًا﴾ المراد بالنَّحْتِ مِنَ الْجِبَالِ أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ الْبَيْتَ مِنَ الْجِبَلِ، وليس معناه أَنَّهُمْ يَنْحِتُونَ الْحِصَى ثُمَّ يَبْنُونَهَا، ولكنهم يجعلون البيتَ نفسَه مِنَ الْجِبَلِ، فيكيفون الجبلَ كما يريدون، وهو دليلٌ على مَقْدِرَتِهِمْ، وعلى كمالِ مَعْرِفَتِهِمْ بالهندسة؛ لأن شيئاً ليسَ أمامك، بل هو في باطنِ الحِصَى والجبالِ والصخور، فتحتاج إلى تفكيرٍ قويٍّ كيف تَصْنَعُهُ؟ وكيف تجعلُ مَدْخَلَهُ؟ وكيف تجعلُ منه استراحةً؟... إلى آخره. فهو دليلٌ على قُوَّتِهِمْ، وعلى حَذَقِهِمْ فِي الْهَنْدَسَةِ.

وكلمة: ﴿فَرَاهِينَ﴾ يَعْنِي: بَطْرِين، فهي صفةٌ مُشَبَّهَةٌ، و(فَارَاهِينَ) بالمدِّ اسمٌ فاعلٍ، والمرادُ به الحَذَقُ.

واختلافُ القراءاتِ تكون فيه فائدةً، وهي اجتماعُ المعنيينِ من هذه الكلمة، فيكونون متَّصِفِينَ بِالْأَمْرَيْنِ: بِالْبَطْرِ بِنَاءً عَلَى قِرَاءَةِ الْقَصْرِ، وَبِالْحَذَقِ بِنَاءً عَلَى قِرَاءَةِ الْمَدِّ، وهذا من فوائدِ تنوعِ القِرَاءَةِ؛ لأن تنوعَ القِرَاءَةِ له فوائدٌ كثيرةٌ؛ منها أن تكونَ الكلمةُ جامعةً لمعنيينِ.

قَوْلُهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ هذه الجُمْلَةُ مثلاً تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ عَادٍ؛ إما أن تكونَ مبنيةً على ما ذُكِرَ، وإما أن تكونَ مكرَّرةً لما سَبَقَ، فعلى الأوَّلِ تكونُ تأسيساً، وعلى

الثاني تكون تأكيداً، والمقام مهمٌ جداً، ويحتاج إلى أن تُكرَّر فيه هذه الكلمة، وهي تقوى الله، وطاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿ هذا أمرٌ ونهيٌ: أمرٌ بتقوى الله وطاعته، ولكنه نهى عن طاعة أمرِ المُسْرِفِينَ، واحد الأوامر، يعنى: لا تطيعوا أمرهم.

ولماذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ وما قال: وأطيعوا أمري، وهنا قال: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿، ولم يقل: لا تطيعوا المُسْرِفِينَ في إفسادهم؟

والجواب: أنه ينهاهم عن طاعة أمرِ المُسْرِفِينَ، في أنهم كبار القومِ ووجهاءُهم، وأنهم يأمرُونَ، فهذا أبلغ من لو قال: ولا تطيعوهم.

ولو قال: لا تطيعوا المُسْرِفِينَ أنفسهم، ربما يُقال: إن هذا لِعِدَاوَةٍ بينه وبينهم، فهو لا يريد أن يُطاعوا، وأمر بطاعة نفسه، لكن لما قال: ﴿أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ فكأنه يقول: أنا لا يهمني أن يكون هذا من فلانٍ أو من فلانٍ، ولكن الكلام على أنه أمرٌ من مُسْرِفٍ؛ لأجل أن يُبعد اتهامه بأنه لا يريد المُسْرِفِينَ أنفسهم، حيث وجه النهي عن طاعتهم لأنفسهم، فجعل النهي عن طاعة أمرهم الذي هو أمرُ إسرافٍ وفسادٍ.

وقوله: ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ يعنى المتجاوزين للحدِّ، فالمُسْرِفُ: من جاوزَ حدَّه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، أي لا تتجاوزوا الحدَّ كميَّةً ولا كفيَّةً.

ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وهذه الصِّفَةُ كاشفةٌ وليست قِيدًا؛ لأنَّ كلَّ مُسْرِفٍ مُفْسِدٍ فِي الْأَرْضِ، فَالصِّفَةُ كاشفةٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يكونون سببًا في فسادها، أو أنَّ المعاصيَ نَفْسَهَا فسادٌ.

يَعْنِي: إما أن تكونَ هي الفسادَ فيفسدون، من بابِ إضافةِ الشيءِ إلى سببِهِ، وإما أن تكونَ المعاصي سببًا للفسادِ، أو أنها هي نفسها فسادٌ.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا بغيرِها أيضًا.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى فسادِهِمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا صِلَاحٌ، فَالنفْيُ هُنَا يُقْصَدُ بِهِ النَفْيُ لِلإِصْلَاحِ مَعَ إِثْبَاتِ كِمَالِ ضِدِّهِ، وَهُوَ الْفَسَادُ: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

وَقَوْلِ الْمُفَسِّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بطاعة الله]، الطَّاعَةُ نَفْسَهَا إِصْلَاحٌ بِلَا شَكٍّ، وَهِيَ أَيْضًا سَبَبٌ لِلإِصْلَاحِ؛ فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى سَبَبٌ لِإِصْلَاحِ كُلِّ شَيْءٍ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].



الآيتان (١٥٣، ١٥٤)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤].

• • ❦ • •

قال المفسر رحمه الله: [﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الَّذِينَ سَحَرُوا كَثِيرًا حَتَّى غَلَبَ عَلَى عَقْلِهِمْ، ﴿ مَا أَنْتَ ﴾ أَيْضًا ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فِي رِسَالَتِكَ].

هذا جوابهم، حيث ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ اتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ مَسْحُورٌ، وَمُسَحَّرٌ أبلغ من مَسْحُورٍ أَيْضًا.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ ﴾ حَصْرٌ لِأَعْمِ الْأَحْوَالِ، يَعْنِي: مَا حَالُكَ أَبَدًا تَخْرُجُ عَنْ هَذَا الْوَصْفِ: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾.

وقال المفسر رحمه الله: [الَّذِينَ سَحَرُوا كَثِيرًا حَتَّى غَلَبَ عَلَى عَقْلِهِمْ]، هَذَا -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- جَوَابُهُمْ، مِثْلَمَا أَجَابَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، بَلْ إِنَّمَا كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ يُقَالُ لَهُمْ مِثْلُ هَذَا: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ [الذاريات: ٥٢]؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَيْسَ عِنْدَهُ حُجَّةٌ إِنَّمَا يَذْهَبُ إِلَى السَّبِّ وَالشَّتْمِ، وَيُظَنُّ أَنَّهُ بِذَلِكَ يُنْفَرُ عَمَّنْ خَصَمَهُ وَعَجَزَ عَنْ مُقَابَلَتِهِ، وَأَمَّا الْإِنْسَانُ الَّذِي عِنْدَهُ حُجَّةٌ فَإِنَّهُ لَا يَلْجَأُ إِلَى الشَّتْمِ، وَإِلَى السَّبِّ، وَلِهَذَا يُعَابُ عَلَى

بعض العلماء أن يكون دأبه السب والشتم مع خصومهم.

وكان ابن حزم -رحمه الله، وعفا عنه- شديدًا في المناقشة، ولو كان يُناقش بهدوءٍ لكان أحسن له، وأما السب والشتم في قوم هم مثله أرادوا أن يصلوا إلى الحق، فهذا لا ينبغي، ولا يليق به، ولا يليق بالإنسان العامي، فضلًا عن العالم، فالمقصود ليس هو التهجم على الشخص، فالمقصود أن يردّ على المقالة وتبطل، لكن أعداء الرسل ليس عندهم ما يقاومون به ما جاءت به الرسل، فلهذا يلجئون دائمًا إلى السب والشتم.

ولا شك أن اتّهامه بأنه من المسخرين كذب، بل هو من أعقل الناس عليه الصلاة والسلام، ولو لا أنه أعقل قومه ما جعل الله الرسالة فيه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فهو أعقلهم، وأكثرهم أمانًا، وأقواهم صبرًا.

أما قولهم: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فهذا صحيح، لكن هذه العلة غير مانعة من أن يكون رسولًا، ولهذا قالت الرسل لقومهم الذين احتجوا عليهم بهذه الحجة: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، وهذا جواب هذه الشبهة، فهي شبهة جعلوها حجة، فيقال: وإذا كان بشرًا مثلكم، فلا مانع من أن يؤمن الله عليه بالرسالة.

وأيضًا لا يمكن أن يرسل الله أحدًا إلى البشر إلا من البشر، حتى ولو جعل ملكًا كما اقترح لجعل بسورة الرجل، ثم عاد الأمر على هؤلاء ملتسًا مشتبهًا، فلم يستفيدوا من ذلك شيئًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فِي رِسَالَتِكَ]،
 لَوْ اقْتَصَرُوا عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ﴾ لَكَانَ هَذَا كَلَامًا
 سَلِيمًا؛ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَأْتِيهِ بَشَرٌ مِثْلَهُ وَيَقُولُ: إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ:
 هَاتِ آيَةً وَدَلِيلًا، وَإِلَّا لَأَمْكَنَ كُلَّ كَذَّابٍ أَنْ يَدَّعِيَ النُّبُوَّةَ، وَأَنْ يَسْتَحِلَّ دِمَاءَ غَيْرِهِ
 وَأَمْوَالَهُمْ بِهَذِهِ الدَّعْوَى الْكَاذِبَةِ.

فَقَوْلُهُمْ: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ﴾ صَحِيحٌ، لَكِنْ مَا الْمُرَادُ مِنْهُ، هَلْ يُرَادُ بِهِ التَّحْدِيُّ أَمْ
 الْإِسْتِرْشَادُ؟

يُظْهِرُ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ التَّحْدِيُّ، يَعْنِي أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ، عَلَى
 حَدِّ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ مُسَحَّرٌ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ يَدُلُّ عَلَى اسْتِبْعَادِهِمْ
 أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَعَلَى أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِهَذَا التَّحْدِيَّ لَهُ.



الآيات (١٥٥ - ١٥٩)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٥٥-١٥٩].

•••••

قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ ﴾ نَصِيبٌ مِنَ الْمَاءِ، ﴿وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ بِعِظَمِ الْعَذَابِ، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عَقَرَهَا بَعْضُهُمْ بِرِضَاهُمْ ﴿فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ عَلَى عَقْرِهَا، ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الْمَوْعُودُ بِهِ فَهَلَكُوا، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

أَجَابَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ﴾، فهذه الناقة آية أعظم مما يصنعونه من الحجارة، وما يزرعون من الزروع، ويغرسونه من الأشجار؛ لأنها خرّجت عن النوق الأخرى، فلم تكن مثل النوق المعروفة المألوفة.

ووجه كونها آية بينة في قوله: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾، هذا وجه الآية في هذه الناقة.

وأما ما جاء في الإسرائيليات من أنها خرّجت من صخرة، فهذا لا أصل له،

ولو كَانَتْ كَذَلِكَ لَذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ خُرُوجَهَا مِنْ صَخْرَةٍ -وهي من الحيوان- أَشَدُّ وَأَظْهَرُ وَأَجَلِي فِي الْآيَةِ مِنْ كَوْنِهَا لَهَا شَرِبٌ وَلِهَذَا شَرِبَ.

وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذِهِ النَّاقَةَ نَاقَةٌ وُلِدَتْ مِنْ نُوقٍ، وَلَكِنْ لَهَا مَزِيَّةٌ عَلَى غَيْرِهَا، وَهِيَ هَذِهِ الْمَزِيَّةُ الْعَظِيمَةُ: ﴿لَهَا شَرِبٌ وَلَكَّرَ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾، يَعْنِي أَنَّهَا هِيَ تَشْرَبُ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ، فَتَأْتِي وَتَشْرَبُ، وَالْيَوْمُ الثَّانِي تَذْهَبُ وَتَرَعَى، لَكِنْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَشْرَبُ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ كُلَّ مَنْ أَعْطَاهَا دَلْوًا مِنَ الْمَاءِ أَعْطَتْهُ دَلْوًا مِنَ اللَّبَنِ، فَصَارُوا هُمْ يَشْرَبُونَ يَوْمًا لَبْنًا، وَيَوْمًا مَاءً، وَهَذَا اللَّبَنِ يَأْخُذُونَهُ مِنْ هَذِهِ النَّاقَةِ، وَهَذَا بِلَا شَكٍّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ؛ إِذْ لَا تَوْجُدُ نَاقَةً عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكَّرَ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ كَانَ هَذَا الشَّرِبُ مُؤَقَّتًا بِوَقْتٍ جَعَلُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ، بَحِيثٌ لَا يَلْتَبِسُ عَلَى مَنْ لَيْسَ فِي الْبَلَدِ حَتَّىٰ لَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ فِي خَارِجِ الْبَلَدِ يَعْرِفُ أَنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ النَّاقَةِ، أَوْ أَنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ النَّاسِ، فَيَأْتِي وَيَرِدُ هَذِهِ الْبَيْتَ وَيَشْرَبُ مِنْهَا، أَوْ يَرِدُ النَّاقَةَ بِيَوْمِهَا فَيَشْرَبُ مِنْ لَبْنِهَا، وَهَذِهِ هِيَ الْفَائِدَةُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَكَّرَ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يَقُولُ الْمَفْسَّرُ: إِنَّهُ عَظِيمٌ فِي عِظَمِ الْعَذَابِ، يَعْنِي: وَلَيْسَ الْيَوْمُ نَفْسَهُ هُوَ الْعَظِيمُ، وَلَكِنْ لَوْقُوعِ الْعَذَابِ فِيهِ صَارَ عَظِيمًا، وَ﴿عَظِيمٍ﴾ وَصِفٌ لِلْيَوْمِ.

وَهَلْ هُوَ وَصِفٌ مَدْحٌ أَمْ وَصِفٌ ذَمٌّ؟

هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ وَصِفٌ مَدْحٌ، وَدَلِيلٌ عَلَى الْقُوَّةِ فِيهَا وَصِفٌ بِهِ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ عَذَابًا فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ الْعَذَابِ، وَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ هَذَا الْخَيْرِ،

فَالْعَظْمَةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي تَدُلُّ عَلَى الْكِبَالِ وَالْمَدْحِ، سِوَاءَ كَانَ هَذَا فِي عَذَابٍ أَوْ فِي نِعْمَةٍ.

وقوله: ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ يَتَحَاشَوْنَ أَنْ يَصِفُوا الْمَخْلُوقَ بِ(العظيم)، ولكن الحقيقة لا وجه لهذا، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، ﴿عَمَّ يَسَاءَ لَوْ أَنَّ مِنَ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ [النبا: ١-٢]، ﴿وَلِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]، فوصف الله تعالى بالعظم نفسه وكلامه ووحيه، ووصف به أيضًا بعض مخلوقاته، مما يدل على أنه لا بأس به.

وقد كان النَّاسُ يَتَحَاشَوْنَ أَيْضًا قَوْلَ (المُعْظَمِ)، وهذا أيضًا لا يُتَحَاشَى مِنْهُ، والسَّبَبُ أَنَّهُ مُعْظَمٌ لَيْسَ عَظِيمًا، ف(المُعْظَم) قد لا يكون عظيمًا، فقد يُعْظَمُ مَنْ لَيْسَ بِعَظِيمٍ، وَهُوَ أَقَلُّ رُتْبَةً مِنَ الْعَظِيمِ؛ فَإِذَا كَانَ (العَظِيمِ) جَائِزًا إِطْلَاقًا، ف(المُعْظَمِ) مِنْ بَابِ أُولَى.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قال المفسر رحمه الله: [أي: عقرها بعضهم برضاهم، ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ على عقرها، ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الموعود به، فهلكوا]، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم: ﴿وَلَا تَمْسُوها بِسُوءٍ﴾، ولكنهم مسوها بأسوأ السوء -والعياذُ بالله- فعقروها، والظاهرُ أنَّ المرادَ بالعقرِ القتلُ، وليس قطع الرجل فقط، بل أتهم أهلکوها، فعوقبوا بمثل ما جنوا.

وهل أصبحوا نادمين على ما فعلوا من ذنب، أم أتهم ندموا على ما فاتهم من مصلحتها؟

الظاهرُ أنَّهم ندموا على المصلحة؛ لأنهم ما بعدُ أتاهم العذابُ، فالظاهرُ أنَّهم ندموا على ما فاتهم من المصلحة الدنيوية؛ لأنهم لو ندموا على الذنب لكانوا تائبين،

ولمَّا استحقُّوا العذابَ، لكن نَدِموا على مَصْلَحَتِهِمْ فقد كانوا يَشربون مِن لَبَنِهَا، ثم فاتهم هذا.

وقد بقُوا بعد ذلك ثلاثةَ أيامٍ، والحكمةُ من هذه الأيامِ الثلاثةِ -والله أعلمُ- لعَلَّهم يَتُوبُونَ، ولكنَّهم لم يَتُوبُوا، وقد أُخِذَ مِنْ هذا استتابة المرتدِّ ثلاثةَ أَيَّامٍ، فإنَّ تابَ وإلا أُجْرِي عليه الحدُّ، على خِلافٍ بينَ أَهلِ العِلْمِ في هذه المسأَلَةِ.

والمهمُّ أن هُوَ لاءٍ لم يَنْدَمُوا على فِعْلِ المعصِيَةِ، ولو نَدِمُوا لكانَ توبَةً، ولكنهم نَدِمُوا على ما فاتهم من حَظِّ الدنْيا فقط.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الموعودُ به، فَهَلَكُوا]، إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْجَى صالِحًا وَمَنْ مَعَهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ معلومٌ أَنهم لم يكونوا كلَّهم عَقَرُوهَا، ولكن لَمَّا كانَ برِضا الجميعِ، وَمِنْ زُعَمائِهِمْ، فَنُسِبَ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا، ففِعِل الطائِفَةُ مِنَ الأُمَّةِ يُعْتَبَرُ فِعْلًا لِلجَمِيعِ إِذَا لم يُنْكَرِوه، إِذَا سَكَّتُوا ولم يُنْكَرِوه فهو فِعْلُ الجَمِيعِ، ولهذا يذكَرُ اللهُ تَعَالَى اليَهُودَ في عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ بِما فَعَلَ أَسْلافُهُمْ، وَيُخاطَبُهُمْ به مُخاطَبَةً الفاعِلِ؛ لِأَنَّها أُمَّةٌ واحِدَةٌ، إِذَا لم تُنْكَرِ ما كانَ عليه أَسْلافُها، نُسِبَ لِلجَمِيعِ.

وما هو العذابُ الَّذي أَخَذَهُمْ؟

الجواب: صَيْحَةٌ وَرَجْفَةٌ، يَعْنِي: رَجَفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ وصاحَ بِهِم جِبْرِيلُ، فماتوا، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِيْمًا﴾ [هود:٦٧]، -والعياذُ باللهِ- صَرَعى كَنَفْسٍ واحِدَةٍ.

وفي هذا دليلاً على كمالِ قُدرةِ اللهِ سُبْحانَهُ وَتَعَالَى وَأَنَّ اللهُ تَعَالَى قادِرٌ على كُلِّ شَيْءٍ، ولا يُعْجِزُهُ، قالَ تعالى: ﴿وَمَا كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي

الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ [فاطر: ٤٤]، ولو أننا عَقَلْنَا -نحن المسلمين- وآمنَّا حقيقةَ الإيمان، ما كنَّا بهذه الحالِ التي نحن عليها، يَعْنِي: ما كنَّا نخاف النَّاسَ أكثر مما نخاف الله.

فالإِنْسَانُ لا بُدَّ أَنْ يَخَافَ وَيَرْجُو، لكن إِمَّا أَنْ يَخَافَ اللهَ أو يَخَافَ غَيْرَهُ؛ فَإِنْ خَافَ اللهُ خَافَهُ النَّاسُ، وَإِنْ خَافَ غَيْرَ اللهِ اسْتَوَلَى عَلَيْهِ هَذَا الخَوْفُ، وَهَذَا صَاحِحٌ وَحَقٌّ، فَإِنَّ مَنْ خَافَ اللهُ خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَمَنْ اتَّقَى اللهُ اتَّقَاهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَالعَكْسُ بالعكسِ.

فعلينا جميعًا أن نكون واثقين بوعدِ اللهِ عَزَّجَلَّ غيرِ ناظرينَ إلى الأسبابِ الحاضرةِ، ولو نظرنا نظرةَ مادِّيَّةٍ مَحْضَةٍ، لكنَّا لا يُمكنُ أَنْ نَتَكَلَّمَ مَعَ هؤُلاءِ، أو أَنْ نَتَحَدَّاهُمْ في تنفيذِ الشريعةِ ومُحاربتهم، لكن يجبُ أَنْ لا نَنظُرَ إلى هذه الأسبابِ الحاضرةِ، ويجبُ أَنْ نَنظُرَ إلى أسبابِ أُخْرَى فوقِ المادَّةِ.

ولهذا مَنْ نَظَرَ إلى هذه الأسبابِ -المشاهدة الطبيعية- لا يَسْتَقِيمُ له أمرٌ، فَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عِنْدَمَا جَاءَتِ الفُرْسُ والرُّومُ لم يَنظُرُوا إلى هذه الأسبابِ، فقد كانوا يَحَاصِرُونَ المدينةَ العظيمةَ لمدَّةٍ، ثم يُخْرِجونَ في الصَّبَاحِ، فيكَبِّرونَ اللهُ، فإذا كَبَرُوا تصدَّعتِ الأسوارُ، وهذا شيءٌ مُتَوَاتِرٌ في التاريخِ عنهم، أتهمُ يُحَاصِرُونَ المدينةَ مُدَّةً، ثم إذا كَبَرُوا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَأَتْهَا صَوَارِيخٍ وَقنَابِلٍ تصدَّعَ هذه الجُدْرانُ، ولكنه تكبيرٌ يُخْرِجُ مِنَ القَلْبِ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فقومٌ صَالِحٍ بَغْضِ النَّظَرِ عَنِ عَقْرِ الناقَةِ قَدْ آمَنَ قَلِيلٌ مِنْهُمْ بِاللَّهِ.

فإن قيل: كيف أخذت منهم أحكام المرتدّ وهم أصلاً لم يؤمنوا؟

قلنا: أخذ هذا من إمهال الله سبحانه وتعالى لهم ثلاثة أيام، فصار أننا نمهل الكفار ثلاثة أيام، لكن الكفار الأصليين في الشريعة الإسلامية لهم أحكام خاصة، كإقرارهم بالجزية مثلاً، وغيرهم ممن لا يقرّ على دينه وهو المرتدّ يُنظر ثلاثة أيام، والمسألة خلافية، ثم إن الردّة أيضاً تختلف: فمن الردّة ما يمكن أن يمهل، ومنها ما لا يمكن أن يمهل.

وهل كان قوم صالح كلهم يشربون من بئر واحدة؟

نقول: لعل هذه البئر هي الصالحة في الشرب، وغيرها لا تصلح للشرب، المهم أن أصل شربهم من هذه البئر، ولهذا قسم وقتها: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ مَّا شَرِبُوا إِلَّا مِنْ حَيْثُ بَرَأَتْهُ إِلَّا ابْنُ وَدَّانِ بْنِ سَوْدَةَ بْنِ كَثِبٍ شَرِبَ مِنْهَا وَيَوْمَ يَقُولُ كَيْفَ أَتَى النَّبِيَّ وَالْعِزَّةَ الْكُبْرَىٰ﴾، ولا مانع أيضاً من أن تكون هذه البئر تسقي كل ما يمكن، لكن الأقرب - والله أعلم - أن البساتين منتشرة فيها العيون، وأن هذه البئر هي التي يأخذون منها ماء الشرب.

فإن سأل سائل: لماذا منع الرسول ﷺ من الشرب من مائهم حين مرّ بديارهم؟

فالجواب: لأن استعمال هذا الماء يؤدي إلى النزول فيه والطمانينة، والرسول عليه الصلاة والسلام لما مرّ بها مرّ مقنعاً رأسه وأسرع، وقال: «لَا تَدْخُلُوا عَلَيَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»^(١)، فالمسألة ليست هيئته، والعجيب أن كثيراً من الناس اليوم يذهبون

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَحْضَبُ الْأَنْجَارِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠]، رقم (٤٧٠٢)، ومسلم: كتاب الزهد والرفائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

إليها مذهب الفرجة والنزّهة، وهذا حرام، لا يجوز.

ولا يعارض هذا قول الله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]؛ لأنهم كافرون، أي أنّ فعلهم لا يدلُّ على الجواز.

أو يُقال: إنّ شريعتنا وردت بخلاف ذلك في التحريم، وأمّا قول بعض الناس: الأرض كلها لا تخلو من أممٍ مكذّبة، فأنا أقول: نعم، الأرض كلها لا تخلو من أممٍ مكذّبة، لكن من قال: إنّ هذا المكان المعين مكان أمة مكذّبة.

والأحقاف في الأصل يجوز أن تزورها؛ لأننا لا نعلم مساكنهم بعينها، لكن ثمود مساكنهم موجودة بعينها، فإذا دخلها الإنسان كأنه داخلها بذلك الوقت، ولهذا منع الرسول ﷺ من الدخول إلاّ والإنسان باك، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»، لكن عندنا اليوم يدخلون ومعهم آلات التصوير.

فإن قيل: وهل شدُّ الرّحل لزيارة مساكنِ ثمود محرّم؟

قلنا: شدُّ الرّحل لغير التعبد ليس فيه مانع، فكلُّ الناس يشدون الرّحال للتجارة ولغير التجارة، لكن شدّها للنزّهة فهذا حرام.

أمّا أن يذهب للحشوع والتعبد بتذكّر مآل هؤلاء الجبارين لَمَّا عَصَوْا أمر ربهم، فقد يُقال: إنّ هذا لا بأس به، على أنّ المسألة فيها نظر، فقد يُقال: إنّ الاعتبار بما في القرآن أبلغ بما في البنيان، لكنّه أهون من الذي يذهب للنزّهة والفرجة، فزيارة هذه المساكن مشروطة بأن يعتبر الإنسان.

وهل يجوزُ الشُّربُ من مائهم؟

يقول العلماء: إنَّه يجوز، حتى من بئرِ الناقَةِ؛ لأنَّ المُسلمينَ كانوا يشربونَ منها، فبئرُ الناقَةِ كانتَ معروفةً في الزمنِ السابقِ، أمَّا الآنَ فلا نَدري أمَعرُوفةٌ أم لا، وإلَّا فقد كانتَ معروفةً في الماضي، وحَسَبَ كلامِ الفُقهَاءِ أنها كانتَ بئرًا كبيرةً، يَرُدُّها الحجاجُ الَّذينَ يَقدُمونَ من الشامِ.

من فوائدِ ذِكرِ قومِ صالحٍ:

الفائدةُ الأولى: فيها دليلٌ على عدمِ البقاءِ في حالِ الرفاهيةِ عقابًا لمن التزموا شركهم، أي أنه لا يمكنُ أن يتركوا بدونَ رُسلٍ وشكرٍ للنعمةِ، ويؤخذُ من قوله تعالى: ﴿أَتُرَكُونَ فِي مَا هُنَّآءَ آمِنِينَ﴾، والمرادُ بالاستِفهامِ هنا للنفي والتوبيخِ.

الفائدةُ الثانيةُ: فيها دلالةٌ على عِظَمِ نعمةِ الله عزَّجَلَّ وأنها تستوجبُ الشكرَ العظيمَ لله سبحانه وتعالى وأنه هو مُعطي الأمانِ وآخِذه؛ لقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾.

الفائدةُ الثالثةُ: عِظَمِ نعمةِ الأمانِ، وهذا صحيحٌ، فإنَّ نعمةِ الأمانِ قد تُقابلُ نعمةَ الشَّبَعِ والشُّربِ والرِّيِّ.

الفائدةُ الرابعةُ: أنَّ النخيلَ من أطيبِ أنواعِ الفواكِه؛ لقوله: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَظِيمٌ﴾، فهي ليّنةٌ وسهلةُ الهضمِ، ووجهُ أنَّها مفضَّلةٌ على غيرها، وأنها تُؤتي أكلها كلَّ حينٍ.

الفائدةُ الخامسةُ: بيانُ قوَّةِ قومِ صالحٍ، ويُستفادُ من قوله: ﴿وَتَنجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ﴾، إذ بلغوا من القوَّةِ أن كانوا ينجتُونَ بيوتهم في الجبالِ، وأيُّ قوَّةٍ بعدُ؟!

الفائدةُ السادسةُ: فيه دليلٌ على دِقَّتِهِم في العملِ، والحِذْقِ في الهندسةِ؛ لأنَّ

هَذَا يَتَطَلَّبُ حِدْقًا، حَيْثُ إِنَّهُ أَمْرٌ مُغَيَّبٌ لَيْسَ شَيْئًا أَمَامَكَ كَيْ تَحْصُلَ عَلَى مَا تَرِيدُ، وَيُؤْخَذُ مِنْ قِرَاءَةِ: (فَارْهِنِ) بِمَعْنَى حَاذِقِينَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فائدتان: لفظية ومعنوية، الفائدة المعنوية أَنَّهُمْ لَا يُشَارِكُ فِسَادَهُمْ صِلَاحًا، فَيَكُونُ فِي هَذَا نَفْيٌ إِثْبَاتٍ لِكَمَالِ الْفِسَادِ، وَالْفَائِدَةُ الْلِظْفِيَّةُ أَنَّ فِيهَا طِبَاقًا، فَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنْ الْأَسْلُوبِ الْلِظْفِيِّ الْحَسَنِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ هُوَ نَتِيجَةُ فِسَادِهِمْ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فِيهَا تَسْلِيَةٌ لِكُلِّ دَاعِيَةٍ إِذَا دَعَا إِلَى حَقٍّ لَوْ أُصِيبَ بِمِثْلِ هَذَا، فَإِنَّ كُلَّ مُفْتَرٍّ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ أَوْ رَافِضٍ لَهُ فِعْلُهُ شَبِيهُ بِعَقْرِ هَذِهِ النَّاقَةِ، وَلَكِنْ الْوَاجِبُ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَصْبِرَ، وَأَنْ يَقُولَ: جَرَى لِلْأَنْبِيَاءِ مِثْلُ هَذَا وَأَشَدُّ، وَهُمْ أَشْرَفُ عِنْدَ اللَّهِ مِنِّْي مَا هُوَ أَعْظَمُ.



الآيات (١٦٠ - ١٦٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٦٤].

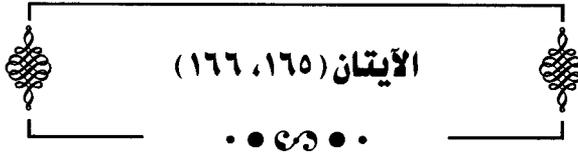
• • • • •

قال المفسر رحمه الله: [﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾].

قوله تعالى: ﴿قَوْمٌ لُوطٌ﴾ هؤلاء في قرية يُقال لها: (سدُوم) من أرضِ فلسطين، ولوطٌ هو - كما يقول المؤرِّخون - ابنُ أخي إبراهيم، فيكون إبراهيمُ عمه، أرسله اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى أهل هذه القرية.

وكانوا مع كفرهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْملُونَ عَمَلًا فاحشًا، يُعْتَبَرُ من أسفل الأعمال - والعياذ بالله - وقد سمَّاه اللهُ تعالى حَبِيبًا في قوله: ﴿وَجِئْنَاهُ مِنَ الْقَرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْسَيْتِ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، فهو حَبِيبٌ وَرِجْسٌ؛ لأنه فَيَسِح عَقْلًا، وفِطْرَةً، وَشَرَعًا، والذي يعملونه هو أنهم يأتون الذُكران - والعياذُ بالله - كما يأتون النساء.

وهنا يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وكل هذا تَقَدَّمَ الكلامُ عليه.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

• • • • •

قال المفسر رحمه الله: [﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ النَّاسِ، ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ﴾ أَقْبَالَهُنَّ، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مُتَجَاوِزُونَ الْحَلَالَ إِلَى الْحَرَامِ].

كُلُّ الرُّسُلِ يُرْسَلُونَ أَوَّلًا بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، لكن هناك أنواع مُعَيَّنَةٌ مِنَ الْمَعَاصِي يَرْتَكِبُهَا بَعْضُ الْأُمَّةِ وَيُرَكِّزُ عَلَيْهَا الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ، ففِيمَا ذَكَرَ فِي قَوْمِ لُوطٍ كَانَ جُرْمُهُمْ هَذِهِ الْفَاحِشَةُ، وَهَذَا قَالَ: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ﴾ وَهَذَا الْأَسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَالْإِنْكَارِ.

قَوْلُهُ: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾ أَي: الذُّكُورَ، جَمْعُ ذَكَرٍ، ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ بَيَانٌ لِلذُّكْرَانِ، أَي: مِنَ النَّاسِ، سِوَاءِ كَانُوا مِنْ قَبِيلَتِكُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِ قَبِيلَتِكُمْ، وَهَذَا لَمْ يَقُلْ: «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنْكُمْ»، بَلْ قَالَ: ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾؛ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُمْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - لَا يَتَحَاشَوْنَ عَنْ أَحَدٍ، فَهَمْ مِثْلُ الْكِلَابِ.

ثم مع ذلك -زيادة على قبحهم- أنهم تركوا النعمة التي خلقها الله لهم ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، فلو كنتم تأتون الذكران من العالمين؛ لأنكم مضطرون لذلك، وليس لكم من الحلال ما يُغنيكم، لكان الأمر أهون، لكن لكم من الحلال ما يُغنيكم، فكيف تأتون الخبائث وتدعون الطيبات؟!

ولهذا قال: ﴿وَتَذَرُونَ﴾ وهي داخلة في مضمون الاستفهام، يعني: وأتذرون، بمعنى: تتركون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، قال المفسر رحمه الله: [أقبلهن]، وهذا تفسير لقوله: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: تأتون الذي خلق لكم من الأزواج، وهو القبل، هذا ما ذهب إليه المفسر، والصواب خلاف هذا، والصواب أن (من) بيان لـ(ما) أي: ما خلق لكم ربكم من الأزواج، يعني: وتذرون الأزواج، هذا هو المعنى.

وفرق بين ما ذكرت وبين ما ذهب إليه المفسر، يعني: كأنه يقول: تَذَرُونَ فُرُوجَ النِّسَاءِ، ولكن لو قال: (أتأتون أذبار الذكور) لكان صواباً، وتذرون فروج النساء، لكن لما قال: ﴿أَتَاتُونَ الذُّكْرَانَ﴾ صار المناسب أن المعنى: وتدعون النساء.

لكن قال: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ دون قوله: ﴿أَنْفُسِكُمْ﴾؛ إشارة إلى أن الله تعالى هيأ هذه الزوجة للذكر يتمتع بها كما يشاء، إلا فيما حرم الله من الدبر مثلاً، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَنْفُسِهِمْ حَفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥-٦]، وهذا يدل على إباحة استمتاع الرجل بامرأته إباحة مطلقاً بلا حدود، ما عدا أمرين: الدبر، والفرج في الحيض، وما سوى ذلك فكل شيء مباح.

وهذا يزيد الأمر قُبْحًا إلى قُبْحِهِمْ، حيث يدعون الطيب ويأتون الخبيث.

وفي قوله: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ و﴿وَتَذَرُونَ﴾ الفائدة المعنوية التي أشرنا إليها، وهي زيادة القبح، والفائدة اللفظية، وهي الطباق بذكر الأمر ومقابله.

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبِّكُمْ﴾ اللام للإباحة أو للتعليل، أي: خَلَقَ لِأَجْلِكُمْ، أو: أباح لكم.

وقوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمُ الَّذِي يُجِيبُهُمْ.

وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، (بل) للإضراب، والإضراب هنا كأنه قال: لا تأتون الذكران فطرة ولا عملاً عادياً محبوباً إلى الفطر، ولكن الذي حملكم على هذا هو العدوان المجرد - والعياذ بالله - متجاوزين الحلال إلى الحرام، فيبين لهم لوط عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ مَا فَعَلُوهُ أَمْرٌ مُسْتَنْكَرٌ عَقْلاً، وَمُسْتَنْكَرٌ شَرْعاً وَعُرْفاً؛ لِأَنَّ الْعُدْوَانَ لَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُنْكِرُهُ، وَهُؤُلَاءِ مُعْتَدُونَ.

ومن الغريب أن الفاعل منهم اليوم قد كان مفعولاً به بالأمر! والمفعول به اليوم يكون فاعلاً في المستقبل! وهذا غاية ما يكون من العدوان.

وسبحان الله! كيف هؤلاء الجماعة - نسأل الله السلامة - يرى الإنسان ولده أو أخاه الصغير تُفعل به الفاحشة ولا يبالي بهذا؟! والظاهر أنهم يفعلونها جهراً؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَكَدِكُمُ الْمُكْرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فهم لا يُبَالُونَ - والعياذ بالله - أن يركب بعضهم بعضاً جهاراً، وهذا غاية ما يكون من السُّخْطِ.



الآيات (١٦٧ - ١٧٥)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَه يَلُوطٌ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ [الشعراء: ١٦٧-١٧٥].

•••••

قال المفسر رحمه الله: [﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَه يَلُوطٌ﴾ عَنْ إِنكَارِكَ عَلَيْنَا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ مِنْ بَلَدَتِنَا، ﴿قَالَ﴾ لُوطٌ ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ الْمُبْغِضِينَ، ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أَي مِنْ عَذَابِهِمْ، ﴿فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا﴾ أَمْرَاتُهُ ﴿فِي الْغَيْرِينَ﴾ الْبَاقِينَ أَهْلَكْنَاهَا، ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أَهْلَكْنَاهُمْ، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ حِجَارَةً مِنْ جُمَّةٍ الْإِهْلَاكِ ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ مَطَرُهُمْ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾].

هذا الجواب القبيح منهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَه يَلُوطٌ﴾ عن الأمر المعروف والنهي عن المنكر ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾، وهذا أبلغ من لو قالوا: (لنُخْرِجَنَّكَ)، كأنهم يهدّدونه بما هو أعظم؛ ترويعاً له، يعنني: إننا أخرجنا غيرك وستكون أنت من جملة المُخْرَجِينَ؛ لأن لنا قُدْرَةً وسُلْطَةً على إخراجك.

وفي قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَه﴾ تأكيدٌ بالقسم واللام ونون التوكيد: فاللام في

﴿لَيْن﴾ مُوَطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ، أَمَّا اللَّامُ فِي ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ فَهِيَ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ الْقَسَمِ، وَالْجَوَابُ الْمَوْجُودُ هُنَا لِلْقَسَمِ، قَالَ ابْنُ مَالِكٍ (١):

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمٍ جَوَابَ مَا أَخْرَتْ فَهُوَ مُلْتَزِمٌ

قَالَ لَهُمْ لَوْ طَعَنَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

[الْمُبْغِضِينَ]، وَهَذَا فِيهِ نَوْعٌ مِنَ التَّحْدِيِّ لَهُمْ. يَعْنِي: إِنْ أَخْرَجْتُمُونِي فَأَنَا رَاضٍ بِذَلِكَ، وَلَا يُهْمُنِي إِخْرَاجِي؛ لِأَنِّي ﴿لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ وَالإِنْسَانُ الْمُبْغِضُ لِعَمَلِ قَوْمٍ لَا يَجِبُ أَنْ يَبْقَى مَعَهُمْ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: أَنَا لَا يُهْمُنِي إِذَا خَرَجْتُ؛ لِأَنِّي لَا أَرْغُبُ بِالْمُقَامِ مَعَكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ الْخَبِيثِ الَّذِي أَبْغَضُهُ، وَالإِنْسَانُ أَشَدُّ مَا يَكُونُ عَلَيْهِ أَنْ يَبْقَى مَعَ قَوْمٍ يَكْرَهُهُمْ، يَقُولُ الْمُتَنَبِّيُّ (٢):

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوَّالَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

وَهَذَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ تَبَقَى مَعَ قَوْمٍ تَكَرَّهُ أَفْعَالَهُمْ، هَذَا صَعْبٌ عَلَى النُّفُوسِ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: أَنَا أَرْغُبُ بِهَذَا، وَمُسْتَعِدٌّ لَهُ، وَلَا أُبَالِي بِإِخْرَاجِكُمْ.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُبْغِضَ عَمَلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ يُبْغِضُونَهُ، وَهَذِهِ هِيَ فَائِدَةُ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنَ الْقَالِينَ﴾ أَي: مِنَ الْمُبْغِضِينَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ هُوَ مَا فِيهِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) فَمَا وَحَدَّنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الذَّارِيَات: ٣٥-٣٦]، يَعْنِي أَنَّهُ مَا آمَنَ مَعَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَهْلَ بَيْتِهِ، وَلَيْسَ كُلُّ أَهْلِهِ؛ فَامْرَأَتُهُ كَانَتْ مِنَ الْكَافِرِينَ.

(١) ألفية ابن مالك - عوامل الجزم، (ص: ٥٩) ط. دار التعاون.

(٢) ديوانه (١/٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال المفسر: [مِمَّا يَعْمَلُونَ] من عذابهم، ولا شك أن هذا التأويل قاصر؛ لأن: ﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من فعلهم ومن عذابهم أيضًا.

ولا يمتنع أن يسأل الله تعالى أن يُنَجِّيه من هذا العمل، وإن كان الرُّسُل لا يُمكن أن يَعْمَلُوهُ؛ لأنَّ الصَّوَابَ المقطوع به أنهم معصومون ممَّا يُحِلُّ بالشَّرَفِ والكرامة، وعمل قوم لوطٍ هذا يُحِلُّ بالشَّرَفِ، لكنه هو دعا لنفسه وأهله: ﴿نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾، وأهله ليسوا معصومين.

والصَّوَابُ أَنَّهُ سَأَلَ اللهُ أَنْ يُنَجِّيه مِنْ عَمَلِهِمْ، وَمِنْ عَذَابِهِمْ.

قال الله تعالى: ﴿فَجَنَّتْهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ الفاء للتفريع، يعنى: فتفريعاً على دعوتِهِ أُجِيبَ.

قال المفسر رحمه الله: [﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾] امرأته، ﴿فِي الْغَائِبِينَ﴾ الْبَاقِينَ أَهْلَكْنَا هَا، وفي بعض النسخ: [أَهْلَكْنَا]، وكأنه يريد أن (أهلكنا) مُسَلِّطٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ يَعْنِي: إِلَّا أَنَا أَهْلَكْنَا ﴿عَجُوزًا﴾، و(أهلكناها) أيضًا لها معنى أوضح؛ لأنه إذا قال: (الباقيين أهلكنا) قد يظن الظان أن المراد أهلك الباقيين. وعلى كُلِّ حالٍ استجاب الله دعوتَهُ، فنجَّاه وأهله.

قَوْلُهُ: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَهْلَ كَانُوا عِدَدًا كَثِيرًا، وَالصَّحِيحُ أَنَّنَا لَا نَدْرِي كَمْ عَدَدُهُمْ، إِنَّمَا أَهْلُهُ، وَلَكِنْ: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يَدُلُّ عَلَى الْكثْرَةِ؛ لِأَنَّ: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ هَذِهِ جَمْعٌ، وَأَدْنَى مَا يُقَالُ فِيهِ ثَلَاثَةٌ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تَدُلُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مُسْتَكْتَرَةٍ.

وقوله: ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ - والعياذُ بالله - هذه المرأة عَجُوزٌ كبيرة في السنِّ، وكان الذي يَنْبَغِي لكبير السنِّ أن يكونَ مُنِيبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه قَرِيبٌ مِنَ المَوْتِ، وأقرب إلى الموت من الشابِّ، ولكن هي صارتُ خبيثَةً - والعياذُ بالله - كافرةً بالله، لكنَّها كاتمةٌ لذلك، ولهذا قال اللهُ تَعَالَى في سُورَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحریم: ١٠]، ليستُ خيانةً شهوةً وزِنًا، لكن خيانةً كُفْرًا، ولهذا قال: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحریم: ١٠]، ثم قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، لم تُشْعِرَاهُمَا بالكُفْرِ، فما عَلِمَا بِكُفْرِهِمَا.

وهي لَمَّا كَانَتْ مُؤَيَّدَةً لِفِعْلِ القَوْمِ كَانَ هذا إقرارًا بالكفر، فهي كافرةٌ ومؤيدةٌ أيضًا زيادةً.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ الْبَاقِينَ]، وَالغَابِرُ: يُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ، مِنْهَا: الْبَاقِي، وَمِنْهَا: الْمَاضِي أَيْضًا، فَيَكُونُ مِنَ الْأَضْدَادِ؛ وَهِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَصْلُحُ لِلشَّيْءِ وَلِضِدِّهِ.

قوله: ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن أَنجَيْنَا لُوطًا وَأَهْلَهُ ﴿دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾؛ لأنه بعد أن أَمَرَ أَنْ يَسِيرَ بِأَهْلِهِ لَيْلًا، وَأَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْبَلَدَةِ إِلَّا امْرَأَتَهُ، دَمَرَ اللهُ هَذِهِ الْبَلَدَةَ، يَعْنِي: فَخَرَجَ ثُمَّ دَمَّرَتْ، وَقَوْلُهُ: ﴿الْآخَرِينَ﴾ الْمُرَادُ بِهِ قَوْمُهُ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [أَهْلَكْنَاهُمْ، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ حِجَارَةً، مِنْ جَمَلَةِ الْإِهْلَاكِ]، وَالظَّاهِرُ لِي أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ عَطْفٌ تَفْسِيرٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي دُمِّرُوا بِهِ، أَنَّ اللهُ أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ مَطَرًا، وَهَذَا الْمَطَرُ هُوَ ﴿حِجَارَةٌ مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، مُتَّبَعٌ، ﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ [هود: ٨٣]، عِنْدَ اللهِ.

قوله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي: مَطَرٌ هُوَ لَاءِ الْقَوْمِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿الْمُنْذِرِينَ﴾؛ لِيَبَيِّنَ أَنَّهَا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَلَمْ يُنْذِرُوا بِالْعَذَابِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَعْدَرَ مِنْهُمْ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ في هذه الآية وغيرها من الآيات ما يدلُّ على أَنَّ قَوْمَ لُوطٍ أَهْلَكُوا بِهذهِ الْحِجَارَةِ: بالتدميرِ بِالْحِجَارَةِ وَلَيْسَ بِالْقَلْبِ كَمَا هُوَ مَشْهُورٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَكَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، أَنَّ بِلَادَهُمْ حُمِلَتْ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ثُمَّ قُلِبَتْ، فَهَذَا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَالَّذِي فِي الْقُرْآنِ قَوْلُهُ: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤]، وَجَعَلَ الْعَالِي سَافِلًا يَكُونُ بغيرِ الْقَلْبِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْحِجَارَةَ إِذَا نَزَلَتْ عَلَى الْمَنَازِلِ وَهَدَمَتْهَا صَارَ الْعَالِي مِنَ الْمَنَازِلِ سَافِلًا، ثُمَّ إِذَا قُلِبَتْ -مَثَلًا- وَصَارَ النَّاسُ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ، فَلَيْسَ لِلْحِجَارَةِ حِينَئِذٍ قِيَمَةٌ.

والمهمُّ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَمْرِ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَرْضَهُمْ حُمِلَتْ فَقُلِبَتْ، وَمَا دَامَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَمْرِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، فَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمْ دُمُّرُوا بِهذهِ الْحِجَارَةِ.

وَيُسْتَفَادُ مِنَ قِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الدُّعَاءُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْأَمْرُ بِتَقْوَاهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الْإِخْلَاصُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلدَّاعِي أَنْ يَأْخُذَ عَلَى دَعْوَتِهِ أَجْرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنَّ مِنْ بَنِي آدَمَ مَنْ ثَقَلَبَ طَبِيعَتَهُ وَتُصَرَّفَ حَتَّى يَسْتَحْسِنَ الْخَبِيثَ؛ لِأَنَّ هُوَ لَاءِ هَذَا حَالَهُمْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: زيادةُ الإنكارِ فيما إذا كان للإنسانِ مَنُذُوحَةٌ عَنِ الحَرَامِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: جوازُ الاستمتاعِ بالزوجةِ استمتاعًا مُطْلَقًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ مَنْ تَجَاوَزَ الحَلَالَ إِلَى الحَرَامِ، فَهُوَ عَادٍ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فِي الآيَاتِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ المَعَانِدِينَ لِلرُّسُلِ إِنَّهَا يَلْجَأُونَ إِلَى قُوَّتِهِمْ وَسُلْطَتِهِمْ، لَا إِلَى العَقْلِ وَالِإِقْنَاعِ، قَالُوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، وَقَالَ ذَلِكَ قَوْمٌ نوحٍ: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، لَكِنَّهُ عَذَابٌ آخِرٌ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا قَالَهُ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: ﴿لَئِنْ أَخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وَقَالَ آزُرُ لِابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦].

كُلُّ هَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُهْدَدُونَ بِالسُّلْطَةِ لَا بِالِإِقْنَاعِ وَالْعَقْلِ، هَؤُلَاءِ لَا حُجَّةَ لَهُمْ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يُبَغِّضَ مَا أَبْغَضَهُ اللهُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ طَرِيقَةُ الرُّسُلِ؛ قَالَ: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ القَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّهُ لَا غِنَى لِأَحَدٍ عَنِ دَعَاءِ اللهِ: ﴿رَبِّ يَحْيَى وَآهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩]، وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ العَارِفِينَ الجَاهِلِينَ: «عِلْمُهُ بِحَالِي يُغْنِي عَن سُؤَالِي»^(١)،

(١) يُرَوَى عَنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَما أَلْقَى فِي النَّارِ، انظُر تَفْسِيرَ البَغْوِيِّ (٥/٣٢٧)، وَانظُر تَنْزِيهَ

فهذا قولٌ باطلٌ، فالله يعلمُ بحالِ كلِّ أحدٍ، ومع ذلك ما زالتِ الرُّسُلُ وأتباعُهُم يَدْعُونَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: وَجُودُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ نَجْحِي﴾ [الشعراء: ١٦٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَنَجِّنَهُ﴾ [الشعراء: ١٧٠]، وهذا دليلٌ حسيٌّ ظاهرٌ.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إِجَابَةُ اللَّهِ لِلدُّعَاءِ، وَهَذِهِ إِجَابَةٌ تَتَضَمَّنُ عِدَّةَ صِفَاتٍ، فَتَتَضَمَّنُ الْعِلْمَ، وَالْقُدْرَةَ، وَالرَّحْمَةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: فِي الْآيَاتِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْقِذُ أَهْلَ الْحَقِّ مِنْ إِهْلَاكِ الْكَافِرِينَ، وَيُهْلِكُ الْكَافِرِينَ وَلَوْ كَانُوا فِي أَحْضَانِ أَهْلِ الْحَقِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَنْجَى لُوطًا، وَأَهْلَكَ امْرَأَتَهُ، وَهِيَ فِي أَحْضَانِهِمْ، وَهَذَا هُوَ السِّرُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦]، فَالتَّعْبِيرُ الْقُرْآنِيُّ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ نَجَّوْا، لَكِنِ الْبَيْتَ الْمُسْلِمَ مَا نَجَّا كَلَّهُ، فَالْمَرْأَةُ الَّتِي كَانَتْ تَتَظَاهَرُ بِالذِّينِ وَهِيَ مُسَلِمَةٌ ظَاهِرًا؛ مَا نَجَّتْ، وَهَذَا قَالَ: ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فَهَذَا الْبَيْتُ أَهْلُهُ مُسْلِمُونَ، لَكِنِ لَيْسَ كُلُّهُمْ مُؤْمِنِينَ، بَلْ فِيهِمْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الْعَجُوزُ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ - كَمَا يَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ - عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْإِسْلَامُ؛ لِأَنَّ فَرْقًا بَيْنَ هَذَا وَهَذَا.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْقُرْبَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ لَا يُغْنِي الْإِنْسَانَ شَيْئًا، لِأَنَّ هَذِهِ زَوْجَةَ نَبِيِّ، وَمَعَ ذَلِكَ هَلَكَتْ مَعَ مَنْ هَلَكَ، فَكُونَ الْإِنْسَانِ قَرِيبًا مِنْ إِنْسَانٍ وَلِيٍّ لِلَّهِ لَا يُفِيدُهُ شَيْئًا، فَأَبُو هَبِّ عَمُّ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَعَ ذَلِكَ مَا نَزَلَ

= الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة (١/٢٥٠). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ليس له إسناد معروف وهو باطل. مجموع الفتاوى (١/١٨٣).

مَنْ الْقُرْآنِ فِي أَحَدٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الْكُفَّارِ سِوَى أَبِي لَهَبٍ عَمَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ فِي تَسْمِيَةِ شَخْصٍ بَعِينِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا فِي زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، مَوْلَى مَنْ الْمَوَالِي، مِنْ أْبَعْدَ مَا يَكُونُ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وبهذا يتبين أن قرب النسب وقرب المصاهرة وغيره لا يُغني عن الإنسان شيئاً.

وتأمل ما نزل في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠]؛ لأن عائشة وحفصة اللتين تظاهرتا على النبي ﷺ قد يغتران بقربهما إلى النبي عليه الصلاة والسلام فيعملان ما عملاه، وبين الله سبحانه وتعالى أنه لا تنفعهما صلتهما بالنبي صلى الله عليه وسلم.

الفائدة الرابعة عشرة: أن عقوبة الله سبحانه وتعالى تتنوع حسب العمل؛ لأن هنا تمطر مطراً حتى هدمت منازلهم، وصار عاليها سافلها، ثم خُسِفَ بها فيما بعد، ولذلك الآن هي بحيرة اسمها (بحيرة لوط) معروفة، وهي البحر الميت؛ وسميت البحر الميت لأنه غير متّصل بالبحار، ويقولون أيضاً: إنه لا يعيش فيه السمك والحوثُ بمثل ما يعيش فيه غيره، فهو فيه سمكٌ لكنه ليس مثل غيره؛ لأنه ليس متّصلاً بالبحار العميقة، فلا يكون فيه ذلك الشيء الكثير.

الفائدة الخامسة عشرة: استدلال بعض العلماء -أخذاً من هذه القصة- أن اللّوطي يقتل بأن يُرمى بالحجارة حتى يموت؛ قياساً على رمي الله تعالى لهؤلاء بالحجارة.

وهذه المسألة فيها خلاف:

فالقول الأول: أن اللّوطي لا يُتعرّض له ولا يُقال له شيءٌ.

والقول الثاني: أنه يُعزَّر بالضربِ والحبس، وما أشبه ذلك.

والقول الثالث: أنه كالزاني: إن كان مُحصَّنًا رُجِمَ، وإن كان غير مُحصَّنٍ جُلِدَ وُغْرِبَ.

والقول الرابع: أنه يُقتل بكلِّ حالٍ، سواء كان مُحصَّنًا أم غير مُحصَّنٍ، ولكن اختلفوا في كيفية قتله، فقيل: بالرَّجْم، وقيل: بالسَّيف، وقيل: بالتَّحْرِيق، وقيل: بإلقائه من الشاهق وإتباعه بالحجارة، وهذا القول هو الذي اتَّفَقَ عليه الصحابة أنه يُقتل.

وهذا القول هو الصَّحيح المتعين، أنه يُقتل بكلِّ حالٍ؛ فاعلاً كان أم مفعولاً به، إذا كان بالغاً عاقلاً؛ لأنَّ هذا ليس كالزَّنا، بل أشدَّ وأعظم، ولأنه أمرٌ لا يُمكن التحرُّز منه، بخلاف الزَّنا، فالزنا يمكن التحرُّز منه، لكن هذا لا يُمكن؛ فإنَّه لو أنَّ خبيثاً أمسك بيدَ أمردٍ لا أحدَ يقول: ما الأمردُ هذا؟ ولماذا تُمسك يده؟ وما أشبه ذلك، فهو أمرٌ لا يُتحرَّز منه، فيأتي في نوادي الرِّجال وغيرها.

وقد ذكَّر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أَنْ الصَّحَابَةَ أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ (١).

أما مَنْ قال: إنه لا يُتعرَّض له، فحجَّته أنَّ هذا ممَّا تَنَفَّرُ عنه الطَّبَاع، وما تنفر عنه الطَّبَاعُ يُكتفى بالردِّع الطبيعيِّ، كما أنَّ شاربَ البَوْلِ لا يُتعرَّض له، وشارب الخمرِ يُجلد؛ لأن الخمرَ تَدْعُو النَّفْسُ إِلَيْهِ، وهذا لا تَدْعُو النَّفْسُ إِلَيْهِ.

ولكن هذا قولٌ باطلٌ مِنْ جَوْهٍ:

أولاً: فإن قولهم: «إنها لا تدعو النفس إليه» هذا صحيحٌ لكن النفوس

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/٣٣٤).

السَّليمة بلا شكَّ هي التي لا تَدعو إليه، وتَسْتَهْجِنه وتَسْتَقْبِحُه، لكن النفوس الحَبِيثَة تَهواه أَكْثَر من النِّساء، فيَهْجُرُون نِساءَهُم في فُرْشِهِنَّ، ويَذْهَبُونَ إلى فِعْله هذه الفاحشة!

ثانيًا: قولهم: «إِنَّ البَوْلَ لا يُعزَّر على شُرْبِه، ويُكتفى برادعِ طَبِيعِيَّ»، هذا باطلٌ أيضًا، بل يجبُ أن يُعزَّر على فِعْله، ومَنْ رأيناهُ يَشْرَب بولًا يجبُ أن نُعزِّرَهُ؛ لأنه فَعَلَ محَرَّمًا، والتعزيرُ واجبٌ لكلِّ مَعْصِيَةٍ لا حدَّ فيها ولا كَفَّارَة، فالصَّوابُ أنه يُقتلُ في كُلِّ حالٍ. والله المستعانُ.

فإن قيل: كيف أجازَ الصَّحابةُ تحريقَه، وقد وردَ النهيُ عن التعذيبِ بالنارِ في قوله ﷺ: «لا يَنْبَغِي أَنْ يُعذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ»^(١)؟

قلنا: كأنهم رأوا ذلك لِعِظَمِ هذا الفِعْله، وأنَّ المقصودَ بتعذيبِ النارِ في الأمورِ التي دونَ هذا، وإلَّا فقد وقعَ ذلك من أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(٢)، وعليّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومن هشام بن عبد الملكِ بنِ مَرْوانَ، ثلاثةٌ مِنَ الخُلَفَاءِ كلَّهم اتَّفَقُوا عليه.

والراجحُ أنَّ حدَّه القتلُ في كُلِّ حالٍ، يَعْنِي: لو يَتَلَوَّطَ مَنْ له سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً بِمَنْ له سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً، فُتِلَا جميعًا، وإن كانا غيرَ مُحْصَنَيْنِ، أو كانا مُحْصَنَيْنِ.

وقد وردَ في مواطنٍ أُخْرَى مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ أنَّ لوطا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿هَتُولَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعِيلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، يَعْنِي: تَزَوَّجُوهُنَّ.

وبعضُ المُفسِّرينَ قالوا: ﴿بَنَاتِي﴾ يَعْنِي: بناتِ الأُمَّةِ؛ لأنَّ الرَّسُولَ أَبُّ لِقَوْمِهِ،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم (٢٦٧٥).

(٢) ذم اللواط للأجري (ص: ٥٨).

فيكنّ له بِمَنْزِلَةِ بِنَاتِهِ. وَالَّذِي دَعَاهُمْ إِلَىٰ هَذَا أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنْ بِنَاتِهِ مُسْلِمَاتٌ مُّؤْمِنَاتٌ، وَهُؤُلَاءِ كُفَّارٌ، وَالْكَافِرُ لَا يَتَزَوَّجُ بِالْمُؤْمِنَةِ.

فَيُقَالُ: الْجَوَابُ عَنْ هَذَا: إِمَّا أَنْ شَرِيعَتُهُمْ تُبِيحُ ذَلِكَ، أَوْ أَنْ مَعْنَى: ﴿هُؤُلَاءِ بِنَاتٍ﴾ يَعْنِي: فَأَسْلِمُوا وَتَزَوَّجُوا هُنَّ.

وهذا في الْحَقِيقَةِ كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَنَا أَحَافِظُ عَلَىٰ ضِيُوفِي أَكْثَرَ مِمَّا أَحَافِظُ عَلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ، يَعْنِي: فَإِنِّي أَحْمِيهِمْ حَتَّىٰ إِنِّي أَتَنَازَلُ عَنْ بِنَاتِي وَتَزَوَّجُوهُنَّ؛ مِنْ أَجْلِ الْمَحَافِظَةِ عَلَىٰ هُؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ.



الآيات (١٧٦ - ١٨٠)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٨٠].

•••••

قال المُفسِّر رحمه الله: [﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ ﴾ وفي قِرَاءَةِ بِحَذْفِ الهمزة وإلقاء حَرَكَتِهَا عَلَى اللَّامِ وَفَتْحِ الهَاءِ ^(١)، هِيَ غِيضَةٌ شَجَرٍ قُرْبَ مَدِينِ ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴿، لَمْ يَقُلْ لَهُمْ: أَخُوهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ ﴾ ﴿ أَلَا نَنْقُونَ ﴾ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ ﴿ مَا ﴾ ﴿ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾].

قوله: ﴿ لَيْكَةِ ﴾، قال المُفسِّر رحمه الله: [وفي قِرَاءَةِ بِحَذْفِ الهمزة وإلقاء حَرَكَتِهَا عَلَى اللَّامِ وَفَتْحِ الهَاءِ]: (لَيْكَةِ)، هذه هي القِرَاءَةُ الثَّانِيَّةُ، وعلى قِرَاءَةِ الهمزة إِنَّمَا كُسِرَتِ الهَاءُ لِأَجْلِ (أَلِ) التعريفِ؛ فَإِنَّ القِرَاءَةَ الثَّانِيَةَ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا بالتفسير: (كذب أصحاب لَيْكَةِ) حُذِفَتِ الهمزةُ معَ (أَلِ) المعرفة، وعلى هذا تكون ممنوعةٌ منَ الصَّرفِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَوْجَدْ فِيهَا (أَلِ) الَّتِي تَحْوِلُ غَيْرَ المصروفِ إِلَى مُنْصَرَفٍ.

(١) حجة القراءات (ص: ٥١٩).

وما هي الأيكة؟

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [هِيَ غَيْضَةُ شَجَرٍ قُرْبَ مَدِينِ]، أَي أَرْضٌ مَمْلُوءَةٌ بِالشَّجَرِ،
وَالغالبُ أَن تَكُونُ هَذِهِ الأشجارُ المُلْتَفَّةُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ.

و(مَدِينِ) يَظْهَرُ أَنَّهُ فِي طُورِ سِيناءَ، مِنْ قِصَّةِ مُوسَى.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [لم يقل: أخوهم؛ لأنه
لم يكن منهم]، بينما قال في غيره مِمَّا مَضَى مِنَ القِصَصِ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾،
﴿وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، فتبيَّن بهذا أن أصحابَ الأيكةِ لَيْسُوا
أهلَ مَدِينِ.

ولهذا قال المُفسِّر: [قُرْبَ مَدِينِ]، وليسوا مِنَ القَرِيَةِ الَّتِي بُعِثَ فِيهَا شُعَيْبٌ؛
لأنَّ أهلَ القَرِيَةِ الَّتِي بُعِثَ فِيهَا مَدِينِ مِنْ قَبيلَتِهِ، ولهذا لَمَّا ذَكَرَ مَدِينِ قال: ﴿أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا﴾، وَأَمَّا هُنَا فَمقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل: أخوهم.

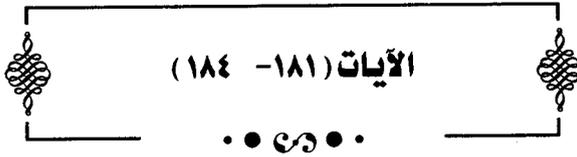
ومِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَصْحابَ مَدِينِ، أَنَّ العَذابَ الَّذِي أُخِذُوا بِهِ غَيْرُ
العَذابِ الَّذِي أُخِذَ بِهِ أَصْحابُ مَدِينِ، فَأَصْحابُ مَدِينِ أُخِذُوا بِالصَّيْحَةِ، وَهُؤُلَاءِ
أُخِذُوا بِعَذابِ الظُّلَّةِ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شاءَ اللهُ.

وهل مَعْنَى هَذَا أَنَّ شُعَيْبًا أُرْسِلَ مَرَّتَيْنِ؟

الجواب: لا، بل أُرْسِلَ مَرَّةً وَاحِدَةً، لَكِنِ إِلَى قَوْمَيْنِ؛ إِلَى هؤُلَاءِ وَهُؤُلَاءِ، وَيَجُوزُ
أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ بابِ التَّبَعِ، يَعْنِي: هَذِهِ القَرِيَةُ صَغِيرَةٌ مِثْلًا، وَكَانَتْ تَابِعَةً لِبَلَدِيَّتِهِ،
وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا أَنَّ عَمَلَهُمْ وَاحِدٌ؛ عَمَلُ هؤُلَاءِ، وَعَمَلُ أَهْلِ مَدِينِ.

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا نُنَقِّوْنَ ۙ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۙ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۙ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۙ إِنِ اجْتَرَىٰ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۙ﴾، هذا المعنى عام لكل الرُّسُلِ، فالذنبُ الخاصُّ لهؤلاءِ كما سيأتي: [﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ ۙ أَمْمُوهُ ۙ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۙ﴾ الشعراء: ١٨١]، الناقصين].





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٤].



قال المفسر رحمه الله: [﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أَمْثُوهُ ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ الميزان السوي، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لَا تَنْقُصُوهُمْ مِنْ حَقِّهِمْ شَيْئًا ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ مِنْ (عَثِي) بِكْسِرِ الْمُثَلَّثَةِ: أَفْسَدَ، وَ(مُفْسِدِينَ) حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ لِمَعْنَى عَامِلِهَا، ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ﴾ الْحَلِيقَةَ ﴿الْأُولَى﴾].

هؤلاء القوم الذين بُعث إليهم شعيب، سواء كانوا قومه أو أهل هذه القرية، كانوا يبخسون المكيال والميزان - والعياذ بالله - فإذا وزنوا للناس ناقصوه، وإذا أزنوا منهم استوفوه، هذا الظاهر، ﴿وَيَلِّ لِلْمُطَفِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣]، وقال هنا: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ وبينهما مقابلة؛ لأجل ألا يقال: إن من أوفى في أكثر الأعمال يكون موفياً، مثل قوله: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ يَعْنِي: فِي كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ مَعَامَلَاتِكُمْ، وَهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أَي: مِنَ الْمُتَصِفِينَ بِالْإِقْسَاطِ، وَالْإِقْسَاطُ بِمَعْنَى النِّقْصِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ هَذَا الْوِزْنُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْوِزْنِ وَبَيْنَ الْكَيْلِ: أَنَّ مَا قُدِّرَ بِالْحَجْمِ فَهُوَ كَيْلٌ، لِأَنَّ الْمِكْيَالَ تَضَعُ فِيهِ الشَّيْءَ فَيَكُونُ حَجْمُهُ هَكَذَا، وَأَمَّا مَا يُقَدَّرُ بِالثَّقَلِ فَيُسَمَّى وَزْنًا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ يَقُولُ الْمُفَسِّرُ: [الْمِيزَانَ السَّوِيَّ]، فَعَلَى هَذَا الْقِسْطِ بِمَعْنَى: الْمِيزَانَ، وَالْمُسْتَقِيمِ بِمَعْنَى: السَّوِيَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ قَالَ: [لَا تَنْقُصُوهُمْ مِنْ حَقِّهِمْ شَيْئًا]، هَذَا عَامٌّ حَتَّى فِيمَا يُزْرَعُ، وَفِيمَا يُعَدُّ.

مِثْلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ذَنَّبَهُمُ الْخَاصُّ الَّذِي بُعِثَ هَذَا الرَّسُولُ لِإِصْلَاحِهِ، مَعَ عِبَادَةِ اللَّهِ، هُوَ بَخَسُ النَّاسِ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ وَغَيْرِهِمَا، وَهَذَا عَمَمٌ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لَا تَنْقُصُوهُمْ حُقُوقَهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ]، وَلَمْ نَعْرِفْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ -أَي: قَوْمِ شُعَيْبٍ- كَانُوا يَقْتُلُونَ النَّاسَ، بَلِ الْمَعْرُوفُ مِنْ ذَنبِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَبْخَسُونَ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمَقْصُودُ هُوَ الْإِفْسَادُ بِالْقَتْلِ أَوْ غَيْرِهِ. إِنَّمَا الْإِعَادُ سِوَاءَ بِالْحَبْسِ أَوْ بِالضَّرْبِ أَوْ بِغَيْرِهِمَا، فَهُوَ مِنَ الْفِسَادِ، وَمِنَ الْفِسَادِ أَيْضًا نَقَصُ النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ؛ لِأَنَّ الْعُتُوَّ هُوَ الْفِسَادُ، كَمَا لَوْ قُلْتَ: «لَا تَقُمْ قَائِمًا»؛ فَإِنَّ قَائِمًا حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ لِقَوْلِكَ: «لَا تَقُمْ».

قَوْلُهُ: [﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَةَ﴾: الْحَلِيقَةَ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾]، ذَكَرَهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالَّذِي خَلَقَهُمْ، وَخَلَقَ الْخَلْقَ الْأَوَّلَ أَيْضًا، إِشَارَةً إِلَى أَنَّكُمْ سَتَزُولُونَ كَمَا زَالَ مَنْ قَبْلَكُمْ، فَانْتَمِمْ مَخْلُوقُونَ مِنَ الْعَدَمِ، وَتَعُودُونَ إِلَى الْعَدَمِ.



الآيات (١٨٥ - ١٩١)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٨٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٩١].

•••••

قَالَ الْمَفْسَّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ ﴿١٨٦﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْدُوفٌ، أَيِ إِنَّهُ ﴿نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴿١٨٧﴾ بِسُكُونِ السَّيْنِ وَفَتْحِهَا ^(١): قِطْعًا ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ فِي رِسَالَتِكَ، ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِهِ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴿١٨٨﴾ هِيَ سَحَابَةٌ أَظْلَتَهُمْ بَعْدَ حَرٍّ شَدِيدٍ أَصَابَهُمْ فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ نَارًا فَاحْتَرَقُوا ﴿١٨٩﴾ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾.]

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ مثل جواب قوم صالح.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ مثلهم تمامًا، فالجواب واحد، و(إن)

مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي: إنه - أي: الشأن - ﴿نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾.

والدليل على أنها مخففة ليست نافية: أمران:

الأمر الأول: لفظي، وهو اللام؛ لأن اللام لا تقتَرِن إلا في خبر (إن) المخففة.

والأمر الثاني: المعنى: فلو قال قائل: إن (إن) نافية، قلنا: ليس كذلك؛ لأنهم لو قالوا: ما نَظُنُّكَ مِنَ الكاذِبِينَ، لكانوا مُصَدِّقِينَ به، والأمر ليس كذلك، بل هم يريدون: إننا نَظُنُّكَ مِنَ الكاذِبِينَ، وهذا الظنُّ حَسَبَ اعتقادهم إن كانوا جاهلِينَ بالأمر، أو حسب عِنَادِهِمْ إن كانوا عالِمِينَ وكاتمِينَ، مثل قول فرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: ٣٧]، وهو يعلم أنه صادق.

قوله: [﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ بسكون السين وفتحها: قِطْعًا: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ إن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿في رسالتك﴾، أعوذ بالله! هؤلاء أخبث من قوم صالح؛ لأن أولئك قالوا: ﴿فَأَتَتْ بِشَائِلَةٍ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، لكن هؤلاء قالوا: إن كنت صادقًا بما تُوعِدُنَا به فَأَتِ بالعذاب: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، كقول قريش للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وهذا من سَفَاهَتِهِمْ، وكان الواجب أن يقولوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ، فاهدنا إليه ووفِّقنا.

وما فعله أصحاب الأيكة في تكذيبهم لِشُعَيْبٍ هو ما فعله غيرهم من أقوام الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وهذا التشابه تشابه في القلوب والأفعال.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ إن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿(إن) شرطية، والغرض منها التحدي.

قال المفسر رحمه الله: ﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم به، [يعني: أنتم فعلتم كل قبيح، وقابلتموني بكل إثم صريح، ولكن الذي يعلم ذلك هو الله، وهو يهددكم بلازم العلم. ولهذا قال المفسر: [فيجازيكم به].

قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ قال المفسر: [هي سحابة أظلتهم بعد حر شديد أصابهم، فأمطرت عليهم نارا، فاحترقوا، ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾]، فهم -والعياذ بالله- أضيوا بحر شديد عظيم جدا ما أطاقوه، فأنشأ الله السحابة تظللهم، فخرجوا من بلادهم عن بكره أبيهم إلى هذا الظل.

ولكن -والعياذ بالله- لَمَّا وَصَلُوا وَإِذَا هِيَ نَارٌ -والعياذ بالله- أَحْرَقَتْهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وهذا من أشد ما يكون -والعياذ بالله- من العذاب؛ لأنهم جاءوا هارين من عذاب، فوقعوا في أشد منه -والعياذ بالله- فكانوا حينما أقبلوا يظنون أنهم نَجَوْا من الحر بهذه الظلال، ولكنه -والعياذ بالله- صَارَ حَتْفَهُمْ: ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

ولهذا وصف الله عز وجل ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي: هذا العذاب ﴿ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فصدق الله.

وهذه القصص عبر في الحقيقة، يعتبر بها الإنسان من عدة نواح.

أولاً: يعلم بها صبر الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وجلدهم، وإخلاصهم لله، وأنهم لا يُبالون بما نالهم في ذات الله.

ثانياً: يُعتبر بها في التسلي بما أصاب الرسل؛ لأن الإنسان يتسلل بما أصاب غيره، بأن يصبر هو على الدعوة إلى الله، ولا يمل ولا يكمل؛ لأن العاقبة تكون

للسابرين والداعين إلى الله، فكلُّ العواقب التي رأيناها في القصصِ للرسلِ عليهم الصلاة والسلام.

ثالثاً: إن فيها عبرة تحذّر المخالفين للرسلِ، فإنَّ كلَّ المخالفين للرسلِ - كما رأيتم كلهم - عُوقبوا، وأخذهم العذاب.

رابعاً: بيان قدرة الله عزَّجَلَّ حيثُ ينزل العذاب، فينجو منه من ينجو، ويهلك به من هلك، وأن الله سبحانه وتعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ: ﴿وَسِجِّىَ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَارَاتِهِمْ لَا يَمْسُهُمُ السُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

خامساً: إن الإنسان يتعجب كيف يصل بنو آدم إلى هذا العتوِّ والعتادِ والاستكبارِ.

سادساً: إنك تقيس حاضرَكَ بغائبِكَ، فإنَّه يوجد الآن أمثال هؤلاء؛ لأن طبيعة البشر واحدة من آدم إلى اليوم، فيوجد من هؤلاء وإن اختلف الأسلوب، فالأسلوب قد يختلف، لكن المعنى واحد: العتوُّ والاستكبارُ.

فيوجد الآن من بني آدم من يقول: إنَّ الدينُ خرافة!

ويوجد من بني آدم من يقول: إنَّ اللهَ يجبُ أن يُوضَعَ في قفصِ الاتِّهامِ! لأنَّه لماذا يُشبع هذا، ويَجوعُ هذا؟! ولماذا يؤمَّن هذا ويخوَّف هذا! وهذا يصحَّ وهذا يمرض؟ والعياذ بالله.

فهذه الأشياءُ يجب أن تَعْتَبِرَ بها، وأنه ما سبقَ قبلَ زمانِكَ وُجِدَ مثله في زمانِكَ، والعِظَةُ من هذا كثيرة.

ولو أنَّ الإنسانَ كَتَبَ هذه العِبَرَ لكان أفضل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي

قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿ [يوسف: ١١١]؛ لأنك كلما استتجت عبرةً ازددت عقلاً؛ لأنَّ الله جعل العِبْرَ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، فكلَّمَا كَانَ اللَّبُّ أَقْوَى كَانَتِ الْعِبْرَةُ الَّتِي تَوْخَذُ مِنْ هَذَا أَكْثَرَ.

وفي سُورَةِ هُودٍ الْكَثِيرُ مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، وَذَكَرَ اللهُ فِي آخِرِهَا: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وَيُسْتَفَادُ مِنْ قِصَّةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: بَيَانُ مَا قَابَلَ الرَّسُلَ مِنْ صَبْرِهِمْ، وَجَلْدِهِمْ، وَتَحْمَلِهِمْ.
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: بِلَاغَةُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى كَأَنَّهُ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ، لَكِنْ لَا نَقْدِرُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ هُوَ أَخْطَبُ مِنْهُ.



الآيات (١٩٢ - ١٩٦)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِئِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَلِئِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٦].

•••••

قال المُفسِّر رحمه الله: [﴿وَلِئِنَّهُ﴾ أَيِ الْقُرْآنِ ﴿لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿جِبْرِيلُ﴾، ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿بَيْنَ وَفِي قِرَاءَةِ بِتَشْدِيدِ «نَزَلَ» وَنُصِبَ «الرُّوحُ» وَالْفَاعِلُ اللهُ^(١)، ﴿وَلِئِنَّهُ﴾ ذَكَرَ الْقُرْآنَ الْمُنزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿لَفِي زُبُرِ﴾ كُتِبَ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ كَالْتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿﴾].

قوله تعالى: ﴿وَلِئِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، الضميرُ في قوله: ﴿وَلِئِنَّهُ﴾ يعودُ إلى القرآن - كما قال المُفسِّر - وإن لم يسبق له ذكرٌ، لكن يعينه السياق، ومرجع الضمير - كما هو معروف - قد يكون مشهوراً وقد يكون معلوماً، والمذكور قد يتقدم وقد يتأخر، إلا أنه من القواعد المقررة أنه لا يعودُ الضميرُ على متأخر لفظاً ورتبةً، إلا في مسائل معينة.

قال: ﴿وَلِئِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ اللامُ للتوكيد، فيكونُ هذا الخبرُ مؤكِّداً بأداتين، وهما: (إن) و(اللام).

(١) حجة القراءات (ص: ٥٢١).

و(تَنْزِيلٍ) مصدر، لَكِنَّهُ بِمَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ، أَي: لَمْ نَزَلْ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَفْسَهُ لَيْسَ تَنْزِيلًا، بَلِ التَّنْزِيلُ فِعْلُ اللَّهِ، وَالْقُرْآنُ عِبَارَةٌ عَنْ شَيْءٍ مَنْزَلٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١].

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هَذِهِ الرَّبُوبِيَّةُ الْعَامَّةُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ مِنْ مُقْتَضَى رَبُوبِيَّتِهِ أَنَّ يَكُونُ مَنْزَلًا لِعِبَادِهِ هَذَا الْكِتَابَ الْمَفِيدَ لَهُمْ.

وَيُشِيرُ أَيْضًا إِلَى عُمُومِ شَرِيعَةِ هَذَا الْكِتَابِ، كَمَا عَمَّتْ رَبُوبِيَّةُ مَنْزِلِهِ، فَهُوَ أَيْضًا عَامٌّ فِي التَّشْرِيعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ هُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ وُصِفَ بِالرُّوحِ لِأَنَّهُ يَنْزِلُ بِمَا فِيهِ الْحَيَاةُ، وَهُوَ الْوَحْيُ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَوُصِفَ بِالْأَمَانَةِ لِأَنَّ الْمَقَامَ يَقْتَضِيهِ، وَأَمَانَةُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ عِدَّةِ أَوْجِهٍ بِالنِّسْبَةِ لِلْقُرْآنِ:

أَوَّلًا: أَمِينٌ بِحَيْثُ لَا يَنْزِلُ بِهِ إِلَّا عَلَى مَنْ أَمَرَ بِهِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُ الرَّافِضَةِ -قَبْحَهُمُ اللَّهُ-: إِنْ جِبْرِيلُ أَمَرَ أَنْ يَنْزَلَ بِالْقُرْآنِ عَلَى عَلِيٍّ، وَلَكِنَّهُ خَانَ فَنَزَلَ بِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ مَنَافِيًا لَوْصِفَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَمَانَةِ.

ثَانِيًا: مُقْتَضَى الْأَمَانَةِ أَنْ يَنْزَلَ بِهِ كَمَا سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ؛ لَا يَزِيدُ فِيهِ وَلَا يَنْقُصُ، وَلَا يُقَدِّمُ وَلَا يُؤَخِّرُ.

ثَالِثًا: أَنْ يَنْزَلَ بِهِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَمَرَ بِإِنْزَالِهِ فِيهِ، فَلَا يَتَأَخَّرُ إِذَا أَوْحَى إِلَيْهِ بِهِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ.

فَهَذِهِ الْأَوْصَافُ الثَّلَاثَةُ مِنْ مُقْتَضَى أَمَانَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ خَصَّ الْقَلْبَ؛ لِأَنَّهُ مَحَلُّ الْوَعْيِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى عِنَايَةِ اللَّهِ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِالْقُرْآنِ، وعلى كمالِ حِفْظِ الرَّسُولِ لَهُ ﷺ؛ لِأَنَّ مَا نَزَلَ عَلَى الْقَلْبِ يَثْبُتُ وَيَرَسُخُ، بِخِلَافِ مَا سَمِعْتَهُ الْأُذُنُ، فَإِنَّ الْأُذُنَ قَدْ تُوصِلُ إِلَى الْقَلْبِ وَقَدْ لَا تُوصِلُ، فَقَدْ يَكُونُ قَلْبُهُ غَافِلًا، وَلَكِنْ هُنَا كَانَ عَلَى الْقَلْبِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ اللامُ هُنَا لِلتَّعْلِيلِ وَلِلعَاقِبَةِ مَعًا، فَهِيَ مُتَلَازِمَانِ، فَإِذَا قُلْنَا: لِلتَّعْلِيلِ، صَارَ مَكْلَفًا بِذَلِكَ، وَإِذَا كَانَتْ فِي العَاقِبَةِ كَانَتْ عَاقِبَتُهُ أَنْ يَكُونَ مُنذِرًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَكْلِيفٌ، وَلَكِنْ الصَّحِيحُ أَنَّهَا شَامِلَةٌ لِلأَمْرَيْنِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَي: الرَّسُلُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَلِسَانٍ﴾ بِلِغَةٍ، وَأَطْلَقَ اللِّسَانَ عَلَى اللُّغَةِ؛ لِأَنَّهُ مَحَلُّ الكَلَامِ الَّذِي هُوَ عِنْوَانُ اللُّغَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَرَبِيٍّ﴾ نِسْبَةً إِلَى العَرَبِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عَرَبِيًّا، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ لِغَةِ جَمِيعِ الخَلْقِ؛ لِأَنَّ الشَّرْعَ الَّذِي نَزَلَ بِهَا شَرْعُ جَمِيعِ الخَلْقِ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ لِغَةِ جَمِيعِ الخَلْقِ، خِلَافًا لِمَنْ يَرِيدُونَ أَنْ يُذَيَّبُوهَا فِي عَصْرِنَا الحَاضِرِ، بِأَنْ يَطَالِبُوا بِجَعْلِ اللُّغَةِ العَامِيَّةِ مَكَانَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فِي المَكَاتِبِ وَالمَراسِلَاتِ وَغَيْرِهِمَا!

وَأَقْبَحُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ يَحَاوِلُونَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِاللُّغَةِ الأَعْجَمِيَّةِ، كَمَا يَوْجَدُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ الَّذِينَ يَفْخَرُونَ بِلِغَةِ الإنْجِلِيزِ وَغَيْرِهِمْ، فَتَجِدُهُمْ يَتَشَدَّقُونَ بِالكَلَامِ بِهَا.

ثُمَّ إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ متعلق بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ﴾.

وقوله: ﴿مُبِينٍ﴾ بين، وفي قراءة بالتشديد: (نزل)، بتشديد (نزل)، ونصب (الروح)، فالفاعل الله: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينِ).

وفي اختلاف القراءتين فائدة، وهي أن الذي أمره بالنزول هو الله فنزل، فيكون جمعت بين فعل جبريل الصادر عن أمر الله، وبين الدلالة على أمر الله له بذلك: (نزل به).

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُ﴾ ذَكَرَ الْقُرْآنَ الْمُنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿لَفِي زُبُرٍ﴾ كُتِبَ ﴿الْأُولَى﴾ كَالْتَوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ]، الْمُفَسِّرُ جَعَلَ الضَّمِيرَ يَعُودُ عَلَى الْقُرْآنِ، يَعْنِي: إِنَّ ذَكَرَ الْقُرْآنَ مَوْجُودٌ فِي ﴿زُبُرٍ الْأُولَى﴾ كُتِبَ، وَالْمُرَادُ وَصْفُ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَصَفَ صِفَاتِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِصِفَاتِهِ وَصِفَاتِ الْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ.

وقوله: ﴿لَفِي زُبُرٍ الْأُولَى﴾ ظاهر الآية الكريمة العموم، وأن كل الكتب السابقة ذكر فيها القرآن، وبشر إليه، ومنها: التوراة والإنجيل، فتكون الكاف هنا للتشبيه، وفي هذا دليل واضح على عناية الله تعالى بهذا القرآن، وتشريفه، وتعظيمه، حيث ذكر في كل كتاب سبق.

وفيه أيضًا دليل على أنه لو جاء هذا الكتاب لوجب على جميع من يعتنقون الكتب السابقة أن يؤمنوا به.



الآيات (١٩٧ - ٢٠٤)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٩٧﴾ أَوْلَٰرَ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧-٢٠٤].

• • •

قال المفسر رحمه الله [﴿أَوْلَٰرَ يَكُنْ لَهُمْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ ﴿آيَةٌ﴾ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴿أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّهُمْ يُخْبِرُونَ بِذَٰلِكَ، وَ(يَكُنْ) بِالتَّحْتَانِيَّةِ وَنَضْبِ آيَةٍ، وَبِالْفَوْقَانِيَّةِ وَرَفْعِ آيَةٍ (١)، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ جَمَعَ أَعْجَمَ، ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ كُفَّارِ مَكَّةَ ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أَنْفَةً مِنْ اتِّبَاعِهِ، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيُّ مِثْلِ إِدْخَالِنَا التَّكْذِيبَ بِهِ بِقِرَاءَةِ الْأَعْجَمِيِّ ﴿سَلَكْنَاهُ﴾ أَدْخَلْنَا التَّكْذِيبَ بِهِ ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ كُفَّارِ مَكَّةَ بِقِرَاءَةِ النَّبِيِّ، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ لِيُؤْمِنَ فَيَقَال لَهُمْ لَا فَقَالُوا مَتَىٰ هَذَا الْعَذَابُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [١].

قَوْلُهُ: [﴿أَوْلَٰرَ يَكُنْ لَهُمْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ ﴿آيَةٌ﴾ عَلَىٰ ذَٰلِكَ]، يَعْنِي: عَلَامَةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ حَقٌّ ﴿أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

وقوله: ﴿آيَةٌ﴾ بالنصبِ خَبَرَ ﴿يَكُنْ﴾ مقدِّمًا، و﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ اسمها مؤخَّر، يَعْنِي: ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ أَي: عِلْمُهُ، مِنْ ﴿عَلِمْتُمْ أَبِي إِسْرَائِيلَ﴾، فبنو إسرائيل هم بنو يَعْقُوبَ بنِ إِسْحَاقَ، الَّذِينَ تَفَرَّعُوا مِنْهُ، وَهَذَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى أَنَّهُ مَذْكُورٌ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ وَأَنَّ عُلَمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَعْلَمُونَهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَذْكُورًا فِي كُتُبِهِمْ، مَا عِلِمُوهُ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُونَهُ لِأَنَّهُ مَذْكُورٌ فِي كُتُبِهِمْ.

وفي هذه الآية دليل على أن المرجع في مثل هذه الأمور إلى العلماء أهل العلم.

وقول المفسر رحمه الله: [كعبد الله بن سلام وأصحابه ممن آمنوا؛ فإنهم يُخبرون بذلك]، هذا ليس بلازم؛ لأن كونهم يعلمون به فهم عالمون سواء أخبروا أو لم يُخبروا، ولذلك القرآن ما قال: (أولم يكن لهم آية أن يُخبر به) بل قال: ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ ومجرد علم هؤلاء به هو آية وإن لم يُخبروا به.

ونقول: إن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَمَنْ آمَنَ، هم من علماء بني إسرائيل، فعلموا وأخبروا، وغيرهم من العلماء الذين لم يؤمنوا علموا ولكنهم لم يُخبروا.

وقول المفسر رحمه الله: [وبالفوقانية ورفع (آية)]، وعليه يكون: ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ خبر (تكن)، و(كان) في القراءتين ناقصة.

قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ هذا اللسان العربي، سواء بلسان العرب أو بغيره: ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ ما آمنوا به، فالمعنى أنهم لم يؤمنوا سواء جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ وهو من صميم العرب، ويعرفونه، أو جاء من رجل أعجمي؛ ذلك لأنهم معاندون، والمعاند -والعياذ بالله- لو جيء بكل آية ما آمن؛ لأنه فرق بين الإنسان الذي يتحرى الحق، والإنسان الذي يُعاند الحق.

فالمعاندُ المُكابِرُ يَصْعُبُ عليه أن يَرِجِعَ إلى الحقِّ، والمعنى أنه لو نَزَلَ اللهُ هذا القرآنَ على بعضِ الأعجميينَ إن كان بلغتهم؛ فإنهم لن يؤمنوا به؛ لأنهم لم يفهموه، وهو بلغة العجم، وإن كان باللُّغة العربية ما آمنوا أيضًا؛ أنفةً من أن يتبعوا رجلاً أعجمياً.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [كَذَلِكَ] أي: مثل إدخالنا التَّكْذِيبَ به بِقِرَاءَةِ الأعجميِّ، ﴿سَلَكْنَهُ﴾ أَدْخَلْنَا التَّكْذِيبَ بِهِ ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ كُفَّارِ مَكَّةَ لِقِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. [كَذَلِكَ] أي: مثل ذلك الإسلاك أو السَّلَكِ، والمراد بالسلك: الإدخال، و(كذلك) مفعول مُطلق لـ ﴿سَلَكْنَهُ﴾، يَعْنِي: مثل ذلك، وهي تأتي دائماً في القرآن: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ﴾، ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ﴾ وما أشبههما.

فيقولون: إنَّ الكافَ اسمٌ بِمَعْنَى (مثل)، وهي مضافةٌ إلى اسمِ الإشارةِ العائدِ على المصدرِ المفهومِ مِنَ الفعلِ.

وعليه فيكون إعراب الكاف: اسم بِمَعْنَى (مثل)، مفعولاً مُطلقاً، عاملها الفعلُ الَّذِي بعدها. يَعْنِي: إن الله جَلَّ وَعَلَا أَدْخَلَ التَّكْذِيبَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ، والمرادُ بالمجرمينَ ما هو أعمُّ من كفارِ مَكَّةَ، خِلافًا لِمَا قَالَ المُفسِّرُ، فالمجرمُ كافرٌ، سواء كان من أهلِ مَكَّةَ أو من غيرها.

ولما دخلَ التَّكْذِيبُ فِي قُلُوبِهِم والاستكبارُ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إلى آخره. وليس في هذه الآية حُجَّةٌ لأهل الكُفْرِ والمعصية، الَّذِينَ قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنْ سَبَّ كُفْرَهُمْ وَشُرْكِهِمْ هُوَ أَتَمُّ كَانُوا لَا يَرِيدُونَ الْحَقَّ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ، ولو كانوا يُرِيدُونَ الْحَقَّ لَشَرَحَ اللهُ صُدُورَهُمْ لَهُ، لَكِنَّهُمْ عِنْدَهُمْ -والعياذُ بالله-

أَنفَةً وَكِبْرِيَاءً وَغَطْرَسَةً، فلذلك حُرِّمُوا مِنَ الْوَصُولِ إِلَى الصَّوَابِ.

قَوْلُهُ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، وإذا قلنا: إن ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ عامٌّ فَإِنَّ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بما نزل من عند الله.

وقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى يَرَوْا﴾ للغاية، والمعنى: إنهم إذا رأوا العذاب الأليم فقد يؤمنون، ولكن يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، وقَوْلُهُ: ﴿فِي آتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا هو الغالب على المكذِّبين المعاندين أن الله يُملي لهم فيوغل -والعياذُ بالله- في الكُفْرِ وفي الفِسْقِ وفي المَعْصِيَةِ، حتى إذا جاءهمُ العذاب أتاهم بَغْتَةً على غِرَّةٍ، كما قال الرَّسُولُ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»^(١)؛ لأنَّ هُوَ لاءٍ لو أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أذَاقَهُمُ الْبَأْسَ شَيْئًا فَشَيْئًا لِرَبِّبَا آمَنُوا وَرَجَعُوا، ولكنَّه -والعياذُ بالله- يُمهِّلُهُمْ، حتى إذا وَصَلُوا إِلَى قِمَّةِ الكُفْرِ وَالفِسْقِ أُخِذُوا.

وهذا شيءٌ مُشَاهِدٌ حتى في عصرنا الحاضر، فنرى بعضَ البلادِ لَمَّا أوغلت في الكُفْرِ وَوَصَلَتْ إِلَى غَايَتِهِ أُخِذَتْ وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ.

قال: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ قال المُفسِّر: [لِنُؤْمِنَ؟ فيقال لهم: لا، قالوا: متى هذا العذاب؟ قال الله تعالى: ﴿أَفِعْدَابًا يَسْتَعْجِلُونَ﴾]، يَعْنِي أَنَّهُ إِذَا أَتَاهُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً يَقُولُونَ: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ؟﴾ وهذا الاستِفهَامُ لِلتَّمَنِّي، أي: لَيْتَنَا نُنْظَرُ، هذا هو الظاهرُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُكَ إِذَا أَخَذَ الثَّرَى وَهِيَ ظَلِيمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢]، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

والمفسر حمّله على ظاهره؛ على أنه الاستفهام الاستخباري، ولهذا قال: [فيقال لهم: لا]، يعني: لن تُنظروا، ولكن إذا جعلناه للتمني -أثمهم يتمنون أن يُنظروا- لَمَا احتاج إلى جوابٍ.

قال الله تعالى: ﴿أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ الهمزة في مثل هذا التركيب إما أنها داخلة على جملة مقدّرة بحسب السّياق، أو أنها داخلة على الجملة الموجودة.

وقوله تعالى: ﴿أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا من باب التّويخ والإنكار عليهم، يعني: أَيْسْتَعْجِلُونَ بعذابِ الله وهو سُبحَانَهُ وَتَعَالَى قَرِيبُ الأخذِ، فهو يُنكِر عليهم هؤلاء الذين يَسْتَعْجِلُونَ بعذابِ الله.

وكيفية استعجالهم بالعذاب، هل هو بالفعل أم بالقول؟

نقول: بالقول وبالفعل، أمّا القول فإنهم يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، وأمّا الفعل فإنّ إيغالهم بالكفر والمعاصي موجبٌ بأنّ يُعاجلوا بالعقوبة، فصار هذا الإنكارُ عليهم، سواء كانوا يَسْتَعْجِلُونَ قولاً -كما قال المفسر، قالوا: متى هذا العذاب؟- أو كانوا يَسْتَعْجِلُونَ فعلاً، بأنّ يُوغلوا وَيَتَعَمَّقُوا في الكفر والمعاصي؛ فإن ذلك من استعجال عقوبة الله.



الآيات (٢٠٥ - ٢٠٧)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

•••••

قال المفسر رحمه الله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ أَخْبِرْنِي ﴿ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿ مِنْ الْعَذَابِ ﴾ ﴿ مَا ﴾ استفهامية بمعنى أي شيء ﴿ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴾ فِي دَفْعِ الْعَذَابِ أَوْ تَخْفِيفِهِ، أَي لَمْ يُغْنِ.

قال المفسر: ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ أَخْبِرْنِي، والخطاب ليس للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بَلْ لِكُلِّ مَنْ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الْخِطَابُ.

قال: ﴿ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿ قَالَ الْمَفْسَّرُ: [مَنْ الْعَذَابِ، ﴿ مَا ﴾ استفهامية بمعنى أي شيء ﴿ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴾ فِي دَفْعِ الْعَذَابِ أَوْ تَخْفِيفِهِ، أَي لَمْ يُغْنِ]، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَخْبِرْنِي أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ إِنْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ سِنِينَ وَأَمَهَلْنَاهُمْ وَلَمْ نُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ حَتَّىٰ بَلَغُوا غَايَةَ الْمَتْعَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَاذَا يَنْفَعُهُمْ هَذَا التَّمْتِيعُ؟ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا حَسْرَةً وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَإِلَّا زِيَادَةً فِي الْعُقُوبَةِ فِي النَّارِ؛ لِأَنَّهُ كَلَّمَا كَثُرَتْ الْمَعَاصِي فِي الْإِنْسَانِ أَزَادَ عُقُوبَةً.

وهذا مثلٌ في الْحَقِيقَةِ يُطَبَّقُ عَلَى كُلِّ مَنْ قَالَ لَنَا: إِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَرَةُ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ

عليهم وفتح عليهم الدنيا، فالأمطار تأتيهم كل وقت، والأرض مخصّبة، فنقول له: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنَّمَتَّعْتَهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾!

ونقول: إن هذا أشد في وقع العذاب في قلوبهم؛ لأن الإنسان الذي يُنعم في رَعْدٍ مِنَ الْعَيْشِ بَهَاءٍ وَطُمَأْنِينَةٍ إِذَا أُخِذَ فَهُوَ أَشَدَّ مِنَ الَّذِي يُؤْخَذُ عَلَىٰ بَأْسِهِ، بل الذي في البأساء والضراء قد يرى أن الموت أريح له، أمّا المأخوذ -والعياذ بالله- على شدة النعمة وقوتها فهو أشد.

وقد ذكر عن ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ وهو قاضي القضاة في مصر، أنه كان يمشي بموكبه، وعلى يمينه ويساره النَّاسُ وَالْحَدَمُ، فمرَّ بِرَجُلٍ زَيْتٍ يَهُودِيٍّ كَلَهُ وَسَخَّ مِنَ الزَّيْتِ، فأوقفه الْيَهُودِيَّ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ نَبِيَّكُمْ يَقُولُ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(١)، وَأَنْتَ مُؤْمِنٌ وَأَنْتَ فِي هَذَا النَّعِيمِ، وَأَنَا يَهُودِيٌّ وَأَخِيَا فِيهَا تَرَى مِنَ الْفَقْرِ وَالْعَذَابِ! فَقَالَ لَهُ ابْنُ حَجَرَ: نَعَمْ صَحِيحٌ، لَكِنْ مَا مُتَّعْتُ بِهِ مِنَ النَّعْمَةِ هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ نَعِيمِ الْآخِرَةِ سِجْنٌ، وَمَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْبَأْسَاءِ هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ عَذَابِ الْآخِرَةِ نَعِيمٌ وَجَنَّةٌ^(٢).

فالحاصل: أن هؤلاء إذا مُتَّعُوا طَوِيلًا فِي الدُّنْيَا وَنَعِيمَهَا ثُمَّ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ فَإِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ هَذَا الْمَتَاعُ شَيْئًا.

وقوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ لك أن تقول: إن (ما) هنا نافية، ولك أن تقول: إنها استفهامية بمعنى النفي، والأبلغ أن تكون استفهامية بمعنى النفي؛ لأن الاستفهام

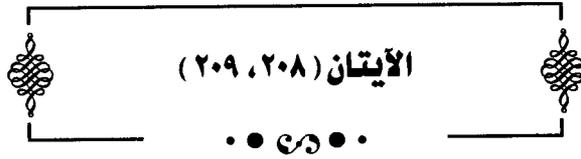
(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرفائق، رقم (٢٩٥٦).

(٢) فيض القدير (٣/٥٤٦).

الَّذِي بِمَعْنَى النِّفْيِ يَتَّصِمَنَّ النِّفْيَ وَزِيَادَةً؛ إِذْ إِنَّهُ مُشْرَبٌ بِمَعْنَى التَّحْدِي.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ﴾ * يَعْنِي: يَتَّحِدَاهُمْ أَنْ يُغْنِيَ عَنْهُمْ شَيْئًا، فَإِذَا كَانَتْ (مَا) صَالِحَةً لِلنِّفْيِ وَالِاسْتِفْهَامِ، حُمِلَتْ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ أَوْلَىٰ وَأَبْلَغُ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ مَعَ النِّفْيِ عَلَى زِيَادَةِ الْمَعْنَى وَالتَّحْدِي.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿ ٢٠٨ ﴾ ذِكْرِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩].

• • ❦ • •

قال المفسر رحمه الله: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ رُسل تُنذِرُ أَهْلَهَا، ﴿ ذِكْرِي ﴾ عِظَةٌ لَهُمْ ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فِي إِهْلَاكِهِمْ بَعْدَ إِنْذَارِهِمْ، وَنَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ].

قوله: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ قال المفسر رحمه الله: [رسل تنذر أهلها]، وقوله: ﴿ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ صفة لـ ﴿ قَرَبَةٍ ﴾، يعني: ما أهلكتناها إلا في هذا الحال، يعني: ﴿ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾.

وهل المراد أن الله تعالى يُنذِر على السنة رسوله؟ يعني: إلا ونحن لها مُنْذِرُونَ؟ أو أن: ﴿ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ يعني: رسل تُنذِر؟

يقول المفسر: ﴿ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ يعني: رسل تُنذِر. يعني: إلا ولها رسل تُنذِرها، ولكنها من قبل الله سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿ ذِكْرِي ﴾ قال المفسر: [عِظَةٌ لَهُمْ]، يعني: إننا نرسل هؤلاء المنذرين لأجل الذكري، يعني: الموعظة لهؤلاء.

قال المُفَسِّرُ: [﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في إهلاكهم بعد إنذارهم]، وهذا صَحِيحٌ، ويَحْتَمِلُ: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: مُهْلِكِينَ بدون إنذارٍ، والمعنى صَحِيحٌ على هذا الوجه وعلى الوجه الَّذِي ذَكَرَهُ المُفَسِّرُ؛ فاللهُ تَعَالَى إذا أَهْلَكَهم بعدَ إنذارهم وقد عَصَوْا، فهو لم يَظْلِمِهمُ، وكذلك لا يَمَكِنُ أَنْ يَهْلِكَ مَنْ لا يُنذَرُ؛ لأن ذلك ظُلْمٌ.

فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: أن الشرائع لا تُلْزَمُ إلا بعد العِلْمِ، وأنه ما دام الإنسان غير عالم بالشرع؛ فَإِنَّهُ لا يُكَلَّفُ به، ولهذا شواهد:

منها: قِصَّةُ المُسَيِّءِ فِي صَلَاتِهِ؛ فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لم يُلْزِمَهُ بِقَضَاءِ مَا فَاتَهُ^(١)؛ لأنه ما عِلِمَ.

ومنها: المرأةُ الَّتِي كَانَتْ تُسْتَحَاضُ فلا تُصَلِّي، فما أمرها النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقضاء^(٢).

ومنها: حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، حَيْثُ أَكَلَ بَعْدَ طُلُوعِ الفَجْرِ^(٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، رقم (٧٩٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب من قال إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة، رقم (٢٨٧)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب في المستحاضة أنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد، رقم (١٢٨)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في المستحاضة التي قد عدت أيام أقرائها، قبل أن يستمر بها الدم، رقم (٦٢٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، رقم (٤٥٠٩)، ومسلم: كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، وأن له الأكل وغيره حتى يطلع الفجر، وبيان صفة الفجر الذي تتعلق به الأحكام من الدخول في الصوم، ودخول وقت صلاة الصبح وغير ذلك، رقم (١٠٩٠).

إلى غير ذلك أشياء كثيرة من هذا، إلا أنه قد يُلزم الإنسان بالشيء إذا كان مُفَرِّطاً مُهْمَلًا، مثل لو انقَدَحَ في ذهنه أو قيل له: إن هذا الشيء واجبٌ، ولكنه قال - كما يقول العامة -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَشْكُلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْوِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، لا تُتَشَّشْ، غَدًّا يقول لك: هذا واجبٌ ويُحْرِجُونِي، أو هو يفعل شيئًا وانقَدَحَ في ذهنه أنه حرام، أو قيل له: إنه حرام، وقال: لا، أخافُ إن سألتُ العلماء أن يقولوا: هذا حرامٌ، فهذا لا يُعَدَّر؛ لأنه ليس بغافلٍ، واللهُ تعالى يقول: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]، يَعْنِي: ما طرأ على بالهم شيءٌ، ولا يَعْلَمُونَ شيئًا، وأما الإنسان الذي طرأ على باله لكنه فرطَ في تركِ السُّؤالِ، فهذا يَنْبَغِي أن يُلْزَمَ.

فإن قيل: بعض العوام صعبٌ أن يتغيروا، فهل نُعْطِيهِم العلم؟!!

قلنا: أعطيه العلمَ، قُلْ له مثلا: إذا قمتَ للصلاةِ فكبرِ، ثم اقرأ فاتحةَ القرآنِ، ثم ما تيسرَ من القرآنِ، وعلمه ما يلزمه، فكون الله يُنعم عليك بالعلمِ أشدَّ تبعَةً من المالِ، فالعلمُ أشدُّ تبعَةً؛ لأنه في الحقيقةِ نشرٌ للرِّسالةِ، وتبليغٌ لشرِعةِ اللهِ.

الفائدةُ الثانيةُ: في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إشارة إلى إمكان الظلمِ، ولكنه مُستحيلٌ شرعًا، لا لذاته؛ لأن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يعذبَ المطيعَ، وإن أطاعَ، فهذا ليس مُستحيلًا، ولكنه تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْزَهُ عَنْهُ لِكَمَالِ عَدْلِهِ.

وهذا فيه الردُّ على الجهميةِ، الذين يقولون: إن الله سبحانه وتعالى يستحيل في حقِّه الظلمَ، يستحيلٌ لذاته، ومُحالٌ لذاته.

وعلى رأيهم يصير لا معنى لقوله تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي

حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»^(١)، فلا يصير فيه مدحٌ لأنَّ الظُّلْمَ - على مُقتَضَى قولهم - مُحَالٌ لِدَاتِهِ، والمحالٌ لذاته لا يُمدحُ اللهُ به؛ إذ المُحالُ به غير واقع، ولا يكون لقوله تَعَالَى في الحديثِ القُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» معنًى.

فَالصَّوَابُ أَنَّ الظُّلْمَ من الأمور المُمكنة لكنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْزَهٌ عَنْهُ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

الآيات (٢١٠ - ٢١٢)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢].

•••••

قال المفسر رحمه الله: [﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي ﴾ يَصْلُح ﴿ لَهُمْ ﴾ أَنْ يَنْزِلُوا بِهِ ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ذَلِكَ، ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ ﴾ لِكَلَامِ الْمَلَائِكَةِ ﴿ لَمَعزُولُونَ ﴾ بِالشُّهْبِ].

قد يكون ما قاله المفسر حقاً من أن هذا ردُّ لقول المشركين، وقد يكون هذا من تكميلِ قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣]، فقال: ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ ﴾ أي: [بِالْقُرْآنِ ﴿ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي ﴾ يَصْلُح ﴿ لَهُمْ ﴾ أَنْ يَنْزِلُوا بِهِ، ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ذلك]، أي أن الشياطين ما تنزلت بالقرآن، بخلاف أقوال الكهَّان، فإن الشياطين تنزلت بها، أمَّا القرآنُ فما تنزلت به الشياطين.

ثم قال: ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ﴾ يَعْنِي مَا يَلِيقُ أَبَدًا أَنْ يَنْزِلُوا بِهِ، ثم قال: ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾، وهذا تدرُّج، يَعْنِي مَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْزِلُوا بِالْقُرْآنِ. فهو أوَّلاً قال: إِنَّهُمْ مَا نَزَلُوا، وكونهم ما نزلوا ما يدلُّ على أن هذا غير لائق بهم، ثم إنه غير مُمكنٍ في حقِّهم. فهذا فيه ترتيب:

أولاً: ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ ﴾ نَفِيٌّ لِتَنْزُلِهِمْ بِهِ، لَكِنْ لَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ مُمَكِّنًا فِي حَقِّهِمْ،

ولا أن يكون لائقًا في حقهم.

ثانيًا: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ فهذا يعني أنه غير لائق أن ينزلوا به.

ثم ارتقى إلى ما هو أعظم فقال: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن ينزلوا به؛ لأنهم عن السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ، مَعَزُولُونَ قَدْرًا وَشَرًّا.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ فيه دليل على أن القرآن تفر منه الشياطين، وأنه لا يمكن أن تقر به، وقد أخبر النبي ﷺ في بعض الآيات أنها تطرد الشياطين؛ كما في البقرة^(١) وفي آية الكرسي^(٢) وما أشبه ذلك.

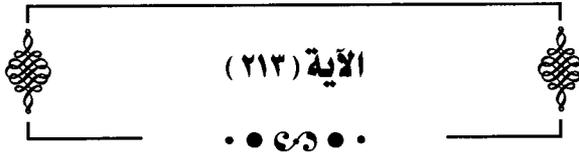
قال المفسر رحمه الله: [﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ لِكَلَامِ الْمَلَائِكَةِ ﴿لَمَعَزُولُونَ﴾ بالشَّهْبِ]، على قول المفسر يكون المراد هنا بالسَّمْعِ سَمَاعِ الْمَلَائِكَةِ بِالْوَحْيِ.

وهم مَعَزُولُونَ عنه، لا يُمكن أن يَقْرَبُوا منه، قال المفسر: [بالشَّهْبِ]، يعني هذه الشهب التي ترميهم تطردهم عن استراق السمع، فلا يستطيعون أن يسترقوا السَّمْعَ، ولا أن يأتوا به، ربما يُدرك الكلمة أحيانًا قبل أن يُدركه الشَّهَابُ فتنة من الله عزَّ وجلَّ فيأخذ الكلمة ويضيف إليها عشرات أو مئات الكلمات من عنده، فإذا وافق واحدٌ بالمائة صدَّقه النَّاسُ في التسع والتسعين.

وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان كلُّها انقاد للشيطان ابتعد عن فهم القرآن، ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾؛ لأنهم شياطين، فمن كان شيطانًا -والشيطان من بني آدم هو الذي يتلقى ما تأمره الشياطين به- فإنه يُعزَلُ أيضًا عن فهم القرآن.

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد، رقم (٧٨٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، رقم (٥٠١٠).



❁ قال الله عزَّوجلَّ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾

[الشعراء: ٢١٣].

•••••

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ الَّذِي دَعَوَكَ إِلَيْهِ].

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الْخِطَابُ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ النَّهْيِ عَنْهُ إِمْكَانٌ وَقُوْعُهُ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالثَّبَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشَّرْكِ وَهُوَ لَمْ يَقَعْ مِنْهُمْ.

وَالدُّعَاءُ هُنَا يَشْمَلُ دَعَاءَ الْمَسْأَلَةِ وَدَعَاءَ الْعِبَادَةِ.

دَعَاءُ الْمَسْأَلَةِ: مِثْلُ مَا يَقُولُ لِغَيْرِ اللَّهِ: يَا فُلَانٌ أَعْطِنِي، يَا فُلَانُ ارْزُقْنِي، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، شَخْصٌ وَقَفَ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ارْزُقْنِي، يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَيِّئْ لِي زَوْجَةً، يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْطِنِي وَلَدًا، فَهَذَا شِرْكٌ أَكْبَرُ مُخْرَجٌ عَنِ الْمِلَّةِ.

دَعَاءُ الْعِبَادَةِ: أَنْ يَقِفَ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيَعْبُدُ النَّبِيَّ، وَيَرْكَعُ لَهُ وَيَسْجُدُ لَهُ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا.

وَالنَّهْيُ عَنِ الدُّعَاءِ مَعَ اللَّهِ إِلَى آخَرَ شَامِلٌ لِلنُّوعَيْنِ.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ الفاءُ للسببية، ﴿فَتَكُونُ﴾ أي: إن دعوتَ
 مع الله إلهًا آخرَ ﴿مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾، ولم يُقَلْ: مُعَذِّبًا، أو: سَتُعَذَّبُ؛ إشارةً إلى أنَّ
 المشركينَ الكفارَ كثيرينَ، والذي يدعو مع الله إلهًا آخرَ يكون منهم.



الآيات (٢١٤ - ٢١٦)

• • ❦ • •

❦ قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢١٦].

• • ❦ • •

قال المفسر رحمه الله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ، وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ جِهَارًا، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١) وَمُسْلِمٌ^(٢)، ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أَلِنْ جَانِبَكَ ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الْمُؤَحِّدِينَ، ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ عَشِيرَتَكَ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وهم جماعات من بني المطلب، قال المفسر رحمه الله: [وقد أنذرهم جهارًا، رواه البخاري ومسلم]، وهذا في أول الدعوة، أمر أن يُنذِرَ عشيرته الأقربين؛ لأنهم أحق الناس بربه، ولأنهم بمقتضى القرابة، لا بمقتضى الواقع، أقرب الناس إلى الإيمان به، ولأنهم أيضًا بمقتضى القرابة هم أشد الناس غيرةً عليه، ولأنهم أيضًا بصلة القرابة هم أعظم الناس حقًا عليه.

فلذلك الإنسان مسؤول عن أهله أكثر مما هو مسؤول عن الأجانب، ومسؤول عن القربى أكثر مما هو مسؤول عن من ليس بينه وبينه قرابة.

(١) كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٤٧٧).

(٢) كتاب الإيمان، باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٢٠٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿الْأَقْرَبِينَ﴾ اسمُ تفضيلٍ، فيقتضي أنه ما دام أن الحُكْمَ مُعَلَّقٌ بالأقرب، أنه كلما كان أقرب كان أولى وأحقَّ.

وقول المُفسِّر: [هم بنو هاشم وبنو المطلب]، هذا ليس بصحيح؛ إذ ليسوا كلَّهم من الأقرب، على أن منهم من هو من الأقرب بلا شك، ومنهم من أجاب ومنهم من لم يُجِبْ، وقد امتنع عن الإجابة عمُّه أبو هَبٍ، وهو من أقرب النَّاسِ إليه؛ لأن «عمَّ الرَّجُلِ صِنُو أَبِيهِ»^(١)، وامتنع عن الإجابة عمُّه أبو طالب أيضًا، وهو صِنُو أَبِيهِ، لكنَّ عمَّه أبا طالبٍ وَالآهُ وَنَاصِرُهُ، وعمه أبو هَبٍ عاداه وخَذَلُهُ، والعياذ بالله. وقد صار أَمَامَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

١- قِسْمٌ آمَنَ بِهِ.

٢- وقسم نصره ولم يؤمن به.

٣- وقسم لم يؤمن به ولم ينصره.

وهذا من حكمة الله عزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ نَاصَرُوهُ كُلَّهُمْ وَآمَنُوا بِهِ، لَقِيلَ: هذا رجلٌ يريدُ المُلْكَ والسِّيَادَةَ، ولهذا تَبِعَهُ أَقْرَبُهُ، وهم متفقون على هذه الخطة، ولكن من حكمة الله أن الله تعالى قدَّمهم هذا التقديم.

وفي هذا دليلٌ على أنه يجب على الإنسان أن يُرْشِدَ وَيَعْظَ الأَقْرَبَ مِنْهُ فَالأَقْرَبَ، وهو مسئولٌ سُؤْلاً مَبَاشِراً بِالنَّسْبَةِ إِلَى أَهْلِهِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [الْإِنْ جَانِبَكَ، ﴿لَمَنِ أْبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين]، وَالْإِنْذَارُ لِلْعَشِيرَةِ، وَخَفِضَ الجَنَاحَ للمؤمن، سواء كان

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، رقم (٩٨٣).

من عشيرته أو ليس من عشيرته.

ففي هذا دليل على أنه يجب على الإنسان ألا يتعاضم على أحد، لكن بالأخص للمؤمن، وأن يُلين له جانبًا، لكن غير المؤمن لا يُلين له جانبًا.

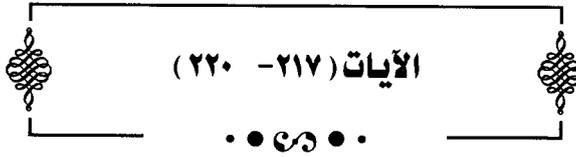
فإن قيل: كيف نقول: لا يُلين للكافر جانبًا، بينما يقول الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ [طه: ٤٤]؟

قلنا: الآية يُرادُ بها جانبُ الدَّعوة.

وقوله: ﴿لَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في هذا دليل على أن تحقيق الإيمان إنما يكون في اتباع الرسول ﷺ؛ لأنه لما قال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾، فهو إذا أُنذِرَ إِمَّا أَنْ يُتَّبَعَ وَإِمَّا أَلَّا يُتَّبَعَ.

قوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ قال المفسر: [عشيرتك]، والأصحُّ هم أو غيرهم، قال: [﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من عبادة غير الله]، ولم يقل: «بريء منكم»؛ لأنه لو قال: «منكم» لكان هذا أشدَّ صدمةً، ولاحتمل أن تكون هذه براءة شخصيةً، وأيضًا يحصل منهم النفور عن العمل، لكنه لما قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ عرفوا أن السبب في البراءة العمل، ولربما يكون ذلك سببًا لئِنْ يَرْتَدُّوا عنه، ولأجل أن ينالوا الولاء دون البراءة.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٢١٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٨﴾ الَّذِي يَرِنُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٩﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٢٢٠﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].



قال المفسر رحمه الله: [﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ بِالْوَاوِ وَالْفَاءِ^(١) ﴿ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ اللَّهُ، أَي: فَوْضَ إِلَيْهِ جَمِيعُ أُمُورِكَ، ﴿ الَّذِي يَرِنُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ إِلَى الصَّلَاةِ، ﴿ وَتَقْلُبُكَ ﴾ فِي أَرْكَانِ الصَّلَاةِ قَائِمًا وَقَاعِدًا، وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا، ﴿ فِي السَّجْدَيْنِ ﴾ الْمُصَلِّينَ، ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾].

قوله: [﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ بِالْوَاوِ وَالْفَاءِ]، وهذه من المسائل النادرة في القراءات؛ لأن الغالب في القراءة أن يكون الخِلاف في صفة الكلمة أو في الحرف، ليس في ذاته أو عينه، لكن هذا قد يأتي أحياناً في ذات الحرف، وأحياناً أيضاً بإسقاط الحرف من عدمه، في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلَيْكَ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١١٥-١١٦]، في قراءة بإسقاط الواو: (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ)^(٢)، وهذه من المسائل النادرة في القراءات، فالقراءة قد تكون في نوع الحرف، وفي وجود الحرف، وفي شكل الحرف، وأكثرها في شكل الحرف وهيئته؛ يَمَدُّ أَوْ لَا يَمَدُّ، يُفْتَحُ أَوْ يُضَمُّ.

(١) حجة القراءات (ص: ٥٢٢).

(٢) حجة القراءات (ص: ١١٠).

والتوكل: هو الاعتمادُ على الله مع الثقة به في جلبِ المنافعِ ودفعِ المضارِّ.
 قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ الله، أي: فَوْضُ إِلَيْهِ جَمِيعَ أُمُورِكَ، ولم
 يَقُلِ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: «على الله» بل قال: ﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾؛ لأنَّ المَقَامَ يَقْتَضِيهِ؛ يَقْتَضِي
 عِزَّةً فِي مَقَابِلِ الْمَكْذِبِينَ لَهُ، وَرَحْمَةً فِي مَقَابِلِ قِيَامِهِ بِوَأَجِبِ الْإِنذَارِ.

قال المُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى الصَّلَاةِ، بَعْضُهُمْ يَقُولُ:
 حِينَ تَقُومُ مِنْ مَنَامِكَ، وَلَكِنْ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُ أَعْمٌ، وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى:
 حِينَ تَقُومُ فِي سُؤْنِكَ مِنَ الْإِنذَارِ وَغَيْرِ الْإِنذَارِ، يَعْنِي: يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ مُنْذِرًا،
 وَيَرَاكَ حِينَ تَقُومُ مُصَلِّيًّا، وَيَرَاكَ حِينَ تَقُومُ صَائِمًا، وَحِينَ تَقُومُ حَاجًّا، وَفِي جَمِيعِ
 الْأَحْوَالِ، يَعْنِي: حِينَ تَقُومُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ.

وَيَرَاكَ أَيْضًا حِينَ تَقَلِّبُكَ ﴿فِي السَّجْدِينَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ: [المصليين]، أَي: فِي
 جُمَّلَتِهِمْ، وَهَذَا الْمَعْنَى الْأَخِيرُ أَعْمٌ مِنَ الْجَمِيعِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ تَقَصَّدَ الصَّلَاةَ؛ لِأَنَّهَا أَسْلُ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ.
 وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ جَمَلَةٌ اسْتِثْنَائِيَّةٌ؛ لِإِبْيَانِ أَنَّهُ مَعَ رُؤْيَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
 فَهُوَ أَيْضًا سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

إِذِنْ اجْتَمَعَتْ ثَلَاثُ صِفَاتٍ: الرُّؤْيَةُ، وَالسَّمْعُ، وَالْعِلْمُ.



قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿أَفَاكٍ﴾ كَذَّابٌ ﴿أَثِيرٍ﴾]، و﴿أَفَاكٍ﴾ هذه للنسبة والمبالغة أيضًا، أي: كثير الإفك، والإفك بمعنى الكذب، والأثيم بمعنى الآثم، أي: الجامع بين سوء القول وسوء العمل.

وقول المُفسِّر: [مثل مُسَيِّمَةٍ وغيره من الكهنة]، هذا تمثيل، أي مثل كذا.

قال المُفسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿يُلْقُونَ﴾ الشياطين، ﴿السَّمْعَ﴾ ما سمعوه من الملائكة إلى الكهنة، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾]، الضمير في ﴿يُلْقُونَ﴾ يعود على الشياطين، و﴿السَّمْعَ﴾ أي: المسموع، وهو مصدرٌ بمعنى اسم المفعول. يُلقونه على الكهنة، فيأخذون من السمع ما أخذوه، ولكنهم يزيدون إلى هذا كذباتٍ كثيرةً، ولهذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ قال المُفسِّر: [يضمُّون إلى المسموع كذبًا كثيرًا، وكان هذا قبل أن حُجِبَتِ الشياطين من السماء].

وكانت الشياطين قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام تستمع إلى شيء من السماء، ولكنها حين البعثة صاروا لا يستمعون؛ لقوله: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمَعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِدْ لَهُ، شَهَابًا رَصْدًا﴾ [الجن: ٩]، لا يستطيعون، فلو قعدوا مقاعدهم كما كانوا يقعدون أو لا يستمعوا اتتهم الشهب.

وهل هذا انقطع بانقطاع الوحي؛ لأن الحكم يدور مع علته، أم بقي؟

الظاهر - والله أعلم - انقطع بانقطاع الوحي؛ لأنه في ذلك الوقت مُنِعَتِ السماء من الشياطين، أما بعد ذلك فإنها لا تُمنع، ولكن قد تُمنع أحيانًا بما نرى من الكثير من الشهب.

الآيات (٢٢٤ - ٢٢٦)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿ ٢٢٤ ﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿ ٢٢٥ ﴾ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦].

•••••

قال المُفسِّر رَحْمَةُ اللَّهِ: [﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ فِي شِعْرِهِمْ فَيَقُولُونَ بِهِ وَيَرَوُونَهُ عَنْهُمْ فَهُمْ مَذْمُومُونَ، ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تَعَلَّمَ ﴿ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ ﴾ مِنْ أَوْدِيَةِ الْكَلَامِ وَفُنُونِهِ ﴿ يَهِيمُونَ ﴾ يَمْضُونَ فَيَجَاوِرُونَ الْحَدَّ مَدْحًا وَهَجَاءً، ﴿ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ ﴾ فَعَلْنَا ﴿ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ يَكْذِبُونَ].

قال الله تعالى: ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ مناسبة ذكر هذا أن كَفَّارَ قُرَيْشٍ عَارَضُوا النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّهُ كَاهِنٌ، وَعَارَضُوهُ بِأَنَّهُ شَاعِرٌ، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبِّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور: ٣٠]، فَنفى الله تَعَالَى أَنْ يَكُونَ كَاهِنًا بِمَا سَبَقَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ أَي: فِي شِعْرِهِمْ، فَيَقومُونَ بِهِ وَيَرَوُونَهُ عَنْهُمْ، فَهُمْ مَذْمُومُونَ، سِوَاءِ الشُّعْرَاءِ أَوْ الْغَوَاةِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ.

فإنَّه لا يَتَّبِعُ الشُّعْرَ غَالِبًا إِلَّا الْغَوَاةَ، فَهُوَ بَاطِلٌ، وَهَذَا الْقُرْآنُ لَيْسَ كَذَلِكَ، هَذَا الْقُرْآنُ لا يَتَّبِعُهُ إِلَّا أَهْلُ الرُّشْدِ وَالسَّدَادِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِالشُّعْرِ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الشُّعْرَ لَا يَتَّبِعُهُ إِلَّا الْغَاوُونَ.

والشُّعْرُ الْمَذْمُومُ هُنَا هُوَ الَّذِي لَمْ يُؤْخَذْ مِنَ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ؛ فَإِنْ أُخِذَ مِنْ

الكتاب والسنة فإنه يتبعه الراشد، مثل بعض القصائد التي نظمها أهل العلم والإيمان، فهذا لا يعتبر شعراً يتبعه الغاؤون.

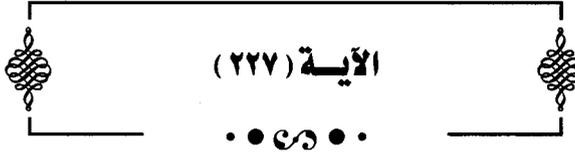
قال: [﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم، ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الكلام والفنون، ﴿يَهَيِّئُونَ﴾ يمضون فيجاوزون الحد مدحاً وهجاءً، هذا صحيح، فحال الشعراء: شاعرٌ يقول ما لا يستطيع أن يملك نفسه فيه؛ لأنه يبالغ في المدح، ويبالغ في الذم؛ لأنه -ياذن الله- كأنه يتكلم من غير شعور، وإن كان يوصف الشعر بأنه يأخذ في الشعور، لكن الشاعر يتكلم من غير شعور.

والمراد بالشعراء غير الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولهذا استثنى فيما بعد فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وقول المفسر: [﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ فعلنا ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يكذبون]، فيه نظر، لكن: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فيما إذا امتدحوا أو هجأوا، فيقولون: نحن نفعل كذا وكذا إذا كانوا يريدون أن يتقربوا إلى الشخص، ونحن نخدمك، ونحن نواسيك بأنفسنا، ونفديك بأهلنا، وما أشبه ذلك. لكنهم لا يفعلون هذا؛ لأنهم غواة، وغير راشدين.

كذلك أيضاً: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، فيقولون في هجاء عدوهم: نحن لا نخشاه، ونحن سننتقم أولادته، ونحن سنرمل نساءه، وما أشبه ذلك، وهم لا يفعلون ذلك.

فيمكن أن يصير الشاعر الذي يغير الأمة بشعره في الخلف، فلا يكون في المقدمة عند التقاء الصفيين.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا
وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].



قال المفسر رحمه الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الشعراء ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ لم يشغلهم الشعر عن الذكر ﴿وَأَنْصَرُوا﴾ بهجوهم الكفار ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ بهجو الكفار لهم في جملة المؤمنين فليسوا مذمومين، قال الله تعالى ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من الشعراء وَغَيْرِهِمْ ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ﴾ مرجع ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾ يرجعون بعد الموت].

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ هذه أربعة أوصاف: الإيثار، والعمل الصالح، وذكر الله كثيراً، وهذا يشير إلى أن الشاعر يقل ذكره لله، فما امتلأ قلبه من الشعر إلا بعد عنه ذكر الله.

قال ابن القيم^(١):

حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ الْحَانِ الْغِنَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

(١) نونية ابن القيم الكافية الشافية، فصل في سماع أهل الجنة، ص ٣٢٦، ط. مكتبة ابن تيمية.

والصِّفَةِ الرَّابِعَةِ: ﴿وَأَنْصَرُوا﴾ يَعْنِي: لِأَنْفُسِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ
الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، ﴿مَنْ بَعْدَ مَا ظَلَمُوا﴾ إِمَّا بِهِجَاءِ الْكُفَّارِ لَهُمْ إِذَا كَانَ
شَاعِرًا مُقَابِلَ شَاعِرٍ، أَوْ بِاعْتِدَاءِ الْكُفَّارِ عَلَيْهِمْ أَيْضًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مِنْ الشُّعْرَاءِ وَغَيْرِهِمْ، ﴿أَيَّ
مُنْقَلَبٍ﴾ مَرْجِعٍ، ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾ يَرْجِعُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ]. وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ فِيهَا مِنَ التَّهْدِيدِ
مَا لَا يَخْفَى، يَعْنِي أَنْ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ سَيَعْلَمُونَ عَنْ قُرْبٍ ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ﴾ يَكُونُ
انْقِلَابِهِمْ، وَهُوَ الْمَرْجِعُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ بَيْنَ الظَّالِمِينَ.

وَالظُّلْمُ مَرْتَعٌ مُبْتَغِيهِ وَخِيمٌ، فَالظُّلْمُ مِنْ أَقْرَبِ مَا يَكُونُ فِي مَعَاجِلَةِ الْعُقُوبَةِ،
لَا سِيَّيَا إِنْ دَعَا الْمَظْلُومُ عَلَى ظَالِمِهِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ يَكُونُ إِلَيْهِ سَرِيعًا.

ثم إنَّ الظُّلْمَ نَوْعَانِ:

أحدهما: ظَلَمَ مُتَعَدِّ لِلْغَيْرِ.

الثَّانِي: ظَلَمَ لِلنَّفْسِ.

فَإِنْ كَانَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ فَهُوَ ظَلَمٌ لِلنَّفْسِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ الْاِعْتِدَاءُ عَلَى الْغَيْرِ،
فَهُوَ ظَلَمٌ لِلْغَيْرِ، كَمَا لَوْ أَخَذَ مَالَهُ أَوْ أَفْسَدَ عَلَيْهِ شَأْنَهُ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنَ الظُّلْمِ الْمُتَعَدِّي،
وَاللهُ أَعْلَمُ.



فهرس الأحاديث والآثار

الحديث



الصفحة

- ٧..... «اقْرءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ؛ البَقْرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ»
- إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوَى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْتَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ،
- ٢١..... فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ»
- ١٢٦، ٣٣..... «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»
- ٣٨..... «إِنَّكَ سَتَاتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ»
- ١٠٦..... «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ»
- «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا
- ٢٣٤، ١١٤..... وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ»
- «لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مَدَّ
- ١١٦..... أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»
- ١٨٣، ١٢٨..... «أُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»
- ١٦٣..... «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»
- ١٦٧..... «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟»
- ١٦٨..... «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»
- ١٨٦..... «وَلَكِنْ ااتُّوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ»
- ١٩١..... «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»

- «بَلْ أَرِجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» ٢٠٥
- «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأْتِكَ عَلَى مُضْرٍ، وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ... اللَّهُمَّ الْعَنِ
فُلَانًا وَفُلَانًا»..... ٢٠٥
- «أَنَا سَيِّدٌ وَلِدَ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ» ٢٢٣
- «لَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ، تُبَلِّغُهُ الْإِبِلَ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ» ٢٢٣
- «خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» ٢٢٩
- «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا» ٢٢٩
- «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا
عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ» ٢٥٥
- «لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ» ٢٧٢
- «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ٢٩٢
- «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» ٢٩٥
- «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» ٣٠٠
- قصة المسيء في صلاته ٢٩٨



فهرس الفوائد

الصفحة	الفائدة
٧.....	التَّسْمِيَةُ لِلسُّورِ مِنْهَا شَيْءٌ تَوْقِيفِيٌّ مِنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمِنْهَا شَيْءٌ اجْتِهَادِيٌّ
٧.....	قد يكونُ للسُّورَةِ عِدَّةُ أَسْمَاءٍ.....
٧.....	سُورَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ.....
٨.....	الاستثناء لَيْسَ بِمَقْبُولٍ إِلَّا إِذَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ.....
٩.....	وتقسيم الآيات أَيْضًا تَوْقِيفِيٌّ.....
٩.....	البِسْمَلَةُ.....
١١.....	الحروف الهجائية.....
١٤.....	﴿الْكِتَابِ﴾ بِمَعْنَى: المَكْتُوب.....
١٥.....	كُلُّ آيَةٍ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهَا إِعْجَازٌ.....
١٥.....	أَبَانَ تُسْتَعْمَلُ قَاصِرَةً وَمُتَعَدِّيًا.....
١٥.....	كَلَّمَا جَاءَتْ (مُبِين) فِي الْقُرْآنِ إِنْ أَمَكَنَ أَنْ تُفَسَّرَ بِالْإِبَانَةِ.....
١٦.....	ترك المفعول في قوله: ﴿أَلْمِينِ﴾ لِإِفَادَةِ الْعُمُومِ وَالشُّمُولِ.....
١٦.....	ما خفي على أحد من الناس ما خفي من الأحكام، إلا لقصور في فهمهم، أو في علمهم، أو في إرادتهم.....
١٧.....	يقول قائل: إننا لا نجد كل شيء في القرآن.....
١٧.....	القرآن أتى بتبيان كل شيء على العموم، والسنة أنزلها الله عليه ﷺ لتبين للناس موضوعه.....

- ١٧..... قصة عن الشيخ مُحَمَّد عَبْدُهُ مع رجلٍ نصرانيّ.
- ١٨..... التّبيان في القرآنِ
- ١٩..... من المذاهب الباطلة: «مذهب أهل الصرفة»
- ٢٠..... (لعل) للإشفاق، وتكون للتعليل وتكون للتّرجي
- ٢٠..... الإنسان الداعية لا ينبغي أن يهلك نفسه في الهمّ والغمّ لعدم قبولِ الناسِ للحقِّ
- ٢١..... «عليك بِخاصّةِ نفسك»
- ٢٣..... قوله: ﴿مَنْ أَسْمَاءُ﴾ هل المراد بِهَا السَّقْف أم المراد بِهَا العُلُو؟
- ٢٤..... أن الأسباب مؤثّرة
- ٢٤..... إثبات الحكمة
- ٢٥..... هل تدلُّ الآيةُ على أن الله في السّماء؟
- ٢٥..... هل يدل تنكيرُ الآيةِ على عظمتها؟
- ٢٦..... سُمِّيَ القرآنُ ذِكْرًا لِأَنَّ بِهِ التذكّرَ والتذكير
- ٢٧..... أن نزولَ هذا القرآنِ وإتيانه من مقتضى رحمةِ الله
- ٢٧..... الصّفة الكاشفة
- ٢٧..... أن المحدث هو الذّكر نفسه
- ٢٧..... روي عن ابن عباس - أنّه نزل إلى بيتِ العزّة من اللّوح المحفوظ
- ٢٨..... الصّفة السّببية
- ٢٨..... مراعاة الفواصل
- ٢٩..... الإغراض معنويٌّ وحسيٌّ
- ٣٠..... التّكذيب ببعض الآيات
- ٣١..... التّكذيب بالشيءِ الحقّ نوعٌ من الاستهزاء به

- ٣١ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى
- ٣٢ الرؤية الحسية
- ٣٢ الرؤية العلمية
- ٣٣ قوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾
- ٣٤ الدلالة على الحكمة البالغة
- ٣٥ (كان) قال سيبويه: زائدة
- ٣٥ لا ينتفع بالآية إلا المؤمن
- ٣٦ إن العزة تنقسم إلى ثلاثة أقسام
- ٣٧ أن العزيز الذي يرى نفسه قاهراً في الغالب لا تكون فيه رحمة
- ٣٨ قصة موسى
- ٣٨ بدأ الله تعالى بذكر قصص الأنبياء مقدماً ذكر قصة موسى؛ لطولها ولأهميتها
- ٣٩ (أن) تفسيرية
- ٤٠ فائدة الإبهام ثم البيان بعده
- ٤١ ﴿أَلَا﴾ الهمة للاستفهام الإنكاري
- ٤١ فضل الله سبحانه وتعالى على الخلق
- ٤٢ لا بأس في الإجمال في الكلام
- ٤٤ ضيق الصدر
- ٤٥ قصة أخذ الجمرة باطلاً
- ٤٦ جهل البيان
- ٤٦ جواز بيان الإنسان حاله إذا لم يقصد به الشكوى
- ٤٦ جواز ذكر الوسائل التي تستوجب القبول في الدعاء

- ٤٧..... قتل القبطيِّ
- ٤٨..... جواز الخوف الطبيعيِّ
- ٤٩..... انقلاب العصا حيةً
- ٥٠..... (أجري الاثنان مجرى الجماعة)
- ٥٠..... إثبات المعية لله عزَّ وجلَّ
- ٥١..... تفسير الإمام أحمد للمعية في العلم
- ٥١..... لا تُفترنُ المعية بالمشاركة بالمكان
- ٥٢..... تشجيع الإنسان في مهمته
- ٥٣..... القاسي إذا قوبلَ بلهجة قاسية قسا أكثر
- ٥٣..... الإنسان إذا كان عاتياً جباراً فلا ينبغي أن يُقابلَ بالعُتُوِّ والجبروتِ
- ٥٤..... الأصل أن موسى هو الرسول
- ٥٤..... العالمون
- ٥٥..... القوم والأهل
- ٥٥..... ما الذي دلنا أن فرعون كان يعتقد بربوبية الله؟
- ٥٦..... الإرسال بمعنى الإطلاق
- ٥٧..... ذكر جواب فرعون لموسى
- ٥٧..... الإيجاز عند البلاغيين مُنْقَسِمٌ إلى قسمين
- ٥٩..... أن الصفة إذا قُدمت أُعربت حالاً
- ٥٩..... أقلُّ الجمع ثلاثُ
- ٥٩..... أن الولد سوف ينفع
- ٦٠..... الإبهام يأتي للتعظيم أحياناً

- ٦١ (إِذَا) لِلْمُسْتَقْبَلِ
- ٦١ الضَّلَالُ يُنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ
- الضَّلَالُ الَّذِي حَصَلَ أَوِ الَّذِي اتَّصَفَ بِهِ مُوسَى حِينَ قَتَلَهُ الْقِبْطِيُّ ضَلَالًا لَا يُلَامُ عَلَيْهِ
- ٦٢ عَلَيْهِ
- ٦٢ يَصِحُّ أَنْ نَصِفَ الْمَخَالِفِينَ لِلصَّوَابِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالضَّلَالَةِ
- ٦٢ أَنَّ الضَّلَالَ مَعَ الْجَاهِدِ وَتَحْرِي الْحَقِّ لَا يُذَمُّ عَلَيْهِ الْمَرْءُ وَإِنْ وُصِفَ بِهِ
- ٦٢ الْجَهْلُ الَّذِي لَيْسَ عَنْ عَمْدٍ
- ٦٣ وَجُودِ الْقَرِينَةِ
- ٦٣ (لَمَّا) ظَرَفٌ بِمَعْنَى: (حِينَ)
- ٦٤ لَيْسَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَا يُسَمَّى بِالْمَجَازِ
- ٦٤ الْعَطْفُ يُفْتَضِي الْمَغَايِرَةَ،
- ٦٦ كَوْنِ الْإِنْسَانِ لَا يَقْتُلُ هَذَا الرَّجُلَ وَهُوَ يَقْتُلُ غَيْرَهُ عُدُوَانًا لَيْسَ بِنِعْمَةٍ
- ٦٧ الْمَرْأَةُ إِذَا بَقِيَتْ بِدُونِ قِيَمٍ تَضَطَّرُّ إِلَى أَنْ تَخْدُمَ
- ٦٧ تَرَكَ الظُّلْمَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى لَا يُعَدُّ نِعْمَةً
- ٦٨ تَأْكِيدِ الذَّمِّ بِمَا يُشْبِهُ الْمَدْحَ
- ٧٠ (مَا) يُسْتَفْهَمُ بِهَا فِي الْأَصْلِ عَنِ الْحَقِيقَةِ
- ٧٠ أَسْلُوبِ الْحَكِيمِ
- ٧٠ إِبْطَالِ عُبُودِيَّةِ فِرْعَوْنَ
- ٧٣ ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾
- ٧٤ الرُّبُوبِيَّةِ الْعَامَّةِ
- ٧٤ كَلَامُ لَيْنٍ مِنَ الْمُفْسِّرِ

- ٧٦..... المجنونُ: فاقدُ العقلِ
- ٧٧..... ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْجِهَةُ فَقَطْ
- ٧٩..... العاجزُ عن ردِّ الحجَّةِ بالحجَّةِ يَعْمِدُ إِلَى الْقُوَّةِ إِذَا كَانَ لَهُ سُلْطَانٌ
- ٨٠..... اجتمعَ شرطٌ وقسمٌ
- ٨٠..... المراد بالمعبودِ
- ٨١..... ما فعل الحجاجَ بِجَحْدَرِ بْنِ مَالِكٍ
- ٨٢..... من لُطْفِ اللَّهِ
- ٨٤..... الجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ
- ٨٥..... آيَةُ الْعَصَا، وَآيَةُ الْيَدِ
- ٨٥..... الْإِنْسَانَ لَا شَكَّ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَحَدًا لِيُخْرِجَهُ مِنْ أَرْضِهِ
- ٨٥..... المراد بالأمرِ
- ٨٦..... الْمَشُورَةُ
- ٨٨..... الشَّرْطِ وَالْجِزَاءِ
- ٨٨..... (سَحَّار) هِيَ مِنْ بَابِ الْمُبَالَغَةِ، أَوْ هِيَ مِنْ بَابِ النَّسْبَةِ
- ٩٠..... الْاسْتِفْهَامُ
- ٩١..... الْأَقْبَاطُ
- ٩١..... ضَمِيرُ الْفَصْلِ
- ٩١..... كَيْفَ يَصِحُّ التَّوَكُّيدُ مَعَ الْاسْتِفْهَامِ
- ٩٤..... (نَعَمْ) حَرْفُ جَوَابٍ
- ٩٤..... حَرْفُ الْجَوَابِ إِعَادَةً لِلسُّؤَالِ
- ٩٥..... (نعم) حَرْفُ جَوَابٍ لُغَةً وَعُرْفًا

- ٩٦..... التنوين في (إِذَا) عَوْض.....
- ٩٩..... السَّحَر حَقِيقَةٌ.....
- ١٠٠..... هل يُقْتَلُ العائِنُ؟.....
- ١٠٠..... بِمَ يعالَجُ الإِنسانُ إِذا أُصِيبَ بعينٍ؟.....
- ١٠١..... العَيْنُ لا تَأْتِي إِلاَّ عَلى عَفْلَةٍ.....
- ١٠١..... العَيْنُ مَنشُؤُها الحَسَدُ.....
- ١٠١..... الجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ تُدَلُّ عَلى الثَبوتِ والاسْتِقْرارِ والدوامِ.....
- ١٠٤..... هل يُوَثِّرُ السَّحَرُ؟.....
- ١٠٦..... ربوبِيَّةُ فِرْعَوْنَ.....
- ١٠٦..... مراعاةِ الفواصِلِ.....
- ١٠٧..... الإِنسانُ يَنسى العاطفَةَ بينه وبين أَقارِبِهِ.....
- ١٠٧..... الحَقُّ إِذا تَبَيَّنَ كانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِهِ مَن يَعْرِفُ هَذَا الحَقَّ.....
- ١٠٨..... مُبادِرَةُ السَّحَرَةِ إِلى الإِيمانِ.....
- ١١١..... الصَّلْبُ بَعْدَ المَوْتِ أَم قَبْلَهُ؟.....
- ١١٢..... في لِحْظَةٍ واحِدَةٍ انقلبَ الكُفْرُ العَظيمُ إِلى إِيانٍ عَميقٍ.....
- ١١٣..... شِدَّةُ تَمويهِ فِرْعَوْنَ.....
- ١١٣..... قوَّةُ إِيانِ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ.....
- ١١٣..... الإِيمانُ إِذا صَدَقَ صارَ أَقوى مِنَ العاطفَةِ.....
- ١١٤..... هلِ الخَطايا والسَّيئاتُ واحِدَةٌ.....
- ١١٥..... أَنَّ السَّبْقَ إِلى الإِيمانِ وِالى العَمَلِ الصَّالِحِ مَنقَبَةٌ.....
- ١١٦..... هل كانَ بنو إِسْرائيلَ مُؤمِنينَ؟.....

- هل قتل جميع السحرة؟ ١١٦
- أن السبق إلى الإيمان من أسباب المغفرة والرفعة ١١٦
- أن الإطلاق تُقيدُهُ قرينة ١١٧
- الوحي ١١٨
- (أن) تفسيرية ١١٨
- أليس من الأولى أن يُكثِرُهُم لأجل أن يستعدوا؟ ١٢١
- من المقصود بقوله: (شِرْذمة)؟ ١٢١
- القَصَصُ في القرآن يكون من كلام القاصِّ، يعني: من كلام الله سبحانه وتعالى أو
من كلام المتحدث؟ ١٢٣
- ألا تشمل (حاذِرُونَ) كلا المعنيين؟ ١٢٤
- صيغة العظمة ١٢٥
- الكنوز هي الأموال العظيمة الكثيرة من الذهب والفضة ١٢٦
- بيان عقوبة الله سبحانه وتعالى للطاغين ١٢٧
- أن العقوبة بعد التنعيم أشد ١٢٧
- تحذير للطغاة ١٢٧
- أن الإنسان قد يُؤخذ من حيث يرى أنه علا وظهر ١٢٧
- أورث الله ديار فرعون وقومه وأموالهم بني إسرائيل؟ ١٢٨
- هل كان بنو إسرائيل يسكنون معهم؟ ١٢٩
- هل موسى بعد إبراهيم -عليهما السلام- مباشرة؟ ١٣٠
- هل بنو إسرائيل خرجوا كلهم من مصر؟ ١٣٠
- قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ١٣١

- ١٣٢..... خرج موسى وقومه ليلاً اختفاءً
- ١٣٤..... المراد بالمعينة
- ١٣٤..... قوّة إيمان موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
- ١٣٥..... أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا يَهْدِي إِلَى الطَّرِيقِ الْمَعْنَوِيِّ يَهْدِي أَيْضًا إِلَى الطَّرِيقِ الْحِسِّيِّ
- ١٣٦..... (صَرَبَ) لَا يَأْتِي رُبَاعِيًّا
- ١٣٦..... أَنَّ الْبَحْرَ لَمْ يَنْفَلِقْ بِمَجْرَدِ الْوَحْيِ
- ١٣٧..... قوله: ﴿الْبَحْرُ﴾ المراد بِهِ الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ
- ١٣٨..... النَّارُ الَّتِي مِنْ طَبِيعَتِهَا الْإِحْرَاقُ وَالْحَرَارَةُ كَانَتْ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ
- ١٣٨..... مَا جَرَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ جَرَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ
- ١٣٩..... مَنِ الْمَقْصُودُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخْنَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾
- ١٤٠..... عِبَادَةُ الصَّنَمِ
- ١٤٠..... الْإِنْسَانُ إِذَا تَوَفَّرَتْ لَدَيْهِ النِّعْمَةُ قَدْ يَخْتَلِفُ حَالُهُ
- ١٤٢..... الْجَدُلُ لَا فَائِدَةَ فِيهِ
- ١٤٢..... مَا الْمَقْصُودُ بِالْفِرْقِ؟
- ١٤٢..... مَا الْغَرَضُ مِنْ ذِكْرِ عَهْدِ أَسْلَافِهِمْ؟
- ١٤٣..... أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا
- ١٤٣..... تَفْلِيْقُ الْمَاءِ
- ١٤٧..... لَيْسَتْ الْآيَةُ بِإِعْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ فَحَسْبُ، وَلَكِنْ بِفَلْقِ الْبَحْرِ، وَكَوْنِهِ يَبَسًا
- ١٤٨..... امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ
- ١٤٨..... عِظَامَ يُوسُفَ
- ١٤٨..... بِإِمْكَانِ فِرْعَوْنَ أَنْ يَعُومَ فِي الْمَاءِ؟

- ١٤٩ من قواعد البلاغة أنه لا يؤكد الكلام إلا للمتدّد أو للمُنكر
- ١٥٠ العزّة والحكمة
- ١٥١ لا يكون النبأ إلا في الأمور الهامة
- ١٥٢ (آزر)
- ١٥٤ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾
- ١٥٥ (هل) للاستفهام
- ١٥٦ ما الحكمة في حذف المفعول؟
- ١٥٩ إثبات البعث
- ١٥٩ أن كل إنسان مُقتَرٍ إلى الدعاء حتّى الأنبياء
- ١٦٠ لا ينفع الإنسان يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم
- ١٦٠ فضيلة القلب السليم
- ١٦١ أن هذه الأصنام تُعذب وتلقى في جهنم
- ١٦٢ فائدة إدخال الأصنام النار
- ١٦٢ إثبات الجنة
- ١٦٢ إثبات النار
- ١٦٢ أصحاب الجحيم
- ١٦٣ جنود إبليس هم الذين يتبعونه ويُعوون النَّاس
- ١٦٣ أن كل من نصر أحدًا فهو من جنوده ولو بالاتباع
- ١٦٤ الأصل في العطف: التغاير
- ١٦٧ من الضلال أن يُسوّي الإنسان المخلوق بالخالق في العبادة
- ١٦٧ طاعة ولي الأمر في المعروف

- ١٦٨ كيف يتصوّر أن أصحاب النار يتجادلون حال العذاب؟
- ١٦٨ أحوال الآخرة لا تُقاس بأحوال الدنيا
- ١٦٩ دليل على ندم أهل النار ندمًا عظيمًا
- ١٧٠ انتفاء التشبيه عن الله
- ١٧١ الكفار الذين تبعوا المستكبرين لا عُذر لهم
- ١٧٣ الشافع: هو المتوسّط للغير بجلبٍ منفعةٍ أو دفعٍ مضرّةٍ
- ١٧٤ إثبات الشفاعة للمؤمنين
- ١٧٥ الصديق: من صدقك الوُدّ
- ١٧٧ لو أنّهم ردّوا هل يرجعون؟
- ١٧٨ إذا لم يتقدّم الإنسان فليس بمؤمن
- ١٧٨ النصارى في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام
- ١٨٠ من قصة إبراهيم عليه السلام
- ١٨٢ نوح عليه الصلاة والسلام هو أول رسول
- ١٨٣ في عهد آدم لم يكن حاجةً إلى الرسالة
- ١٨٤ نوح أرسل إلى قومه وليس هناك أممٌ مختلفةٌ
- ١٨٦ إن كان نوح نبيّ ولم يرسل برسالة، فكيف اتبعه أولاده؟
- ١٨٧ دليل أهل العلم على أن الرسل السابقين لم يرسلوا إلى الجن
- ١٨٧ هل يعني أن الجن يعبدون بشرع؟
- ١٨٧ المراد بالرسل
- ١٨٨ النبي غير الرسول

- ١٨٨ مَنْ كَذَبَ أَيَّ رَسُولٍ فَهُوَ مِنْكَرٌ لِلَّهِ
- ١٨٩ أَنَّ التَّكْذِيبَ بِالْحَقِّ مِنْ شَخْصٍ تَكْذِيبٌ بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْخَاصِ
- ١٨٩ أَنَّ نُوْحًا أَرْسَلَ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ فِي وَقْتِهِ
- ١٩٠ ﴿أَلَا﴾: فِي الْأَصْلِ تَكُونُ لِلْعَرْضِ
- إِذَا اتَّقَوْا اللَّهَ وَأَطَاعُوا رَسُولَهُ، فَقَدْ حَقَّقُوا شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ هَذَا
- ١٩٢ رَسُولُ اللَّهِ
- مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ لِيَتَنَالَ بِهِ أَمْرًا مِنَ الدُّنْيَا، فَلَيْسَ طَرِيقُهُ
- ١٩٣ طَرِيقَ الرُّسُلِ
- ١٩٤ الْفَرْقُ بَيْنَ التَّأْكِيدِ وَالتَّأْسِيسِ
- ١٩٩ النَّذِيرُ هُوَ الْمُخْبِرُ بِمَا يَخُوفُ
- ١٩٩ يَنْبَغِي مَوَالِةَ الْمُؤْمِنِينَ
- ٢٠٠ التَّوَاضَعُ لِلْمُؤْمِنِينَ
- ٢٠١ إِذَا اجْتَمَعَ شَرْطٌ وَقَسَمَ، فَاحْذِفْ جَوَابَ الْمَتَأَخَّرِ
- ٢٠٢ هَلْ يَقْصِدُونَ أَنَّهُمْ يَرْجُوْنَهُ بِالْحِجَارَةِ أَوْ بِالْقَوْلِ؟
- ٢٠٤ هَلْ يُخْبِرُ نُوْحٌ اللَّهَ تَعَالَى بِالْوَاقِعِ؟ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى عَالِمًا بِهِ؟
- ٢٠٦ هَلْ كَوْنَ الرَّسُولِ ﷺ دَعَا عَلَى الْمَلَأِ مِنْ قُرَيْشٍ، يَدُلُّ هَذَا عَلَى جَوَازِ الدُّعَاءِ؟
- ٢٠٩ هَلْ هَذَا الْفُلْكَ يَشْمَلُ الطَّائِرَاتِ وَالسِّيَّارَاتِ
- ٢١١ هُوَ لِأَنَّ الَّذِينَ نَجَوْا هَلْ هُمْ الَّذِينَ بَقُوا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ؟
- ٢١١ إِنَّ نُوْحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ الْأَبُ الثَّانِي لِلْإِنْسَانِ
- ٢١٣ أَقْسَامُ الْعِزَّةِ الَّتِي يَتَّصِفُ اللَّهُ بِهَا ثَلَاثَةٌ

- ٢١٤ الرَّحِيمُ
- ٢١٦ عَادُ هُمْ قَوْمٌ هُودٍ.....
- ٢١٦ الْأَحْقَافِ.....
- ٢١٩ التَّقْوَى.....
- ٢١٩ الطَّاعَةَ.....
- ٢٢١ لماذا تحاولون أن تَصَلُّوا للسَّمَاءِ وأنتم عاجزون عن حلِّ مشاكلكم في الأَرْضِ؟ ...
- ٢٢٢ الحيوانات في زَمَنِ نُوحٍ.....
- ٢٢٢ جوازُ وصفِ الإنسانِ بالثناءِ على نفسه للمصلحةِ.....
- ٢٢٣ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ غَرَضُهُ مِنْ عَمَلِهِ، لَا سِيَّمَا الْعَمَلِ الْجَبَّارِ الْعَظِيمِ، أَنْ يَكُونَ غَرَضُهُ غَرَضًا صَحِيحًا.....
- ٢٢٥ قَوْلُ الْمُفَسِّرِ رَحِمَهُ اللهُ: ﴿مَصَانِعٌ﴾ لِلْمَاءِ تَحْتَ الأَرْضِ.....
- ٢٢٧ الاسمِ الموصولِ وَصِلَتِهِ بِمَنْزِلَةِ الاسمِ المُشْتَقِّ.....
- ٢٢٨ التفصيلُ بعدَ الإجمالِ، أو البيانُ بعدَ الإبهامِ، له فوائدٌ.....
- ٢٣٠ الداعيةُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَذْكَرَ المدعوَ بِنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ.....
- ٢٣٥ يَنْبَغِي للداعيةِ مَعَ القَرْنِ بِذِكْرِ النِّعَمِ أَنْ يَقْرِنَ الدعوةَ بالتخويفِ.....
- ٢٣٥ قَدْ يَطْبَعُ عَلَى قَلْبِ الْعَبْدِ فَلَا يَسْتَفِيدُ بِمَوْعِظَةٍ.....
- ٢٣٦ لَا حُجَّةَ لِلْمُعَانِدِ لِلرُّسُلِ سِوَى التَّمَسُّكِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَسْلَافُهُمْ.....
- ٢٣٨ النِّقْمَةُ إِذَا أَتَتْ وَالإِنْسَانُ يَتَوَقَّعُ النِّعْمَةَ، فَتَكُونُ أَشَدَّ.....
- ٢٣٨ كُنَّا إِذَا سَمِعْنَا أَنَّ الأَرْضَ زُلْزَلَتْ فِي أُحُدٍ نَرْتَجِفُ.....
- الحِكْمَةُ فِي كَوْنِ بَعْضِ الرُّسُلِ أَوْ بَعْضِ الأُمَّمِ تَكَرَّرَ ذِكْرُهَا فِي القُرْآنِ كَثِيرًا،

- ٢٣٩ وبعض الرُّسُلِ لم يأتِ له ذِكْرٌ قَطُّ
- ٢٤٠ (مدائِن صالح)
- ٢٤٤ اختلافُ القراءَتَيْنِ تكون فيه فائدةٌ
- ٢٤٥ لا تطيعوا المسرفينَ
- ٢٤٦ الطَّاعةُ نفسها إصلاحٌ بلا شكَّ
- ٢٤٨ كان ابنُ حَزْمٍ - رحمه الله، وعَفَا عنه - شديدًا في المناقشةِ
- ٢٥٠ جاءَ في الإسرائيلياتِ مِنْ أَمَّا خَرَجَتْ مِنْ صَخْرَةٍ
- ٢٥١ إن هذه الناقةَ ناقةٌ وُلِدَتْ مِنْ نُوقٍ
- ٢٥٢ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ يَتَحَاشَوْنَ أَنْ يَصِفُوا المخلوقَ بـ(العظيم)
- ٢٥٢ كَانَ النَّاسُ يَتَحَاشَوْنَ أَيْضًا قَوْلَ (المُعْظَمِ)
- ٢٥٣ العذابُ الَّذِي أَخَذَهُمْ
- ٢٥٤ علينا جميعًا أَنْ نَكُونَ واثقينَ بوعدِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ غيرَ ناظرينَ إلى الأسبابِ الحاضرةِ ...
- ٢٥٥ أحكامُ المُرْتَدِّ
- ٢٥٥ هل كان قومُ صالحٍ كلَّهم يشربون من بئرٍ واحدةٍ؟
- ٢٥٥ لماذا منع الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الشُّرْبِ مِنْ مَائِهِمْ حينَ مَرَّ بِبَيْدِيَارِهِمْ؟
- ٢٥٦ هل شَدُّ الرَّحْلِ لِزِيَارَةِ مَسَاكِنِ ثَمُودَ حَرَمٌ؟
- ٢٥٧ من فوائدِ ذِكْرِ قومِ صالحٍ:
- ٢٥٧ عِظَمُ نِعْمَةِ الأَمَنِ
- ٢٥٧ النَّخِيلُ مِنْ أَطْيَبِ أنواعِ الفواكِه
- ٢٥٧ قُوَّةُ قومِ صالحٍ

- كُلُّ الرُّسُلِ يُرْسَلُونَ أَوْلاً بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ ٢٦٠
- (بَل) لِلْإِضْرَابِ ٢٦٢
- يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُبَغِّضَ الْكَافِرِينَ ٢٦٤
- ﴿فَخَاتَمَتَاهُمَا﴾، لَمْ تُشْعِرَاهُمَا بِالْكَفْرِ ٢٦٦
- أَنَّ قَوْمَ لُوطٍ أَهْلِكُوا بِهَذِهِ الْحِجَارَةِ ٢٦٨
- أَنَّ الْمَعَانِدِينَ لِلرُّسُلِ إِنَّمَا يَلْجَأُونَ إِلَى قُوَّتِهِمْ وَسُلْطَتِهِمْ ٢٦٨
- لَا غِنَى لِأَحَدٍ عَنِ دَعَاءِ اللَّهِ ٢٦٨
- أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْقِذُ أَهْلَ الْحَقِّ مِنْ إِهْلَاكِ الْكَافِرِينَ ٢٦٩
- أَنَّ الْقُرْبَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ لَا يُغْنِي الْإِنْسَانَ شَيْئاً ٢٦٩
- عُقُوبَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَتَنَوَّعُ حَسَبَ الْعَمَلِ ٢٧٠
- أَنَّ اللَّوْطِيَّ يَقْتَلُ ٢٧١
- الْأَيْكَةُ ٢٧٤
- هَلْ مَعْنَى هَذَا أَنَّ شُعَيْباً أُرْسِلَ مَرَّتَيْنِ؟ ٢٧٥
- الْقَوْمُ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ شُعَيْبٌ ٢٧٧
- هَذِهِ الْقِصَصُ عِبْرٌ ٢٨٢
- فِي سُورَةِ هُودٍ الْكَثِيرُ مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ ٢٨٤
- يُسْتَفَادُ مِنْ قِصَّةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٢٨٤
- الرَّبُوبِيَّةُ الْعَامَّةُ ٢٨٦
- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ٢٨٦
- مِنْ مُقْتَضَى أَمَانَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٢٨٦

- ٢٨٧..... يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةَ لِعَمَلِ جَمِيعِ الْخَلْقِ
- ٢٨٩..... عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابُهُ مَنْ آمَنُوا
- ٢٩١..... الْمَعَانِدُ الْمُكَابِرِ يَضْعُبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ
- ٢٩٣..... كَيْفِيَّةَ اسْتِعْجَالِهِمْ بِالْعَذَابِ
- ٢٩٥..... ذَكَرَ عَنِ ابْنِ حَجَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ قَاضِي الْقَضَاةِ فِي مِصْرَ
- ٢٩٨..... أَنَّ الشَّرَائِعَ لَا تُلْزَمُ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ
- ٣٠٢..... أَنَّ الْقُرْآنَ تَقَرَّرَ مِنْهُ الشَّيَاطِينُ
- ٣٠٢..... أَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا انْقَادَ لِلشَّيْطَانِ ابْتَعَدَ عَنِ فَهْمِ الْقُرْآنِ
- ٣٠٣..... الدُّعَاءُ هُنَا يَشْمَلُ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ وَدُعَاءَ الْعِبَادَةِ
- ٣٠٦..... بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ
- ٣٠٨..... مِنَ الْمَسَائِلِ النَّادِرَةِ فِي الْقِرَاءَاتِ
- ٣٠٩..... التَّوَكُّلُ
- ٣١١..... كَانَتْ الشَّيَاطِينُ قَبْلَ بَعْتِهِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَسْتَمِعُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ السَّمَاءِ
- ٣١٢..... لَا يَتَّبِعُ الشَّعْرَ غَالِبًا إِلَّا الْغَوَاةَ
- ٣١٢..... الشَّعْرُ الْمَذْمُومُ
- ٣١٣..... الْمُرَادُ بِالشَّعْرَاءِ
- ٣١٥..... الظُّلْمُ مَرْتَعٌ مَبْتَغِيهِ وَخِيمٌ



فهرس آيات السورة

الآية		الصفحة
تقديم	٥
سورة الشعراء	٧
”	قال الله عزَّوجلَّ: ﴿طَسَّرَ ①﴾	١١
”	قال الله عزَّوجلَّ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ②﴾	١٤
”	قال الله عزَّوجلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ فَتَسْكُ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③﴾	٢٠
”	قال الله عزَّوجلَّ: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④﴾	٢٢
”	قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ⑤﴾	٢٦
”	قال الله عزَّوجلَّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑥﴾	٣٠
”	قال الله عزَّوجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦﴾	٣٢
”	قال الله عزَّوجلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ⑧﴾	٣٤
”	قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑨﴾	٣٦
”	قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⑩﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ٤	٣٨
”	يَنْفِقُونَ ﴿١١﴾	٣٨
”	قال الله عزَّوجلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ⑫﴾	٤٣

- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ ٤٤
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ ٤٧
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ ٤٩
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ ٥٣
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾ ٥٦
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلِئْتَ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ ٥٧
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ ٦٠
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ ٦١
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ ٦٣
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ ٦٦
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ٦٩
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ٧٢
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ٧٤
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ ٧٦
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ٧٧
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لِيْنِ أَخَذتَّ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ٧٩
- ” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِبَنِي مُيَسِرٍ ﴿٣٠﴾﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ

- مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ٨٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٣٦﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدَّائِنِ حَشِيرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سِحَارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ٨٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٣٨﴾ فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ ٨٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٣٩﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلْنَا نَبْرِجُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ ٩٠
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِيَرْعَوْنَ آيِنَ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ ٩٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٢﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُفْرِّبِينَ ﴿٤٢﴾ ٩٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٣﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ ﴿٤٣﴾ ٩٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَوْا حِجَالَهُم وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّتِكَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ٩٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ١٠٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٦﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ١٠٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٩﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا صَبْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مَسْئِلُونَ ﴿٥٠﴾ ١٠٨

- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٥١﴾ ١١٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾ ١١٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ ﴿٥٣﴾ ١١٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ ﴿٥٤﴾ ١٢٠
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ ١٢٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ ١٢٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿٥٨﴾ ١٢٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْثَقْنَا بِئِنَّ إِسْرَائِيلَ ﴾ ﴿٥٩﴾ ١٢٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَتَبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ ﴿٦٠﴾ ١٣٠
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا تَرَىٰمَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا
- ١٣٢ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ
- ١٣٥ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿٦٣﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَرْزَلْنَا نَمَّ الْأَخْرِينَ ﴾ ﴿٦٤﴾ وَأَخْبَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ
- ١٤٤ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ ﴾ ﴿٦٦﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٦٧﴾ ١٤٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِزُّ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿٦٨﴾ ١٤٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ
- ١٥٠ ﴿٧٠﴾

- ١٥٢ ﴿٧١﴾ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا تَعْبُدُوا أَصْنَامًا فَنظَلُّهَا عَنكِفِينَ﴾
- ١٥٤ ﴿٧٢﴾ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾
- ١٥٥ ﴿٧٤﴾ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ يَفْعَلُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ
- ١٥٧ ﴿٧٥﴾ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ الَّذِينَ قَدْ قَدَّمْتُمْ
- ١٥٨ ﴿٧٦﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي بَيْوتِكُمْ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ كَمَا كَفَرْتُمْ
- ١٥٩ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي بَيْوتِكُمْ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ كَمَا كَفَرْتُمْ
- ١٦٠ ﴿٧٨﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي بَيْوتِكُمْ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ كَمَا كَفَرْتُمْ
- ١٦٢ ﴿٧٩﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي بَيْوتِكُمْ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ كَمَا كَفَرْتُمْ
- ١٦٤ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي بَيْوتِكُمْ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ كَمَا كَفَرْتُمْ
- ١٧٠ ﴿٨١﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي بَيْوتِكُمْ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ كَمَا كَفَرْتُمْ
- ١٧٢ ﴿٨٢﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي بَيْوتِكُمْ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ كَمَا كَفَرْتُمْ
- ١٧٤ ﴿٨٣﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي بَيْوتِكُمْ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ كَمَا كَفَرْتُمْ

- ١٧٥ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٢﴾
- ١٧٩ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾
- ١٨١ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نوحَ الْمُرْسَلِينَ ١٠٥﴾
- ١٨٩ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنفُونَ ١٠٦﴾ إِي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٠٨ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٠٩ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١١٠ ﴿١١٠﴾
- ١٩٤ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا اتَّوَيْنَاكَ يَا رَبَّنَا فَارْكَبْنَا الْفُلَ فَكَانَ قَوْمًا مَكْرُوهِينَ ١١١﴾ قَالُوا اتَّوَيْنَاكَ يَا رَبَّنَا فَارْكَبْنَا الْفُلَ فَكَانَ قَوْمًا مَكْرُوهِينَ ١١٢ ﴿١١٢﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ١١٣ ﴿١١٣﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ١١٥ ﴿١١٥﴾
- ٢٠٠ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا لَيْتَ نَحْنُ نَسُوقُ الْخَيْلَ بِقُوَّةٍ لِنَمُدَّ بِهَا الْقَارِئَ وَنَجْعَلُ لِنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مَدِينًا ١١٦﴾ قَالُوا لَيْتَ نَحْنُ نَسُوقُ الْخَيْلَ بِقُوَّةٍ لِنَمُدَّ بِهَا الْقَارِئَ وَنَجْعَلُ لِنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مَدِينًا ١١٧ ﴿١١٧﴾ فَانفَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْنِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١١٨ ﴿١١٨﴾
- ٢٠٦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِ الْمَشْحُونِ ١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ١٢٠ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٢١ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٢٢ ﴿١٢٢﴾
- ٢١٥ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نَنفُونَ ١٢٤ ﴿١٢٤﴾ إِي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٢٥ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٢٦ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٢٧ ﴿١٢٧﴾ أَتَيْتُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَبْسُتُونَ ١٢٨ ﴿١٢٨﴾
- ٢٢٣ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَخَذُوا مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جِبَارِينَ ١٣٠ ﴿١٣٠﴾

- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾
 ٢٢٦ ﴿١٣٤﴾ وَحَنَّتْ وَعَيُونُ ﴿١٣٤﴾ ﴿١٣٤﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا
 أَوَعِظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ
 بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴿١٣٨﴾
 ٢٣٠ ﴿١٣٨﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۝١٤٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۝١٤١﴾ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
 ٢٣٦ ﴿١٤٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴿١٤٠﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَبَتْ نُمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ
 ٢٣٩ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ
 أَجْرٍ ۝١٤٥﴾ إِنِّي أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴿١٤٥﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَتَّكُرُونَ فِي مَا هُنَّآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْوُونَ ﴿١٤٧﴾
 وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْمَهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَهَرِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا
 ٢٤١ ﴿١٥٢﴾ اللَّهُ وَأَطِيعُوا وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ
 ٢٤٦ ﴿١٥٤﴾ بِأَيَّةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴿١٥٤﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ ۝١٥٥﴾ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا
 تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾
 ٢٤٩ ﴿١٥٩﴾ فَآخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۝١٥٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۝١٥٩﴾ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴿١٥٩﴾

- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ ٢٥٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿آتَاوُنَا الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ ٢٥٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا لَيْن لَّر تَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ ٢٦٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ ٢٧٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِجْلَةَ الْأُولَىٰ ﴿١٨٤﴾﴾ ٢٧٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا لِمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ عَلَّمْتُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ ٢٧٩

- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِنُفْسٍ لَّنَزِيلٍ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَيَّ فَلْيَكُنْ لِيَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾ وَلِنُفْسٍ لَّنَزِيلٍ الْأُولِينَ ﴿١١٦﴾﴾. ٢٨٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ آيَةٌ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاؤُا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١١٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٢١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿١٢٣﴾ أَفِعْدَا إِنَّا يَسْتَعْلِمُونَ ﴿١٢٤﴾﴾. ٢٨٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿١٢٧﴾﴾. ٢٩٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿١٢٨﴾ ذَكَرْنَاهَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٢٩﴾﴾. ٢٩٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا نَزَّلْنَا بِهِنَّ الشَّيْطَانِ ﴿١٣٠﴾ وَمَا يَبْغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ ﴿١٣٢﴾﴾. ٣٠٠
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٣﴾﴾. ٣٠٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٣٤﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٥﴾ فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾﴾. ٣٠٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٣٧﴾ الَّذِي يَرِنَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٣٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾. ٣٠٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أَتَيْتُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانِ ﴿١٤١﴾ نَزَلَ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴿١٤٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كِلَابًا ﴿١٤٣﴾﴾. ٣٠٩

- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوِرْنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَتَّهَمُ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ ٣١١
- ” قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ ٣١٣
- فهرس الأحاديث والآثار ٣١٥
- فهرس الفوائد ٣١٧
- فهرس آيات السورة ٣٣٣

